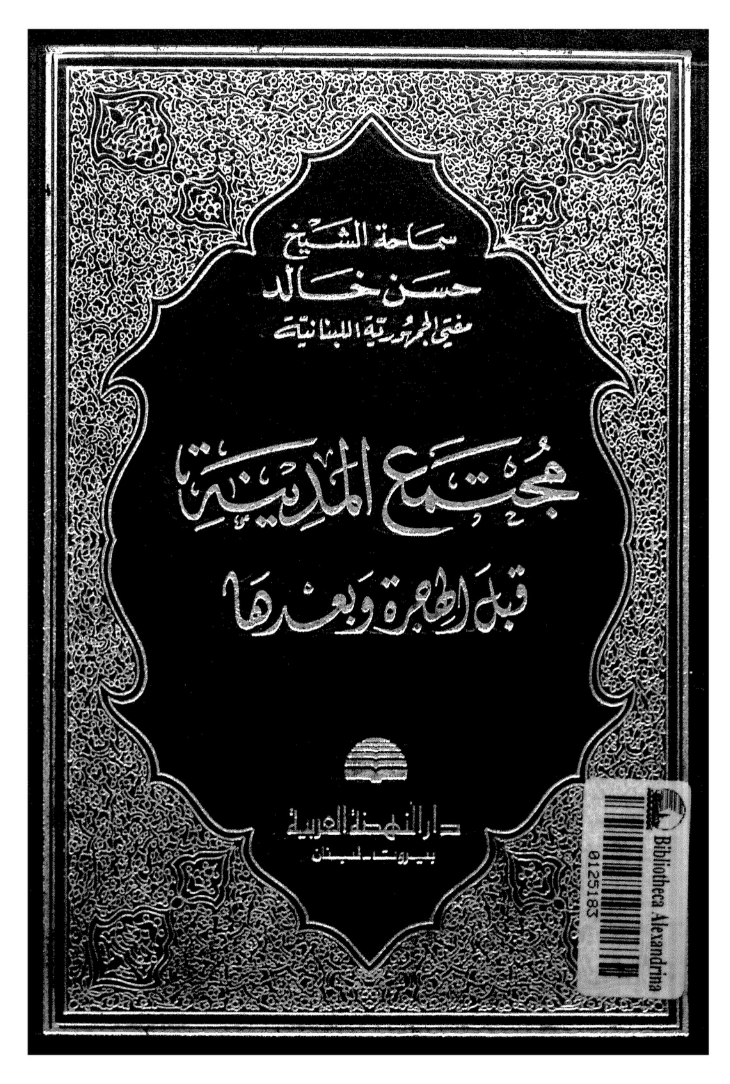
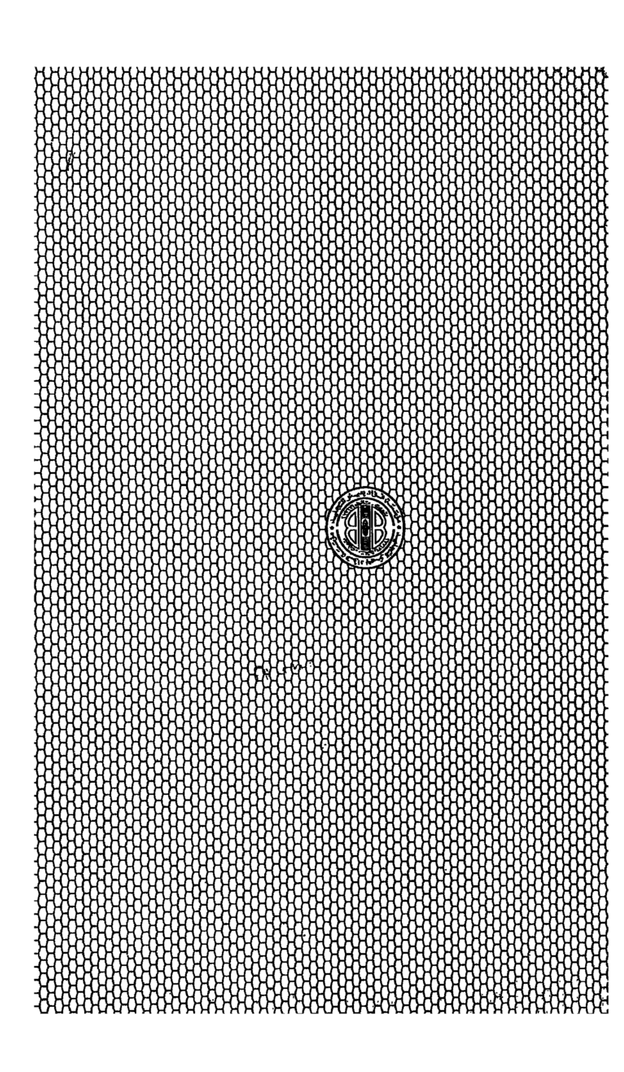
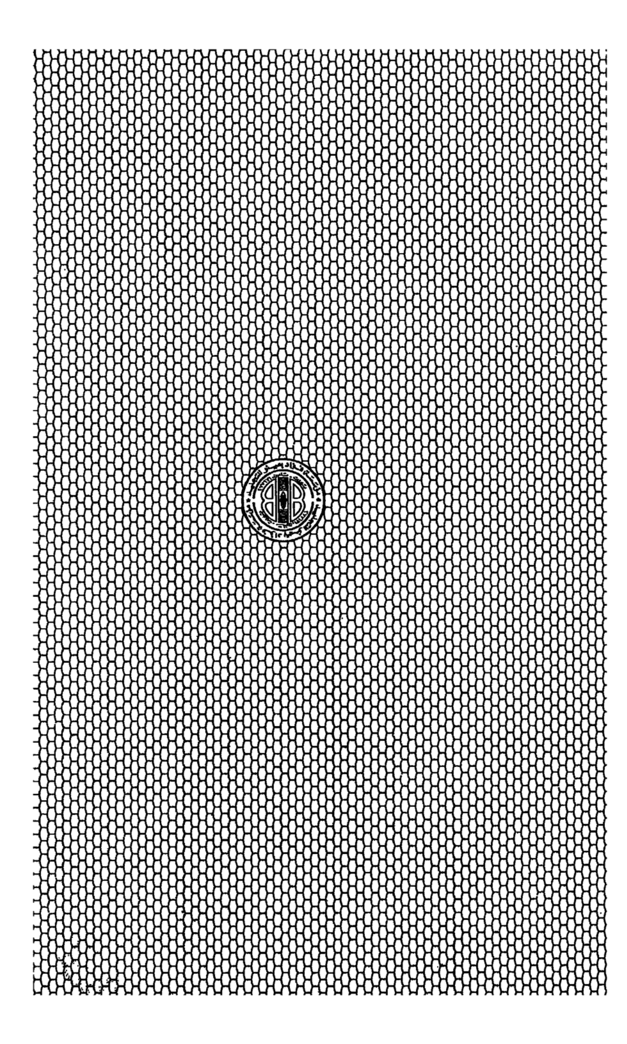
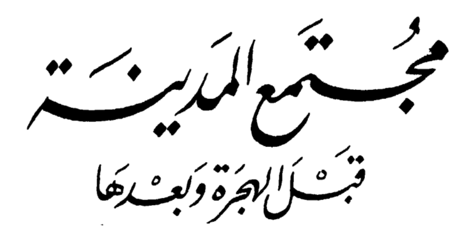

سماحة الشيخ
حسن خالد
مفتي الجمهورية اللبنانية
مجتمع المدينة
قبل الهجرة وبعدها
دار النهضة العربية
بيروت - لبنان
Bibliotheca Alexandrina
0125183





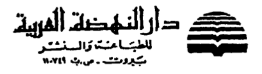


مجتمع المدينة
قبل الهجرة وبعدها

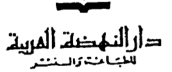


تأليف

سَماحة الشيخ حسن خالد
مُفتي الجمهوريّة اللبنانية

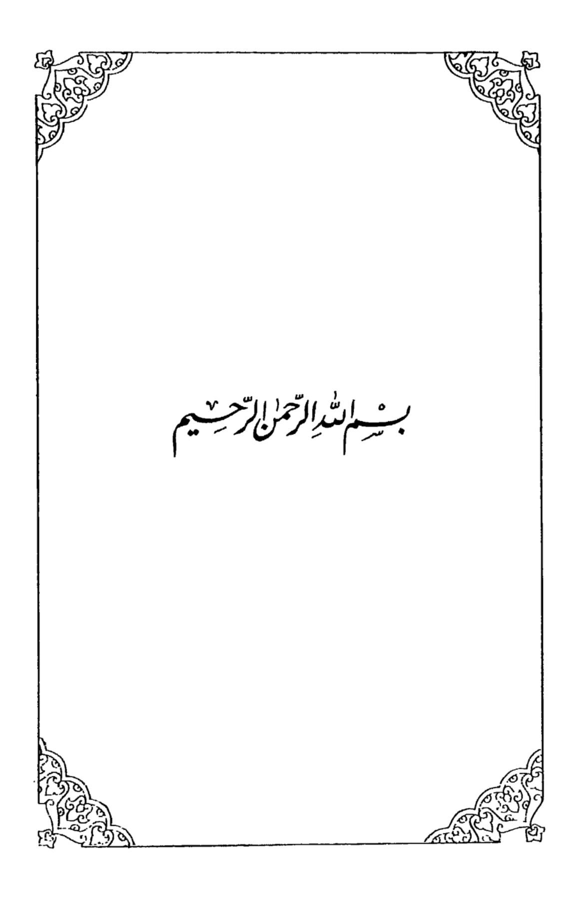


١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



* الإدارة : بيروت، شارع مدحت باشا - بناية كريدية تلفون: ٣١٢٢١٣ - برقياً: دانهضة - ص.ب.: ٧٤٩ - ١١ - تلكس: NAHDA 40290 LE

* التوزيع : شارع البستاني - بناية اسكندراني رقم ٣ غربي جامعة بيروت العربية - تلفون: ٣٠٣٨١٦ - ٣١٦٢٠٢.


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

أخطأ عدد من المفكرين والكتاب الغربيين، إذْ وصف الإسلام بأنّه دين السيف والقوّة، وجاراهم بذلك بعض أبناء هذا الشرق، وبالذات ممن لم يتزودوا بالثقافة الإسلامية، ولم يتعمقوا بدراسة طبيعة الإسلام دراسة تجعلهم يتمكنون من التعرف إلى خطوطه العريضة في السلوك وأصوله الراسخة في التعامل.

ولقد ظلم هؤلاء وأولئك هذا الإسلام، لأنّهم وصفوه بغير ما فيه، ونسبوا إليه ما ليس منه. وذلك لأنّ السيف، والقوة مقترنة به، يعنيان البطش والعلو في الأرض. وهما ما شجبهما الإسلام في غيره... في فرعون إذْ يقول فيه رب العالمين: ﴿ إنَّ فِرْعَوْنَ عَلا في الأَرْضِ وجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُم يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِيْنَ﴾[1] ثمَّ يتابع فيصف من شاء لهم استلام زمام الأمر والحكم من بعد فرعون فيقول فيهم: ﴿وَنُرِيْدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيْنَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِيْنَ﴾[2] ويقرر بعد ذلك أنَّ الدار الآخرة ستكون خالصة للصالحين الذين يحسنون إلى الناس ولا يقهرونهم فيقول: ﴿ تِلْكَ آلدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِيْنَ، لاَ يُرِيْدُوْنَ عُلُوّاً فِيْ آلأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَآلْعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِيْنَ ﴾.

ويخطىء من يصف الإسلام بأنّه دين العلم فقط، لأنَّ العلم وسيلة لا غاية. وكلما كانت الوسيلة خالية من الشوائب نقية من عناصر الفساد صادقة، كانت الغاية

---

(١) (٢) القصص.

كذلك. وإذا دخل الوسيلة شيء من الفساد، انتقل بطبيعة الأمر إلى الغاية، فعطل الكثير من ركائزها وأضعف من معناها وهدفها وفاعليتها.

إنَّ الإسلام دين يحض على النظر في معالم الكون واستنباط المعارف التي تصلح لنفع الإنسان، وتخفف بعض متاعب حياته ومعاشه. وهو يشجع أيضاً على طلب العلم والصبر في تحصيله، لأنَّه مدخل إلى الهدى وطريق إلى الحق والعدل والخير. ولكنه في الأساس بعث به محمداً ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق. وليوفر بها للإنسان على الأرض وفي دروب الحياة ومسارحها عيشاً صالحاً آمناً، وتقلُّباً موفَّقاً محفوفاً بكل مقوِّمات الحريَّة والكرامة والأمن وطمأنينة القلب.

والإسلام كدين يتطلع بما حمل من نظام وفلسفة ونهج، إلى أن يوضع موضع التنفيذ والتطبيق. ولذلك فهو قد يحتاج إلى القوَّة، ولكن ليدافع عن وجوده ويصون كرامته وكرامة المؤمنين به، ويحمي حرِّياتهم وأبدانهم وأرواحهم ودماءهم وأموالهم وأعراضهم، ويضمن أمنهم وطمأنينة نفوسهم وليس للعلو في الأرض والإفساد فيها، ولا لقهر الناس وظلمهم والبطش بهم وإذلالهم. كما أنَّه يتوسل العلم لأنَّه آلة النفاذ إلى حقائق الأشياء، والتعرُّف إلى مقوِّماتها في الكون والناس وما حولهم من الكائنات على اختلافها، ولأنَّه أداة الاستبصار والهداية اللذين بهما يتأهل الإنسان ليتقي عوامل الأذى والشر والضلال، ولينفتح على منافذ البر والخير والحق، وليضمن لنفسه ولمن حوله عمارة الكون، وبناء حضارة تكفل لهم مساراً حياتياً أفضل، وتوفر لهم الأمن والكفاية.

بيد أنَّ عصرنا اليوم على الرغم من قفزاته المشهودة في حقول العلم والتجربة، قد استغرق إلى حدّ عجيب في مظاهر الجهالة والضلال. إذْ هو مع تمكنه من ركوب متون البحار، واعتلاء أجواء الفضاء وقطع المسافات بأدنى الوقت، وغوصه في أعماق المحيطات وتعرفه إلى كثير من أسرارها، وتوصله إلى إقامة محطات في الفضاء، ونزوله على القمر وتعرفه إلى طبيعة أرضه ومناخه، وعلى الرغم من تعرّفه إلى الكثير من أسرار الحياة عند الإنسان والحيوان والنبات، فإنَّه أخطأ إلى حدّ بعيد في الاستفادة من هذه النجاحات في تحسين علاقة الإنسان بأخيه

الإنسان، وتوجيهها لتكون في صالحه المعاشي والعمراني والأمني بصورة خالصة، وسخّرها على النقيض من ذلك وفي كثير من الأحوال والظروف في إفساد هذه العلاقة وتخريبها بدافع الطمع أو الهوى أو حب السيطرة والاستغلال، حتى آل هذا التقدم العلمي والحضاري مظهراً من مظاهر التنافس في الاقتناء والتكاثر في الأموال ومعارض الزينة والجاه والغنى.

والتفوّق العلمي المقرون بالتقدُّم التكنولوجي والحضاري، إذا اتَّجه إلى الشؤون الدنيوية والمادية، وأخضع في الغالب لتوفير مكاسب شخصية لا تتعدى المصالح الذاتية من طعام وشراب ولباس ولعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، فإنَّه يغرق الإنسان في الأجواء والظروف المادية الخالصة، التي يصبح فيها موضوع الخسارة والربح الماديين والزيادة والنقص فيهما الهم الشاغل والمحرِّك الأساسي.

وقديماً عاش الناس لهذا الغرض فحسب، ومرُّوا بمثل هذه التجربة، فجاءت الرسالات الإلّهية تُبصِّرهم بعواقبها الوخيمة، وتهديهم إلى سبل الخير والرشاد، وتجعل اهتمامهم في الشؤون الدنيوية المادية في حدود كفاية معاشهم الكريم وصلاح أبدانهم وصيانة دمائهم وأعراضهم، ودون أن ينجرف بهم الحال إلى مجرَّد الجمع والكنز والتخزين وإلى استباحة استغلال النفوس البشرية ومجتمعاتها استغلالاً لا يراعى فيه حكم الله في الإباحة والخطر، ولا رضاه وسخطه، بقدر ما تراعى فيه مقاصد الترف والبطر وقضاء الشهوات.

وقد نهى القرآن الكريم عن كنز الأموال وتخزينها، وحرمان وجوه الخير والبر منها فقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ يَكْنِزُوْنَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُوْنَهَا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَليم يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُوْرُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُوْنَ﴾(١) كما نهى عن الترف وبطر المعيشة وأخبر عن مصائر الذين أترفوا في هذه الدنيا، والذين بطرت

---

(١) التوبة/ ٣٥.

معيشتهم، بأنَّها مصائر خزي وبؤس فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيْهَا فَفَسَقُوا فيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيْرَاً﴾(١) ويقول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا من قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيْشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيْلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِيْنَ﴾(٢).

ومما يلفت النظر أنَّ مجتمعات اليوم قد أخذت بحَظ وافر من الحرص على المادة والاستكثار منها والتنافس فيها. وأيام الناس المتقلِّبة تشهد على أنَّ كل هذا عرض زائل وعارية مستردّة، وأنَّ بعضه مطلوب في الحياة ليكون وسيلة يستعان بها لقضاء الحوائج وتيسير الأمور ونوال المقاصد النبيلة، وليس في شكل من الأشكال غرضاً مقصوداً لذاته أبداً.

بل إنَّ الله تعالى قد لفت نظرنا على ألسنة رسله الذين أرسلهم للناس على مدى الدهر إلى هذا المعنى وقال في الكتاب الكريم: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وإنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوْا يُؤْتِكُمْ أُجُوْرَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾(٣) وقال أيضاً: ﴿إنَّما الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِيْنَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ في الأَمْوَالِ والأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيْدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ ورِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُوْر سَابِقُوْا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ والأَرْض أُعِدَّتْ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُوْ الفَضْلِ الْعَظِيْم﴾(٤).

وفي هاتين الآيتين توجيهٌ أيما توجيه إلى أنَّ السعي الدنيوي سعيان، أحدهما في عرض يعسعس بعسعسة الدنيا وينتهي بانتهاء الحاجة إليه، والآخر فيما يؤهل للفوز في الحياة الأخرى وبرّ وعمل صالح. وهو الذي يبقى. وهو الذي تجتنى ثماره

(١) الإسراء/ ١٦.
(٢) القصص/ ٥٨.
(٣) محمد/ ٣٦.
(٤) الحديد/ ٢٠.

وطيِّباته، ويكتسب فضله يوم الدين ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُوْنَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(١).

بل إنَّ التوجيه الرَّباني في معظمه في الأمر والنهي وسرد القصص ورواية أَخبار الأولين والغابرين، إنَّما كان ليضع بين يدي الإنسان ما يبصِّره بحقائق الأشياء ومقاصدها، وليحمله على التوسط والاعتدال وسلوك طريق النبيِّين والصدِّيقين والصالحين، والحذر من الانجراف في متاهات الدنيا ومغريات العيش الخالبة يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِيْ قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيْثاً يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيْقَ الَّـذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدَىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ﴾(٢) ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيْرُوْا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ﴾(٣).

وإنَّ الدَّار الآخرة وما أعدَّه الله فيها لعباده من المتقين والفجار غيب لا يحس به الإنسان في نهاره أو ليله ولا في سعيه وجموده، بل إنَّه على العكس يشعر بما حوله مما تقع عليه حواسه من مفاتن الدنيا ومغرياتها ومباهجها المفيد منها أو الضار، ويقع هو تحت وطأة تأثيرها سلباً وإيجاباً في كل لحظة من عمره، ويتكوَّن من ثمرته سعيه المشكور أو المذموم وسجله المشرق أو المظلم.

ولذلك كان لا بدَّ أبداً من التذكير باليوم الآخر وما يكون فيه من حساب وجزاء، ليعي قلب الإنسان ويستقيم سلوكه ويحسن تصرفه وعمله ويقل زلله وخطؤه، وكان لا بدَّ لهذا الإنسان كفرد أو جماعة أو أمة أو دولة من الاندماج في الحياة برفق والأخذ منها والترك بحذر ووعي شديدين، معتمداً في ذلك على القول المأثور: «اعمل لدنياك كأنَّك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنَّك تموت غداً».

ولقد كانت في التاريخ للإسلام تجربة حكم رائدة أنشأت المجتمع الفاضل

(١) الشعراء/ ٨٨ ـ ٨٩.
(٢) يوسف/ ١١١.
(٣) يوسف/ ١٠٩.

وأقامت الحياة الآمنة المطمئنة التي كان يأتيها رزقها رغداً ومن كل مكان بإذن ربها وستبقى مدى الدهر نبراساً لكل من شاء الاستفادة منها والاستنارة بهديها وسننها. فقد أخذت من كلٍّ من الاتجاه المادي والاتجاه الروحي بطرف، ووازنت بينهما ولم تسمح لأحدهما بالرجحان على الآخر، ونجحت إلى حدّ بعيد ووفرت لرعاياها في عهدها أياماً زاهية من الكفاية والأمن والحرية والكرامة والعزَّة.

ولعلَّ ظهورها في مطلع وجود هذه الأمة، كان بفضل الله لتظل المثل الإمام، والقدوة الراشدة التي يسعى الناس من بعدها لترسّم خطواتها، والاسترشاد بهداها.

ولقد قدَّمنا كتابنا هذا وهو يرسم صورة تقريبية عن هذه التجربة الإسلامية الرائدة في الحكم والتنظيم في صدر دورها الطليعي، مقارنة بما كان عليه المجتمع العربي قبلها، ليكون بين يدي القارىء في هذا العصر، وليرى مدى ما كان لها من أثر فعَّال في إصلاح المجتمع الإنساني يومذاك، وإنقاذه من متاهاته النفسيَّة والاجتماعية والمادية التي كانت تشده إلى الأرض وتخلد به إلى التراب وما يخرج من التراب، وتصرفه عن هداية الله التي سيبقى فيها للإنسان وحدها الخير كل الخير والبر كل البر، وليتيسّر له في معرض مطالعاته عن أنظمة هذا العصر وقراءاته عنها وعن أيديولوجياته المتنوعة المقارنة والاختيار...

الشيخ حسن خالد

بيروت

الباب الأول

١ ـ شبه الجزيرة العربية.
٢ ـ المدينة قبل الهجرة.
٣ ـ يثرب وجوارها.
٤ ـ الوضع الاقتصادي لمجتمع المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ.
٥ ـ أخلاقهم وعقائدهم.
٦ ـ الأسرة العربية في مجتمع المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ.
٧ ـ الحكم والرياسة.
٨ ـ نبذة عن عقائد المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ.
ـ عقائد العرب.
ـ عقائد اليهود.
ـ النصرانية في المدينة.
٩ ـ مجتمع المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ.
١٠ ـ الرسول ﷺ والمهاجرون في المدينة.
١١ ـ خلاصة عن مجتمع المدينة لدى دخول الرسول ﷺ.
١٢ ـ الركائز الأساسية في تطوير مجتمع المدينة بعد الهجرة.
١٣ ـ بناء المسجد.

الفصل الأول

شبه الجزيرة العربية

تعريفها:

إن الحديث عن المدينة ومجتمعها قبل الهجرة وبعدها، يتطلب أن نوطىء بين يديه بمقدمة موجزة عن مناخها الجغرافي الذي اكتسبت منه ولا تزال أكثر مقوّمات وجودها وتكوينها.

حدودها:

يحد شبه الجزيرة العربية شرقاً بحر عمان وخليج العرب ونهر الفرات، وجنوباً بحر العرب، وغرباً البحر الأحمر وقناة السويس التي تقع في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا وتتصل بالقارة الإفريقية من ناحيتها الشمالية الشرقية حيث تمتد قناة السويس، وتتّصل من طرفها الشمالي بقارة أوروبا عبر سوريا..

وشبه جزيرة العرب هذه فسيحة الأرجاء، مترامية الأطراف. ترتفع تضاريسها غرباً وتأخذ بالانحدار نحو الشرق. ويتراوح ارتفاع جبالها

الموازية لساحل البحر الأحمر ما بين ثلاثة آلاف إلى عشرة آلاف قدم. ويصل ارتفاع قممها في الشمال عند مدْين. وفي الجنوب في اليمن وعسير حوالي عشرة آلاف قدم، بينما تكون خلف مكة على ارتفاع ثمانية آلاف قدم، وتصل قرب المدينة إلى ثلاثة آلاف قدم.

وتتألف أراضيها الوسطى من هضبة نجد، كما يمتد في الجنوب منها سلاسل جبلية متفاوتة الارتفاع تكثر فيها الوديان.

وتكثر في الجزيرة العربية حِرار. وبخاصة في الأقسام الغربية منها. والحِرار جمع حرّة، وهي أرض بركانية، ويقال لها اللّابه[1] وهي تتكون من ركام من الأحجار البركانية التي تشكل طبقات رقيقة أو سميكة، وهي سوداء نَخِرة كأنها أحرقتها النار[2].

والعجيب أن كثيراً من مناطق هذه الحرار قد آشتهرت بالخصب وبوفرة المياه وبخاصة حرار المدينة وخيبر.

ولقد كانت شبه الجزيرة هذه خالية تقريباً من الأنهار[3] وإن كان يجري فيها بعض الجداول القصيرة التي تفيد في سقي الأراضي وتنشط حركة الزراعة نوعاً ما، ولكنها لا تصلح مطلقاً للملاحة. بيد أن بعض العلماء يرون أنها لم تكن قديماً تخلو من بعض الأنهار الكبيرة لدلالة الآثار التي ترجع بتاريخها إلى قبل ظهور الإسلام على ذلك[4].

وعلى الرغم من أن شبه الجزيرة محاطة من جوانبها الثلاثة بالبحار

(١) لسان العرب لابن منظور ٢٤٢/٢.
(٢) المصباح المنير للمقري.
(٣) المسالك والممالك للاصطخري ٢١.
(٤) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٢٨/١.

فإنها ذات مناخ صحرائي شديد الحرارة كثيف الجفاف ما عدا اليمن الذي تكثر فيه الأمطار، ويشيع فيه الخصب وتكثر الخضار. وقد ذكر الله تعالى في كتابه من الآيات ما يشير إلى هذا حيث يقول: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[1].

ومناخ شبه الجزيرة الصحرائي هذا، جعل أكثر بقاعها صحارى قاحلة جرداء، وأثّر إلى حدّ بعيد في حرمانها من المناخ الحضاري المدني؛ فأجبر الإنسان فيها من القديم على هجران الكثير من مناطقها واليأس من تكوين المجتمعات فيها، واللجوء إلى البعض، وهو القليل منها، الذي حَبَتْه الطبيعة شيئاً من طراوة المناخ وخصب الأرض، ليبني عندها مسكنه وينشيء عشيرته.

وهكذا فقد كانت جبال الطائف، ومسارحها الخضر تموّن مكة بالأخشاب الصالحة للبناء والوقود. كما عرف وادي القرى بكثرة بساتينه وغزارة مياهه وتعدّد قراه. وهو طريق دولي قديم ما زالت تسلكه القوافل البشرية في سعيها ما بين الشام واليمن. يقول الله تعالى في كتابه الكريم واصفاً هذا الواقع: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيْرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً ءَامِنِينَ ﴾[2].

وقد عاد إلى الجزيرة في هذا العصر بفضل الثروة البترولية التي اكتشفت حديثاً ودرّت على المملكة العربية السعودية وفير الموارد، عاد إليها الكثير من زهوها القديم. وربما زاد على ذلك كثيراً. فقد نقلت إلينا

---

(١) سبأ ١٥.

(٢) سبأ ١٨.

الأنباء الصحفية والأخبار الإذاعية والأبحاث العلمية، الكثير من الأنشطة الزراعية التي أخذت تعتمد في الجزيرة أحدث الأساليب، وتتوسل بآخر ما توصل إليه الفكر البشري من الوسائل والآلات لتطوير الزراعة وتعزيز الإنتاج واستنباط المياه لريّ الأرض وإغناء المواسم. كما نقلت إلينا صوراً جيدة من النجاحات الكبرى في ذلك في سهول الرياض من منطقة نجد، وفي الطائف والإحساء والقصيم ومناطق عسير وغيرها، مما حدا البعض إلى أن يعتقد بأن المستقبل سيشهد للجزيرة تطوّراً زراعياً جيداً ربما يصل إلى حدود الاكتفاء الذاتي وربما حتى حدود التصدير إلى الخارج.

أقسام الجزيرة:

وقد قسم العرب جزيرتهم إلى خمسة أقسام هي: تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن.

المدينة والحجاز:

وإن القسم الذي يعنينا هنا من هذه الأقسام هو الحجاز، لأنه هو الذي تقع فيه المدينة التي نحن في صدد الحديث عنها.

تعريف بالحجاز:

وسمي حجازاً لأنه يمثل سلسلة من الجبال الممتدة من خليج العقبة حتى عسير، تحجز هضبة نجد العالية عن ساحل تهامة الواطىء. وهي تنخفض عند قربها من مكة بينما تعود فترتفع في اتجاهها إلى اليمن حيث تتساقط على قممها الثلوج.

ومن جبال الحجاز، الجبال الواقعة في منطقة المدينة ومكة والطائف. ومنها جبل رضوى الذي يقع بين المدينة وينبع، وجبل حراء

الذي يقع خارج مكة، ويقع فيه الغار الكريم الذي كان فيه ابتداء نزول الوحي على قلب رسول الله ﷺ. ويتراوح ارتفاع هذه الجبال ما بين مئتين وستمئة متراً.

سهول الحجاز ووديانه:

أما سهول الحجاز فتمتد وتنتشر بين جبال السراة والبحر الأحمر. وتعرف بسهول تهامة، وهي تتسع من جهة اليمن بحيث تكون أحياناً بعرض أربعين ميلاً، ثم تأخذ بالضيق شمالاً حتى تصل إلى منتهاه عند العقبة. وهي على كل حال سواحل حارة رطبة غير صحيّة غالباً، وينخفض بعضها حتى يطلق عليه اسم «الغَوْر».

هذا وتسيل من الحرار في الحجاز أودية. أعظمها وادي أضم الذي يسيل من الجنوب الشرقي لحرّة خيبر، ثم يتجه نحو الجنوب الغربي حتى يقارب يثرب، حيث يتصل به وادي العقيق ووادي القرى، ثم يتجه غرباً فيصبّ في البحر الأحمر جنوب قرية الوجه[1].

ومن أودية الحجاز وادي الرمّة الذي يبدأ من حرّة فدك ويتجه نحو الشرق حتى يصل إلى القصيم. ويبلغ طوله (٩٥٠) كلم. ثم وادي الصفراء وهو كثير النخل والزرع. وقد سلكه رسول الله ﷺ أكثر من مرة. وبينه وبين بدر مسافة مرحلة. وتقع عنده قرية الصفراء الخصبة التي تكثر فيها العيون وتسيل منها باتجاه ينبع، وكذلك وادي القرى الذي يقع بين تيماء وخيبر، ويمرّ به طريق القوافل القديم. ويقال له وادي «الديدبان». وكان كثير العمران الذي لا تزال آثاره تشاهد حتى اليوم[2].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ٢/٢١٥، ٧/٣٠٥.

(٢) المصدر نفسه ١٥/٣٣٨.

مدن الحجاز وقراه:

وعلى تقلب الزمن والتاريخ وعبر تحولات أحداثه وعصوره، نشأت مدن وقرى كثيرة أهمها: مكة، والمدينة، والطائف وخيبر. وقد ساعد على نشوئها أوضاع جغرافية وظروف تاريخية واقتصادية بسبب موقع الحجاز بين الشام واليمن، وصلاحيته ليكـون ممراً للقـوافل ومكـاناً لاستراحتها.

يثرب:

كان اسمها قبل الهجرة «يثرب»، وهي تقع على بعد ثلاثمئة ميل شمال مكة المكرّمة. وتمتاز أرضها بأنها بركانية. وهي بين حرّتين: حرّة واقم في الشرق، وحرّة الوبرة في الغرب. وقد آشتهرت منذ القدم بأنها خصبة وافرة النماء، يمرّ فيها وادي العقيق الذي تصب فيه مياه عذبة. وتحيط بها المزارع من جهاتها كافة ما عدا الجهة الغربيّة.

ولقد نافست المدينة مكة بسبب وقوعها على طريق القوافل نفسها التي تقع عليها مكة. ولكنها لم تبلغ مستواها في التفوق التجاري، وإن امتازت عليها بخصب أرضها ووفرة العيون فيها وانتشار البساتين الخضراء فيها.

هذا ويمتد وادي العقيق الأخضر غربي المدينة فيما وراء حرّة الوبرة إلى ما بعد بئر رومة في شمالها الغربي. وتقع العُريض وعوالي المدينة على يمين القادم إليها من مكة، ويقع في أقصى الشمال جبل أُحُد ثم جبل سلع. وتقع في جنوبها قرية قباء على بعد ميلين منها، حيث يسيل بينهما وادي بطحان، ووادي رانوناء اللذان يتجهان شمالاً بين حرّة الوبرة والمدينة، فيتصلان بالوادي الواقع جنوب جبل أُحُد، حيث ينحدر

غرباً بينه وبين جبل سلع حتى يلتقي بوادي بطحان.

وتلتقي هذه الوديان عند مجتمع الأسيال من رومة. كما يوجد وادي مذينب ووادي مهزور في الجنوب الشرقي من المدينة. ويحصران بينهما عوالي المدينة التي كانت زاهرة، وتبدو أودية المدينة منحدرة من الجنوب إلى الشمال تسير في انحدارها مياه الأمطار، وتنشأ فيها جنات ذات زرع، وتجعل بمرورها بساتين خضراء وافرة الشجر والنخيل والثمر.

وتعتبر المنطقة ما بين قباء والمدينة أخصب المناطق. ولذلك كانت متنفّس سكانها، وموضع نـزهتهم واستراوحهم واستشفـائهم على مرّ الدهور.

الفصل الثاني

المدينة قبل الهجرة

يثرب في القديم:

ليس من اليسير تجميع أخبار يثرب كاملة قبل مهاجر الرسول ﷺ إليها. وذلك لفقدان المدوّنات التاريخية والوثائق القديمة الصحيحة التي يمكن الرجوع إليها والتعرف منها إلى ذلك..

بيد أنه قد جرت بعض الحفريات العفويّة التي لم تكن، في الأصل، موجهة للبحث التاريخي، فكشفت عن بعض الآثار التي تدل على أن هذه المدينة هي في الواقع قائمة على أنقاض مدينة أخرى[1]. ولكن هذا البحث العلمي حتى بعد ذاك الكشف لم يأخذ مداه. فلم يزد ذاك الذي توصل إليه أيّ شيء.

ومع ذلك فإن كل الأخبار التاريخية العريقة، تجزم بأن هذه المدينة

---

(١) آثار المدينة المنوّرة عبد القدوس الأنصاري /١٢٢ - ١٢٤.

سكنتها منذ زمن عريق قبائل عربية بدليل أن اسمها ورد في الكتابات المعنية الذين استعمروها في جملة مستعمرات أخرى على طول الطريق التجاري حتى تخوم الشام[1]. وقد ذكرها بطليموس في جغرافيته واصطيفانوس البيزنطي.

وقد اشتهر اسمها قبل أن تصبح مهاجر الرسول ﷺ بأنها «يثرب»[2]. وورد كذلك في القرآن الكريم في سورة الأحزاب. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾[3]. كما ورد اسمها فيه بأنه «المدينة»، قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾[4].

وقال السهيلي: «إن طائفة من بني إسرائيل لحقت بأرض الحجاز حين دوّخ بختنصّر البابلي في بلادهم وجاس خلال ديارهم، فحينئذ لحق من لحق منهم بالحجاز كقريظة والنضير وسكنوا خيبر والمدينة. وهذا معنى ما ذكره الطبري. وأما يثرب فاسم رجل نزل بها أول من العماليق فعرفت باسمه. وهو يثرب بن قاين بن عبيل بن مهلاييل بن عوض بن عملاق بن لاود بن أرم. وفي بعض هذه الأسماء اختلاف. وبنو عبيل هم الذين سكنوا الجحفة، فأجحفت بهم السيول، وبذلك سميت الجحفة. فلما احتلّها الرسول ﷺ كره لها هذا الاسم، أعني «يثرب» لما فيه من لفظ التثريب، وسماها طيبة والمدينة. فإن قلت كره اسماً سمّاها الله في القرآن به، وهو المقتدي بكتاب الله، وأهل ألاّ يَعْدل عن تسمية الله؟ قلنا

(١) مكة والمدينة أحمد إبراهيم الشريف /٢٩٠.
(٢) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٤/١٣٠.
(٣) الأحزاب /٣٣.
(٤) المنافقون /٨.

إن الله سبحانه وتعالى، إنما ذكرها بهذا الاسم حاكياً عن المنافقين إذْ قالت طائفة منهم: «يا أهل يثرب لا مقام لكم» فنبّه بما حكى عنهم أنهم قد رغبوا عن اسم سمّاها الله به ورسوله وأبو إلاّ ما كانوا عليه في جاهليتهم. والله تعالى قد سمّاها المدينة فقال غير حاك عن أحد: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الآية. وفي الخبر عن كعب الأحبار، قال: إنا نجد في التوراة يقول الله للمدينة يا طابة، يا طيبة، يا مسكينة لا تقبلي الكنوز أرفع أجاجيرك على أجاجير القرى. وقد روى هذا الحديث عن علي ابن أبي طالب يرفعه، وروي أيضاً أن لها في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة، طابة، وطيبة، والمسكينة، والجابرة، والمحبّة والمحبوبة والقاصمة، والمجبورة، والعذراء والمرحومة»[1].

سكانها قبل الهجرة:

ولقد كان يسكنها قبل هجرة الرسول إليها، بطون عربية وأخرى يهودية كانوا منتشرين في ربوع الحرّتين: حرّة واقم، وحرّة الوبرة، وإن كانت حرة واقم أكثر عمراناً حيث كان يسكنها قبائل اليهود من بني النضير وقريظة وعدد من عشائرهم. كما كانت موضع سكن لأهمّ البطون الأوسية من بني عبد الأشهل وبني ظفر وبني حارثة وبني معاوية. وفي منازل بني عبد الأشهل كان يقوم حصنهم المعروف بحصن واقم. وهو الذي سميت الحرّة باسمه. وفي هذه الحرّة وقعت غزوة بني النضير، وغزوة بني قريظة كما وقعت فيها وقعة الحرّة في عهد يزيد بن معاوية سنة ١٣ هـ.

صورة التوزيع السكني فيها:

ولم يكن انتشار السكان في يثرب قبل هجرة الرسول ﷺ إليها،

(١) الروض الأنف للسُهيلي ٢/١٦.

يعتمد نظاماً تخطيطياً مدروساً دراسة مسبقة، بل كان على الأغلب يعتمد رغبات البطون المرتجلة. وهكذا كـان لكل بـطن حيّ. ولكل حي أراضيـه الزراعية ومنطقته السكنية الخاصة، وسكانه وحصونه وآطامه. ولقد كانت الحصون هذه تملك غالباً من الأسر العريقة، وتمثل مكانة هامّة لدى اليثربيين لأنهم كانوا يفزعون إليها في الحروب لدى هجوم العدو وغارته عليهم، ويجدون فيها الملجأ الحصين الذي تأوي إليه النساء والأطفال والعجزة نجاة من العدو بأنفسهم من أذى القتل والقتال والعذاب والتنكيل وأساليب الانتقام، كما كانوا يتخذون منها عنابر لتخزين الغلال الموسمية وكنز الأموال وحفظ المقتنيات الثمينة والأسلحة.

ولقد كان في كل حصن أو أطم، بئـر أو أكثر يزوّد اللاجئين إليه بمياه الشرب والخدمة في أوقات الحرب وأزمنة الحصار. كما كان فيه بعض المعابد إذا كان خاصاً باليهود وبعض بيوت المدارس، يلتقي فيها زعماؤهم للتشاور وتقليب الأمور حين تنزل بهم واقعة أو يصيبهم كرب، أو عندما يهتمّون بأمر ذي شأن يرتبط بقضيّة مصيرية[1].

وهكذا فقد كان انتشار مساكن وسكان يثرب في أحياء عديدة موزعة على عدد من البطون، بحيث كان لكل منها حيُّه ومجموعته السكنية المكتفية بأراضيها الزراعية وبمحاصيلها، وبمراكز الحماية الخاصة بها المستوفية لأهم الشروط التي تكفل لها منعتها وقدرتها على الصمود في وجه أي عدوان عند الاقتضاء.

وكذلك كان أيضاً لكل حي من أحياء اليهود أو بطن من بطونهم مزارعه وحصونه ومرابعه.

---

(١) مكة والمدينة لأحمد الشريف /٢٩٣.

لقد كانت يثرب تتكون من مجموع تلك الأحياء أو البطون ومقتضيات منعتها وحاجاتها الاجتماعية والاقتصادية قبل هجرة الرسول ﷺ إليها. فكانت مقتسمة بين العرب واليهود، ولكن الكلمة العليا كانت فيها للعرب.

الأوس والخزرج:

ويذكر بعض المؤرخين أن النبي داوود غزا أقدم من سكنوا المدينة. وهم قوم يقال لهم «صُعل وفالج» وأسر منهم طرفاً، وأهلك طرفاً آخر لا تزال قبورهم بناحية «الجرف». وتفيدنا الأخبار أيضاً، بأن «العماليق» سكنوها فترة من الزمن إلى أن أرسل إليهم النبي موسى عليه السلام جيشاً انتصر عليهم وعلى من كان ساكناً منهم في «تيماء» وقتلهم ولم يترك منهم أحداً، وأسكن مكانهم اليهود، وأنه نزل عليهم فيما بعد بعض القبائل العربية فشاطروهم المدينة واتخذوا فيها المنازل والحصون والأموال. ومنهم بنو «أنّيق» وهم حيّ من «بلّى» ويقال إنه بقيّة من العماليق. وكذلك بنو «مُريد» وبنو معاوية وبنو الجذمى[1].

ويقال إنه لما وقع حادث «سيل العرم» أجمع عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة الخروج من مأرب في اليمن؛ فباع ماله. وتفرق ولده في الجزيرة. فنزلت الأوس والخزرج «يثرب» وآرتحلت غسّان إلى الشام. وتوجّهت الأزد إلى عمان، وخزاعة إلى تهامة. وإن الأوس والخزرج لما أقامتا في يثرب ورأتا المال والآطام والنخيل في أيدي اليهود، ووجدتا معهم العدد والقوة، عقدتا معهم حلف جوار يأمن به بعضهم بعضاً. ويمتنعون به فمكثوا معهم أمداً، وبقوا كذلك دهراً حتى نقض اليهود عهد

(١) فتوح البلدان للبلاذري ٤/٤٦١ وما بعدها.

الحلف وشاءوا التسلط على يثرب من دون الأوس والخزرج، فاستعان هؤلاء بأهلهم وأقربائهم فغلبوهم وصارت الهيمنة من ذلك التاريخ للعرب[1].

ولكن هذه الأخبار تفتقر إلى توثيق، وإلى أدلّة تُسندها وتصححها. وإن كان من المتيقّن أن أهل المدينة كانوا ينتسبون عند ظهور الإسلام إلى اليمن. ويقسمون أنفسهم إلى أوس وخزرج. وهما قبيلتان تربطهما صلة قربى. ويذكرون أنه كان بينهم يهود، وأنهم على زعمهم من قدماء سكان يثرب[2].

هذا ولقد كان لكل من الأوس والخزرج واليهود شعابهم التي تحوي على حوائط وبساتين صغيرة فيها الآبار التي يستقون منها ويسقون مزارعهم ومواشيهم، كما تحوى على دورهم التي كانت مبنيّة بالآجر أو باللبن. وكان بعضها مؤلفاً من طابقين أحياناً.

ومن الآبار المشهورة، تلك التي آحتفرها اليهود وكانوا يبيعون ماءها في عهد رسول الله ﷺ وهي بئر «رومة» التي أمر الرسول ﷺ بشرائها، فاشتراها عثمان رضي الله عنه ووهبها للمسلمين. وبئر «ذروان» التي يقال إن لبيد «ابن الأعصم» طرح فيها الأشياء التي سحر بها الرسول، وهي مشط ومشاطه وجَفّ طلعه ذكر. ويقال لها بئر ذي أوران في بستان بني زريق»[3].

ولم يكن للمدينة سور يحيط بها يقيها غارات المهاجمين لها،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢/١٦٠.
(٢) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٤/١٣٣.
(٣) تفسير القرطبي ٢٠/٢٥٣.

فاعتمدوا على إنشاء الحصون ليمتنعوا فيها، كما اعتمد الأكثرون منهم على البيوت يحتمون بها ويدفعون عن أنفسهم غائلة الأعداء المغيرين.

أما جوّها فهو على العموم لطيف لوفرة المياه في أرضها التي يسّرت فيها الكثير من الحدائق والبساتين وساعدتهم على إنشاء العديد من أشجار النخيل وغيرها، مما أرخى على أراضيها وافر الظل، وساق فيها الأنْسام الرخيّة، وصيّر مناخها مقبولاً، وأهلها ذوي طباع ليّنة وأخلاق رضيّة.

تعريف بالأوس:

ويقول النسّابون إن قبيلة الأوس تنقسم إلى بطون عوف والتبيت وجشم ومرّة وامرؤ القيس. وآشتهر أن البطون الثلاثة الأخيرة كوّنت من ذاتها حلفاً عرف بـ «أوس اللاة» أو بـ : «أوس». وقد انقسمت هذه البطون إلى أفخاذ عديدة ثارت بينها في التاريخ منازعات وحروب كثيرة..

وكان للأوس سيدها في الجاهلية «أُحَيْحة بن الجلّاح بن الحريش بن جَحْجَبا». وكانت عنده سلمى بنت عمر النجارية، وأولاده منها إخوة عبد المطلب وهو من بني «جَحْجَبا» ومن ولده المنذر بن عقبة ابن أُحَيْحة ابن الجلاح، شهد بدراً وقتل يوم بئر معونة.

بعض ساداتها:

وكان من سادات الأوس يوم هاجر النبي ﷺ إلى المدينة سعد بن معاذ الذي قتل يوم الخندق، وأخوه عمرو بن معاذ الذي قتل يوم أحد، وسماك بن عتيك فارسهم في الجاهلية. وحضير الكتائب وكان سيد الأوس يوم بعاث وآبنه أسيد شهد بدراً. ومنهم أبو الهيثم بن التيهان،

وكان نقيباً. شهد العقبة وبدراً وقتل فيها، وأبو قيس بن الأسلت الشاعر، وشاس بن قيس بن عبادة وكان من أشراف الأوس في الجاهلية[1].

وقد سكنت بطون الأوس المنطقة الجنوبية الشرقية، أي منطقة العوالي من يثرب.

تعريف بالخزرج:

أما الخزرج فهم في عرف النسابين إخوة الأوس. لأن الخزرج وهو جد قبيلة الخزرج هو شقيق الأوس جد قبيلة الأوس، والخزرج الجد وكذلك الأوس هما آبنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن ابن الأزد، فهم بذلك أحد فروع الأزد النجدية[2].

وأمهما قَيْلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء. ولذلك أطلق عليهم اليهود لقب بني قَيْلة، نسبة إلى أمهم التي يرجع نسبها إلى الغساسنة ملوك الشام.

أصلهما:

واصل الخزرج والأوس من اليمن. نزحا منها بعد حادث سيل العرم وسكنا يثرب، وإلى الشمال منها حتى خيبر وتيماء. وقد بدأ تاريخهما في هذه المنطقة بالاتصال باليهود والعيش معهم وبينهم، إلى أن ثار فيهم النزاع وتمكنوا بمساعدة أهلهم وأقربائهم من اليهود.

وقد انقسمت الخزرج كذلك إلى بطون كان أشهرها بنو النجار

---

(١) المفصل في تاريخ لجواد علي ١٣٦/٤.
(٢) جمهرة أنساب العرب /٣١٢.

والحارث وجشم وعوف وكعب. ويلاحظ أنّ جشماً وعوفاً هما أيضاً اسما بطنين من بطون الأوس.

من مشاهير الخزرج:

ومن مشاهير الخزرج في الإسلام الصحابي الشهير أبو أيوب خالد بن زيد الذي نزل عليه رسول الله ﷺ حين نزل المدينة بعد هجرته إليها. ومنهم نعيمان بن عمرو الذي كان يستخفّه الرسول، ولم يكن يلقاه إلاّ ضحك إليه. وأسعد بن زرارة بن عدس، شهد العقبة وكان نقيباً. ومنهم سعد بن عبادة وكان نقيباً وسيداً جواداً وابنه قيس أجود أهل دهره أيام معاوية. ومنهم عمرو بن النعمان بن كلدة بن عمرو بن أمية بن عامر بن بياضة رأس الخزرج يوم بعاث. ورافع بن مالك العجلان وهو أول من أسلم من الأنصار. ومرداس بن مروان شهد يوم الحديبية وبايع تحت الشجرة وكان أمين النبي ﷺ على سهمي خيبر. ومنهم خشرم ابن الحباب وكان حارس النبي ﷺ».

وقد اشتهر بأن بطون الخزرج قد اختارت سكن المنطقة الوسطى والشمالية وهي سافلة يثرب ويقع وراءهم خلاء حرَّة الوبرة.

حروب الأوس والخزرج:

ورغم ما هو قائم بين هاتين القبيلتين من صلة قربى وتاريخ عريق من العلاقات والتراث المشترك، فقد ثارت بينهما على عمق الماضي في هذه المنطقة نزاعات وحروب هلك فيها منهما خلق كثير. وكانت أول حرب وقعت بينهما كما ينقل لنا رواة الأخبار حرب «سمير» و«سميحة» وسمير كما يروون رجل من الأوس من بني عدرو، شتم رجلاً اسمه كعب بن العجلان من بني ثعلبة من سعد بن ذبيان نزل على مالك بن

العجلان رئيس الخزرج وحالفه وأقام معه، ثمَّ قتله بعد أن شتمه فثارت الثائرة بين الأوس والخزرج بسبب هذا القتل وبسبب دفع دية القتيل ثمَّ وقعت الحرب. ثمَّ اتفقوا على أن يضعوا حكماً بينهم فاختاروا المنذر بن حرام النجاري الخزرجي وهو جدّ حسان بن ثابت، فحكم بينهم بأن يؤدوا لكعب ديَّة الصريح ثمَّ يعودوا إلى سنّتهم القديمة. وهي دفع نصف الدية عن الحليف. فرضوا وتفرَّقوا، ولكن بعد أن تمكنت العداوة في نفوس الطرفين[1].

واشتعلت نيران حرب أخرى بين الأوس والخزرج بسبب امرأة من بني سالم، فكانت بين جحْجبا من الأوس وبين مازن بن النجار من الخزرج فدارت الدائرة فيها على بني جحْجبا وانهزموا[2] وثارت نيران الحرب كذلك بين عمرو بن عوف من الأوس وبني الحارث من الخزرج بسبب مقتل رجل من بني عمرو. وقد عرفت هذه الحرب باسم يوم السرارة. وكان على رأس الأوس يومذاك حضير بن سماك وهو والد أسيد. كما كان على رأس الخزرج عبدالله بن أُبيّ بن سلول. وقد انتهت هذه الحرب بين الطرفين بانصراف الأوس إلى دورها. فاعتبرت الخزرج ذلك نصراً لها[3].

ثمَّ كانت بينهم حرب بني وائل بن زيد من الأوس وبني مازن بن النجار من الخزرج، وحرب بني ظفر الأوسيين وبني مالك الخزرجيين. وحرب قارع، وحرب حاطب، ويوم الربيع، وحربِ الفجار الأولى. وهي غير حرب الفجار التي وقعت بين قيس وكنانة بمكة. ثمَّ حرب معبس

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الكامل لابن الأثير ١/٢٧٦ وما بعدها.

ومضرس بين الأوس والخزرج قبل الهجرة بخمس سنوات[1].

يوم بعاث:

وفي هذا اليوم قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله، وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا، قدمه الله لرسوله في دخولهم الإسلام.

ولقد كان سيد الخزرج يوم بعاث عمرو بن النعمان بن صلاءة بن عمرو بن أميّة بن عامر بن بياضة. أما سيد الأوس فكان حضير الكتائب بن سماك بن عتيك بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل. وقد حشد للأوس في هذا اليوم مزينة من أحياء طلحة بن إياس وقريظة والنضير من اليهود. وحشد للخزرج أشجع من غطفان وجهينة من قضاعة. وقد قتل في هذا اليوم رأس الخزرج عمرو فانهزمت الخزرج وانتصرت الأوس[2].

وفي هذا اليوم العصيب على القبيلتين، ركّز سيِّد الأوس رمحه في قدمه ليثبت في الميدان وليحمل قومه على الثبات معه. وقال: ترون أفر؟! وقد قتل يومئذٍ.

ولقد كان لهذا اليوم آثاره العميقة في نفوس القبيلتين الأوس والخزرج حتى بعد هجرة الرسول ﷺ ورسوخ مفاهيم الإسلام العظيم في قلوبهم، فكانت تحرّكهم أخباره وتسعّر مشاعرهم. وكثيراً ما كانت تدفع بهم إلى بعض المنازعات التي كان يبادر الإسلام إلى وأدها وهي ما تزال في المهد.

(١) المصدر نفسه ٢٨٠ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه وابن هشام من ٣٨٥ وابن خلدون ٢/٢٨٩ وما بعدها.

بعض طباع هاتين القبيلتين:

وعلى الرغم من أنَّ هاتين القبيلتين قد سكنتا يثرب ذات الأرض الخصبة والمناخ الطيِّب الرضي، ورغم انشغال عامَّة أبنائهما بحراثة الأرض وشؤون الزراعة والتجارة وبناء المنازل والأخذ بحظ وفير من خصال الحضر، فإنَّ رواة الأخبار لينقلون عنهم أنَّ طباعهم كانت أميل إلى البداوة وخصالها من أهل مكة. وقد ظلَّت معالم الروح القبلية، وسجاياها التي منها النزوع إلى السيطرة والتخاصم شائعة بينهم، وبقيت بذور الخلاف ذارَّة قرنها في جموعهم إلى أن نزل الرسول ﷺ بين ظهرانيهم وخلَّقهم بأخلاق الإسلام وآدابه وأمرهم بالكف عن التحاقد والتباغض، وحضّهم بالعكس على التآخي والتحاب في الله فأنساهم ذلك إلى حدٍّ بعيد.

ولقد كان من فضل الإسلام عليهم أن شغلهم بمحاربة الفساد وبمكافحة الباطل والتصدي للشرك والبغي وللمبادىء الشريرة عن نزوعاتهم القبلية، فكانوا حقًّا كما وصفوا أنصاراً لله وللإسلام وللحق.

من أسباب النزاع بين الأوس والخزرج:

وقد يتساءل البعض باحثاً عن السبب الذي كان يثير بين هاتين القبيلتين الكبيرتين في يثرب النزاع. مع أنهما ترجعان إلى أب واحد، وتجمع بينهما مصالح مشتركة. وتجيب بعض الروايات أنَّ بداية هذا النزاع بينهما، كان في القديم تنافساً قبليًّا على الرياسة في يثرب.

وإنَّ الأخبار لتروي، بأنَّ عرب يثرب هؤلاء، عندما دخلوها من قبل، عاشوا زمناً مديداً في أكناف اليهود الذين سكنوها قبلهم. ولكنهم ما لبثوا بعد زمن أن تخاصموا معهم وتفوَّقوا عليهم على يد رجل من

الخزرج. وكان من المفروض حسب طبائع الأمور، أن يجتهد الخزرجيون في الاحتفاظ برياستهم وزعامتهم للمدينة بعد هذا التفوُّق والبروز، لولا أنَّ الأوسيين تملكوا من أراضي يثرب أفضلها وأجودها وأخصبها، الأمر الذي أنعش وضعهم الاقتصادي وجعله خيراً من وضع الخزرجيين. ولقد دفع بهم هذا الوضع المتفوِّق إلى أن يأبوا أن تبقى الرياسة والصدارة لبني الخزرج إلى ما لا نهاية، وأن يبقى من حولهم من الأعراب يقرُّون لهم بها، وهم منهم. ولذلك فقد كانت تثور في صدورهم الحفائظ وتحرِّكهم مرة بعد أخرى لعمل ما، إلى أن دفعت بأحدهم أخيراً إلى أن يترصد حليفاً لزعيم الخزرج «مالك بن العجلان» وأن يقتله. وقد جرَّ هذا العدوان القبيلتين إلى حروب كان النصر في أكثرها للخزرج، ولكنه انتهى يوم بعاث أخيراً وقبل هجرة الرسول ﷺ ليكون لصالح الأوس على الخزرج.

ولقد كان يوم بعاث من أشد الأيام عليهما، لأنَّه أصاب الفريقين بأضرار جسيمة في الأرواح والأموال، فقتل فيه عدد كبير من سروات القوم وأشرافهم ورؤسائهم، وأصيبت ممتلكاتهم بأذى عظيم. مما أضعف الطرفين، وأوهن قواهما، وحملهما قسراً على التفكير بالتماس أنجع الوسائل لتجاوز هذه الخلافات ومسح آثارها وإبدالها بما يجمع القلوب ويغمرها بالمحبة والسلام.

بعاث وبعثة النبي:

ولعلَّ هذا يدفع بنا إلى الوقوف عند كلمة السيدة عائشة ومناقشة مضمونها لفهم مرماها ومغزاها تلك التي سبق وأوردناها من قبل وهي: «كان يوم بعاث يوماً قدَّمه الله لرسوله ﷺ فقدم الرسول وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا، قدَّمه الله لرسوله في دخولهم الإسلام».

فإنَّهم قد أوهنتهم الحرب وكسرت شوكتهم وأصابتهم بضرر كبير، وأصبح همّهم الأوحد أن يبحثوا عن جامع تلتقي عنده بطونهم في التعظيم والإكبار والطاعة والإنقياد ولا يختلفون عليه أبداً، فيخرج بهم من إطار العداوة والاقتتال إلى فسحة التحاب والتعاون، ويوفر لهم كل طاقاتهم لتكون مادة عظيمة تشحن جموعهم وتعزز كيانهم في وحدة مصونة تعلي شأنهم وتوجه نشاطهم وقواهم إلى ما هو أجدى عليهم من التنازع والتحارب دونما طائل. ولقد كان يوم بعاث رغم ما كان له من آثار ومن أضرار، توطئة جيدة ليتقبل الجميع بعثة النبي محمد ﷺ تقبل الأرض العطشى للغيث يهبط عليها من مزن السماء. فكانت رحمة وبركة ساقها عليهم من واسع غيبه. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُم وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾(1).

ولا أدري ما الذي يحملني في داخل نفسي على المقاربة بين الكلمتين بعاث وبعثة النبي ﷺ، رغم أنَّ بعاث ترمز إلى الحرب والرعب والقتل والدمار، وبعثة ترمز إلى السلام والأمان والبناء، بحيث اتجه الذهن عفواً ودونما أي دليل، إلاَّ الحدس، إلى أنَّ تلك التسمية لم تكن عبثاً. وأن مشيئة الله أرادت أن يكون يوم بعاث بين الأوس والخزرج يوم بعث طاقاتهما وبعث قلوبهما لتتجه إلى مناصرة الرسول ﷺ والالتفاف حوله، لتعزيز دعوته بعد تهيئتهما لتقبل الخير والانقياد لقيادته لينقذهما وينقذ بهما العالم.

الفرق بين مكة ويثرب وسكانهما:

وقبل الدخول في الحديث عن سكان يثرب من اليهود: يحدونا

(1) البقرة/ 216.

الحديث إلى المقارنة بين وضع سكان كل من مكة ويثرب، ونقول بأنَّ يثرب لم يتوفر لها من الظروف الاجتماعية والدينية ما توفر لمكة. فقد حرمت مكة من خصب الأرض، وغزارة المياه، وطراوة الجو، وعذوبة المناخ، ولكنها امتازت بأنَّها مكان وجود بيت الله الحرام الذي وفَّر لها ولأهلها الكثير من الامتيازات الاجتماعية والدينية التي لم تتيسر ليثرب وسكانها، فانعكست عليها بعظيم البركة والخير، وفي مقـدمته وحـدة المجتمع المكي، وظهور الاستقرار الداخلي فيه وانتشار الهدوء والأمن.

لقد التقى أهلها على مفهوم ديني كبير وموحَّد هو سدانة الكعبة ورعاية قداستها والمحافظة على شرفها، وكانوا بالإضافة إلى ذلك من جنس واحد عرباً خلّصاً، لا ينازعهم على سلطان مكة غريب. أمَّا يثرب فكان من سكانها العرب، واليهود، وكان منهم الوثنيون ومنهم أهل الكتاب. ولم يكن لهم بيت ديني يلتقون فيه في المدينة، يلتفُّون حوله ويلتقون على تعظيمه. ومن أجل هذا سهل الطريق أمام الخلاف ليأخذ سبيله إليهم وينقلب إلى نزاع ومن ثمَّ إلى حروب.

ومن هنا فقد كان في يثرب قبل هجرة الرسول ﷺ إليها مجتمعان: مجتمع عربي له عقائده وخصاله ورغائبه وعاداته وأعرافـه، ومجتمع يهودي له أيضاً عقائده وخصاله ورغائبه وعاداته وأعرافه. بل وكـان المجتمع العربي بسبب نزوعه القبلي واختلافه على الرئاسة والمنافع المادية وعدم وجود البيت الديني المقدَّس الذي يلتقون عنده، مجتمعاً قلقاً مفككاً، والمجتمع اليهودي أيضاً رغم تلاحمه عند الضـرورات القصوى، مجتمعاً منقسماً لا تتوفَّر له وحدة ولا يقوم فيه تماسك...

ولقد ثبت أنَّ كلاً من المجتمعين العربي واليهودي، كان قبل

الهجرة يتربص بالآخر الدوائر، ويترقب الفرصة المؤاتية للقفز عليه والنيل منه وقهره وأخذ ما في يده من مال وخير وبسط سلطانه عليه، وإنَّ رابطة الدين والنسب بين كل منهما قد فشلت كلياً في أن توفر لأيٍّ منهما الوحدة والتآلف اللهم إلَّا في بعض الظروف النادرة التي كانت تفرضها التقاليد والمصالح القبلية والعشائرية.

ولذلك فقد رأينا مكة تختلف في نسق نظامها السكني عن يثرب حيث كان سكان يثرب مختلفين إلى عرب ويهود، متنازعين ويتـآمر بعضهم على بعض، ويميلون إلى إقامة الحصون لحماية النفس والأهل والمال من الغارات المحلية المفاجئة، حتى روى البعض بأنَّ حصون اليهود وحدها كانت تسعة وخمسين بينما كان لبطن واحد من بطون العرب تسعة عشر حصناً[1]. ولم يكن شيء من هذا ظاهراً في مكة على الأقل مثل هذا الظهور.

اليهود والصفات القبلية:

ولقد كان معروفاً بأنَّ اليهود سبقوا عرب الجزيرة بِمَيْلِهم إلى الاستيطان والاستقرار، وإلى الأخذ بخط وافر من مظاهر التمدن الذي تغيب فيه إلى حدّ بعيد العادات والتقاليد القبلية، وتتوفر له صفة الأمة الموحدة والمجتمعة. ولكن يهود يثرب لم يمض عليهم وقت طويل حتى عادوا إلى ألفة الخصال القبليَّة والعادات البدوية وتشربوا صفات الأعراب واندمجوا في مجتمعاتهم وألفوا عقلياتهم. ولذلك فقد رأيناهم بعد لأْي ينقسمون إلى قبائل والقبائل إلى بطون. ورأينا قبائلهم وبطونهم تترابط في حدود التقاليد والعادات العربية، ويستغرقون في كل ما استغرق فيه

(١) مكة والمدينة لأحمد الشريف/ ٣٠٩.

عرب الجزيرة من سمات وخصال وصفات ومناقب ومثالب.

خلافاتهم:

ولقد ثبت أنَّه قد نشبت بينهم مع الزمن نزاعات انقلبت إلى حروب. واستحكمت فيهم ثارات عمَّقت تفكك كيانهم وجعلتهم في عجز مستمر عن توطيد كلمتهم في وجه أعدائهم. وقد تفرقت قبائلهم وبطونهم واضطروا على تقلب الأيام لتوفير الحماية لأنفسهم، إلى الدخول في محالفات مع جوارهم، فدخل بعضهم في محالفات مع الأوس. ودخل البعض الآخر في محالفات مع الخزرج، وساهم كلٌّ منهم في القتال إلى جانب حلفائه ضدَّ أخصامهم.

ولقد كانت خصوماتهم شديدة وعداواتهم قاسية، وكانوا في حربهم، بعضهم ضدَّ بعض، أقسى على بني جنسهم من العرب. فقد قسا بنو النضير وقريظة على بني قينقاع، وأثخنوا فيهم الجراح وفرقوا شملهم يوم بعاث. وصدق الله العظيم القائل فيهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوْبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً. وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُوْنَ﴾(١) والقائل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُوْنَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُوْنَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُوْنَ. ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُوْنَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُوْنَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ

---

(١) البقرة/ ٧٤.

فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إلاَّ خِزْيٌ فِيْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّوْنَ إلى أَشَدِّ الْعَذَاْبِ﴾(١).

وهذا ولا شك يعطينا صورة سيئة عن أوضاع المجتمع اليهودي في يثرب قبل هجرة الرسول ﷺ، إذ يكشف لنا بأنَّ العلاقات فيما بينهم لم تكن أحسن حالاً مما كانت عليه العلاقات بين العرب سكان يثرب من الأوس والخزرج. وسوء العلاقات هذا يعبِّر عن تدنِّي الحالة الاجتماعية فيهم، وعن انهيار البنية الخلقية عندهم، بحيث ضاعت فيه أسس المعالم الاجتماعية والسلوكية التي يتطلبها وجود المجتمع السعيد من الانضباط والتعاون، والوحدة والقيادة الواحدة والزعامة المحبوبة التي تلتقي عندها كل القلوب..

---

(١) البقرة/ ٨٤ ـ ٨٥.

الفصل الثالث

يثرب وجوارها

لا يسعنا وقد تكلمنا عن سكان يثرب من العرب واليهود، وأشرنا إلى نوع علاقاتهم بعضهم مع البعض، وذكرنا طرفاً من خصالهم وطباعهم وعقائدهم، إلّا أن نلِمَّ إلْمَامَةً خاطفة بصورة عن هذه العلاقة بين سكان يثرب عامة وجوارها من القبائل والأعراب. وبخاصة وأنَّ الأعراب من البدو الرُّحل كانوا كثيراً ما يُنيخون حولها ويقيمون فترات طويلة؛ إما للاستفادة من مناخ المنطقة، أو للعمل مع سكان المدينة فيما يعود عليهم ببعض المنافع اليومية.

والواقع أنَّ يثرب كانت لوفرة مياهها كما قلنا سالفاً وخصب أرضها وطراوة مناخها وهوائها وكثرة أشجارها، تستهوي العديد من القبائل وتستميلهم. فكانوا يطمعون في خيراتهم ويتطلعون إلى الاستحصال على شيء منها عن طريق العمل المأجور، أو عن طريق الغزو والعدوان والسلب والنهب.

يثرب والغارات:

وقد ألفت يثرب مع الزمن هذا وكيَّفت نفسها معه، وذلك بما كانت تعقده أحياناً من عقود وأحلاف مع بعض القبائل المجاورة، أو بما كانت تدفعه إلى بعضها من إتاوات، أو بما كانت تصطنعه أحياناً أخرى من وسائل القوة والتحصن التي تصون بها ذاتها وتكبح بها جماح أعدائها وتحمي محاصيلها ومؤسساتها من السلب والنهب.

ولقد كان من آثار ذلك كما رأينا سابقاً أن مالوا إلى بناء الحصون وإشادة القلاع، لتزيد في منعتهم وتوفر لهم مزيداً من الثقة بالذات والقدرة على الدفاع، وحماية النفس والأهل والمال عند الضرورة في وجه المعتدين والمغيرين عليهم من الخارج. أو في وجه الخصوم المنازعين لهم والمختلفين معهم من الداخل.

وإنَّ بعض أقوال رؤساء تلك القبائل التي كانت موجودة في المدينة لرسول الله ﷺ بعد الإسلام ليقدِّم لنا صورة جليَّة عن هذه الحقيقة، فقد قال له عبدالله بن أبي ابن سلول يوم أحد، عندما استشار ﷺ أصحابه في الخروج إلى أُحد أو البقاء في المدينة بعد أن انتهى إليه خبر قدوم جيش قريش إليها: «كنَّا نقاتل في الجاهلية فيها ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصي ونجعل معهم الحجارة، ونشبّك المدينة بالبنيان، فتكون كالحصن من كل ناحية، وترمي المرأة والصبي من فوق الصياصي والآطام ونقاتل بأسيافنا في السكك. يا رسول الله إنَّ مدينتنا عذراء ما فُضَّت علينا قط، وما خرجنا منها إلى عدو قط إلاَّ أصاب منَّا، وما دخل علينا قط إلاَّ أصبناه. يا رسول الله أطعني في هذا الأمر. واعلم أني ورثت هذا الرأي عن أكابر قومي وأهل الرأي منهم فهم أهل الحرب والتجربة[1].

(١) الواقدي/ ١٦٤.

وشبيه هذا ما نقله ابن سعد أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ يوم الخندق عندما فكَّر بمصالحة قبيلة غطفان على ثُلث ثمار يثرب لقاء أن يرجعوا عنها يوم الخندق: «يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه. وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلاَّ قِرى أو بيعاً، أَفَحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا إليه، وأعزَّنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟. والله ما لنا بهذا من حاجة ووالله لا نعطيهم إلاَّ السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم»[1].

وهذان الخبران يلفتان النظر، وبإقرار من أبناء المدينة المشهود لهم في الإسلام وفي الجاهلية من قبله، إلى أنَّ المدينة كانت من قبل هجرة الرسول ﷺ تتعرض من حين لآخر إلى غارات تشنها عليها بعض القبائل البدوية المجاورة لها، فيتصدَّوْن لهم بالدفاع عنها والقتال دونها ليمنعوا أنفسهم وأهلهم وديارهم وأموالهم من عدوانهم وخطر غلبتهم عليهم أو على الأقل خطر النيل منهم ومن محاصيلهم.

قوة سكان يثرب العرب:

واشتهر أنَّ سكان يثرب العرب، كانوا أهل حرب وكرّ وفر ونزال وطعان ودراية بفنون الحرب، وأنَّهم كانوا ذوي كفاءة وصبر ومراس شديد، كما اشتهر أنَّهم كانوا أهل نجدة وسلاح، وكانوا يعتدّون بقوَّتهم وببأسهم. وينهجون في حياتهم منهجاً ذاتياً استقلالياً. ولا يبالون أرضي عنهم الآخرون أم سخطوا ما دام هذا النهج مؤتلفاً مع مصلحتهم، ونابعاً من قناعاتهم الخاصة يدل على هذا، ما كان منهم من قول يوم بايعوا الرسول ﷺ بيعة العقبة، وما كان منهم من إقدام على تحمل مسؤولية

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢٠٢/٣.

الإيمان به وبرسالته، والدفاع عنه وعنها، مع يقينهم بأنَّه سيترتب عليهم إزاء ذلك أعباء ماديَّة، وتكاليف، ومتاعب حياتية ومصائب وآلام. وبخاصة وأنَّهم سيتصدون لقريش ولزعامتها العربية والدينية المرموقة في أطراف الجزيرة العربية كلها.

وإنَّ الحوار الذي سجلته كتب السيرة بين عم النبي ﷺ العباس رضي الله عنه، والذين حضروا بيعة العقبة الكبرى ليرينا أنَّه رضي الله عنه قال لهم: «يا معشر الخزرج إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه، ومحمد من أعز الناس في عشيرته يَمْنَعَهُ والله منّا من كان على قوله، ومن لم يكن منّا على قوله، يمنعه للحسب والشرف. وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم. فإن كنتم أهل قوَّة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة، فارتأوا رأيكم وأتمروا أمركم ولا تفترقوا إلَّا عن ملأ منكم واجتماع، فإن أحسن الحديث أصدقه» فقال البراء بن معرور: «قد سمعنا ما قلت. وإنا والله لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه. ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مُهَج أنفسنا دون رسول الله ﷺ» قال وتلا رسول الله ﷺ القرآن ثم دعاهم إلى الله ورغَّبهم في الإسلام، وذكر الذي اجتمعوا له. فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق ثمَّ قال: «يا رسول الله بايِعْنَا فنحن أهل الحلقة [السلاح والدروع خاصة] ورثناها كابراً عن كابر».

قوتهم العددية:

ولعلَّ مردَّ هذا البأس الذي اتصفت به عرب يثرب قبل هجرة الرسول كثرة عددهم التي كانوا بها يجابهون الأعداء وعليها يعتمدون في

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٠٦/١.

عزيمة التصدي قبل كل شيء. ولقد أجرى بعض الباحثين دراسة أولية عن عدد رجال الأوس والخزرج المقاتلين في الجاهلية، فرأى أنَّه في ضوء عدد محاربيهم يوم فتح مكة وهو الوقت الذي كانوا قد دخلوا فيه كلهم في الإسلام، قريب من أربعة آلاف مقاتل، ولم يكن بين يوم الفتح ويوم بعاث أكثر من اثنتي عشرة سنة. وهي فترة لا تيسِّر زيادة عددهم كثيراً، وإن عدد المقاتلين من اليهود من جميع قبائلهم لم يكن يتجاوز الألفي مقاتل..

والمفروض ألاَّ ننسى أنَّ يثرب لم تستطع يوماً في جاهليتها أن تجمع كل رجالها من حملة السلاح في حرب واحدة ضدَّ عدوٍّ قط، لما عرفناه من قبل من قيام النزاع الداخلي بين بطونها. ولكنها إذْ تحولت في الإسلام إلى حال أخرى وذات جديدة، فقد أمكنها أن تحشد كل قوتها إلى جانب الرسول ﷺ، كما فعلت يوم الفتح، فجمعت له فيه كما عرفنا أربعة الآف مقاتل، أي ما يقارب نصف جيش المسلمين في هذه الغزاة.

علاقة سكان يثرب مع الجوار:

وأيا ما كان، فقد ثبت مع ذلك أنَّ علاقة سكان يثرب مع الجوار كانت علاقة احتياط وحذر وتربص. وكانت بينهم لذلك وبين بعض سكان الجوار محالفات كما شاهدنا، فكانت محالفات بين بعض بطون الأوس وقبائل سليم ومزينة التي كانت تعيش شرقي يثرب، كما كانت محالفات بين بطون من الخزرج وقبائل جهينة التي كانت تعيش غربي المدينة، وقبائل أشجع التي كانت تُنيخ في شمالها الغربي.

وكذلك كانت أيضاً تعقد مثل هذه المحالفات بين اليهود وهؤلاء، ولكن دون المستوى الذي كانت تعقد عليه محالفات عرب يثرب. وذلك

لأنَّ اليهود قوم تغلب عليهم الأنانية، وتظهر فيهم طبيعة الانكماش والانطواء. قال المؤرخ الكبير جواد علي: «ووادي القرى هو من المواضع التي غصت باليهود فكان أكثر أهله منهم. وكان يهوده من المزارعين. وحفروا فيه الآبار وتحالفوا مع الأعراب وعاشوا معهم متحالفين»[1] ثمَّ يقول في موضع آخر: «ولم يتمكنوا من إنشاء الممالك. وحكومات يحكمها حكام اليهود. بل كانوا مستقلِّين في حماية سادات القبائل يؤدون لهم الأتاوة في كل عام مقابل حمايتهم لهم ودفاعهم عنهم، ومنع الأعراب من التعدِّي عليهم. وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم فكان لكل زعيم يهودي حليف من الأعراب، ومن رؤساء العرب المتحضرين».

ونفهم من هذا أنَّ علاقات اليهود مع من حولهم لم تكن تخلو من الحذر والخوف، وأنَّهم كانوا يحاولون تبديد ذلك ببعض المحالفات مع رؤساء القبائل وبالأتاوات والهدايا التي كانوا يقدمونها لهم.

ولم يكن هذا هو الأسلوب الوحيد الذي كانوا يركنون إليه لدفع غائلة العدوان العربي من حولهم عليهم، بل كانوا يلجأون إلى تمثيل دور إبليس في الدس والوقيعة وإثارة المنازعات بين البطون العربية المحيطة بهم ليكون لهم من خلافهم وحروبهم مندوحة للتنفس، وفرصة للاحتفاظ بمركز القوة. لأنَّ نشوء الحروب والمنازعات بين القبائل العربية يضعف قوتها ويشل عزائمها ويشغلها عنهم بمصائبها.

(١) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٦/٥٢٩.

الفصل الرابع

الوضع الاقتصادي لمجتمع المدينة
قبل هجرة الرسول ﷺ

مقدمة:

الحديث في وضع مجتمع المدينة الاقتصادي قبل الهجرة، يتطلب تناول الحديث في الأنشطة المختلفة التي كان يمارسها الإنسان العربي واليهودي في المدينة آنذاك، والتي تحكي في مجموعها الوضع الاقتصادي العام.

والوضع الاقتصادي العام في المدينة يعني ما كان يقوم به أبناؤها من أعمال يومية تستهدف كسب الرزق وكفاية العيش. ولقد كان من أبرز أعمال أبناء المدينة منذ القدم وقبل الهجرة بالذات حراثة الأرض وزراعتها، وتوفير المحاصيل الكافية لحاجاتهم اليومية.

الزراعة:

ولقد كانت طبيعة الأرض الخصبة بفعل الوديان التي تخترقها

وتسيل فيها المياه الغزيرة فضلاً عن الآبار التي احتفرها السكان، والعيون المتفجرة فيها في أكثر من مكان، تدفع سكانها دفعاً إلى العمل بالزراعة ابتغاءً للرزق وكفاية حاجات العيش. ومن هنا كثرت في المدينة البساتين، وغابات النخيل، وتنوَّعت فيها أصناف المزروعات والثمار. حتى رأينا آيات القرآن الكريم المدنيّة بالذات يكثر فيها من ضرب الأمثال المركبة من معانٍ مرتبطة بالأرض وما يخرج منها من حب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان وزيتون ورمان وعنب وتمر، يقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ﴾[1] ويقول: ﴿وَمَثَلُ الَّذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيرٌ﴾[2] ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِيْ مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيْهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيْهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِيْ اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُوْن، وَفِيْ الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيْلٌ صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ونُفَضِّلُ بَعْضَها عَلَى بَعْضٍ فِيْ الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ﴾[3].

وهذه الآيات وأمثالها الواردة في القرآن موزَّعة حسب الاقتضاء تلفت النظر إلى ما كان للأرض من أهمية عند سكان المدينة بالخصوص والجزيرة العربية على العموم، كما تلفت النظر إلى بالغ ما كان سكان

---

(١) البقرة/ ٢٦١.

(٢) البقرة /٢٦٥.

(٣) الرعد/ ٣ ـ ٤.

المدينة يولونه للأشجار والزرع على اختلافه من رعاية خاصة وعناية كبيرة.

ولقد كان من أهل المدينة من يملك الأراضي الواسعة فيستصلحها ويزرعها أو يزارع عليها أو يكريها. ومنهم من كان يملك قطعة من الأرض صغيرة المساحة فيزرعها بنفسه ويستغلها بجهده دون الاستعانة بأحد. ومنهم من لم يكن يملك أرضاً، غير أنَّه كان يزارع أصحاب الأرض الواسعة من أبناء مدينته، ويعمل عندهم بأجر يدفعونه له لقاء عمله، فيزارع مثلاً أصحاب الأرض على ثلث محاصيلها أو على ربعها أو على نصفها أو بأسلوب آخر، ذلك لأنَّ التعامل في ذلك لم يكن بالدنـانير ولا بالدراهم.

جاء في البخاري عن أبي جعفر قال: «ما بالمدينة أهل بيت هجرة إلَّا يزرعون على الثلث والربع. وزارع علي وسعد بن مالك وعبدالله بن مسعود وعمر بن عبد العزيز والقاسم وعروة وآل أبي بكر وآل عمر وآل علي وابن سيرين. وعامل عمر الناس على أنَّه إنْ جاء عمر بالبذر من عنده فله الشطر، وإن جاءوا هم بالبذر فلهم كذا».

وعن نافع عن ابن عمر قال: عامل النبي ﷺ خيبر لشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع[1]. وروى عن ابن عباس قال: «دَفَع رسول الله ﷺ خيبـر أرضها ونخلها إلى أهلها مقاسمة على النصف»[2].

وهذا الخبر وسواه كثير يؤخذ منه، أن أغلب سكان المدينة كانوا

(١) صحيح البخاري ٤/١٥٦.
(٢) الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ١٠٨.

أصحاب أرض وخبرة في معاملتها، فيزرعون أو يزارعون، ويشتغلون مكارين عند من يملكون الأرض.

التجارة:

على أنَّ الزراعة وحدها لم تكن لتكفي في سداد حاجاتهم من المؤونة والغذاء والكساء، ولذلك فقد كانت ظروفهم المعيشية تضطرهم للبحث عن مجالات أخرى ينشطون فيها بحثاً عن الكسب والارتزاق كالتجارة والصناعة.

ولقد أشرنا من قبل، إلى أنَّ المدينة تقع على طريق القوافل التي كان يستخدمها التجار من أهل مكة وغيرهم في طريقهم إلى الشام والعودة منها، لاستيراد الأغذية والأكسية وأنواع العطور والبخور وغير ذلك من البضاعات وأصناف المؤن التي يقصدون إلى التجارة بها، ففتح ذلك الآفاق أمام سكان المدينة في هذا المرفق الحيوي، فضربوا فيه بسهم كبير، ووفَّروا لأنفسهم منه ولأهليهم الكثير من الربح، كما اكتسبوا الفوائد الاجتماعية والحضارية الجمَّة عن طريق التعرُّف إلى مختلف الشعوب وعاداتهم وأخلاقهم وثقافاتهم وتجاربهم.

شيوع المراهنة والربا:

ولقد وفَّرت هذه التجارة لبعض سكان المدينة المال فكان منهم أغنياء، فزين لهم الشيطان سوء عملهم، فاندفعوا في استغلال حاجة الفقراء أو أصحاب الحاجات من مالكي الأرض ذات المساحات القليلة أو الإنتاج الضئيل فيلجئونهم إلى الاستدانة نظير رهن يقدمـونه. أو يضطرونهم إلى بيع ثمار نخلهم وأعنابهم ومحاصيلهم مزابنة أي والثمر ما يزال في رؤوس النخيل يثمر كيلاً، وعن مالك هو كل جزاف لا يعلم

كيله ولا عدده ولا وزنه بِيْع بِمُسمًّى من مكيل أوْ موزون ومعدود، أو هو بَيْع معلوم بمجهول من جنسه، أوْ بَيْع مجهول بمجهول من جنسه أو هي بيع المغابنة في الجنس الذي لا يجوز فيه الغَبْن»[1] أو يضطرونهم لبيع شعيرهم وقمحهم محاقلة وهي: «بيع الزرع قبل بدو صلاحه، أو بَيْعُه في سنبله بالحنطة»[2] وكان اليهود أبرز المتعاملين بهذا، فكان ذلك يثري الأغنياء، ويزيد الفقراء فقراً، وربما أكره صاحب الأرض الصغيرة على التخلِّي عنها وفاءً لديونه.

ومن هنا فقد كان اليهود أكثر ثراءً من العرب، إذ كانوا يتعاطون بالإضافة إلى عملهم في الزراعة وفي التجارة والصناعة المختلفة، المراهنة، ويأكلون الربا، ويأكلون أموال الناس بالباطل. وكان العرب من سكان المدينة كثيراً ما يستدينون منهم. وقد ثبت أنَّ رسول الله ﷺ، قد انتقل إلى جوار ربِّه ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير ما وجد ما يفك به حتى مات»[3].

رعاية الغنم:

ولقد كان لسكان المدينة من العرب واليهود ثروات من الأنعام والماشية والخيل والدواب يهتمون بتربيتها ورعايتها واستغلال لبنها وصوفها ووبرها وجلودها وعظمها وما يخرج منها أو ينتج. ويولونها الكثير من الاهتمام لما يحصلون منها من نفع وكسب وكانوا يجدون في المدينة وما حولها مرابع صالحة لترعي مواشيهم وأنعامهم كلأها وبعض ورق

---

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي ٢٣١/٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) البيهقي ٥٦٢.

شجرها الصالح يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوْتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُوْدِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّوْنَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إلى حِيْنٍ﴾[1].

وأيّاً ما كان الأمر فقد كانت تربية الأغنام والمواشي والعناية بها والاستفادة من عطائها، تشكل بالإضافة إلى الزراعة والتجارة مورداً ثالثاً من موارد الرزق لدى أبناء المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ، ونمطاً آخر من أنماط التعامل الحياتي يحركون به دورة السعي الاجتماعي.

الصيد:

وكان أيضاً لعدد كبير من سكان المدينة منتجع آخر يجدون فيه مجالاً للسعي في الأرض، ويحسن بنا ألاّ نغفله ونحن نتكلم عن المواشي ورعايتها عندهم، وهو الصيد الذي كان يمثل هواية فطريّة يمارسها العرب قاطبة بما فيهم سكان المدينة منذ نعومة أظفارهم، أهل وبر كانوا أم سكان حضر. وكانت الصحراء ما تزال بكراً تعج بأنواع الصيد من الغزلان والأرانب والضباب والحمر الوحشية والبقر وغير ذلك.

وكانوا لممارسة هذه الهواية يمتطون صهوات الخيول ليطاردوا الطريدة، ويستخدمون السهام أو الرماح أو الكلاب المعلّمة، ويطلقون على بعضها البزاة. كما يستخدمون الشباك بأساليب متنوعة فيدسوا بعضها تحت التراب، أو يتركوها ظاهرة حسب نوع الطريدة التي يرغبون في صيدها.

وكان صيد سكان المدينة مقصوراً على العموم على صيد البر، لأنَّ المدينة قائمة في عرض الصحراء بعيدة عن البحر، مما لا ييسر لأبنائها -

(١) النحل/ ٨٠.

في الغالب ممارسة الصيد فيه. وإن كانت ميسَّرة للذين يسكنون المناطق الساحلية. ولعلَّ البعض منهم كان ينتقل إلى الجهات الساحلية ويقصد صيد البحر، وبخاصة وأنَّ طريقهم إلى الجنوب، وإلى مكة قد يكون ساحلياً.

وقد أتى القرآن الكريم على ذكر صيد البحر، مما يشير إلى أنَّ العرب قاطبة وسكان المدينة خاصة كانوا يعرفون هذا النوع من الصيد وربما كانوا يزاولونه في حياتهم بعض الأحيان. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْصَيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيْكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيْمٌ﴾ إلى أن يقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُوْنَ﴾[1].

ومما يساعد على تقبل احتمال مساحلة بعض سكان المدينة في تنقلهم وترحالهم بين المدينة ومكة وجدة ما رواه البخاري عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «بعثنا رسول الله ﷺ مع أبي عبيدة ونحن ثلاثمئة وبضعة عشر، وزوَّدنا جراباً من التمر، فأعطانا قُبضةً قُبضة، فلما أنجزنا أعطانا تمرة تمرة، حتى إن كنَّا لنمصُّها كما يمصُّ الصبيُّ ونشرب عليها الماء، فلما فقدناها وجدنا فقدها حتى إن كنَّا لنخبط الخَبْط بِقِسِيِّنا ونَسُفُّه ثمَّ نشرب عليه من الماء حتى سُمِّينا جيش الخبط ثمَّ أجزنا الساحل، فإذا دابة مثل الكثيب يقال له العنبر. فقال أبو عبيدة: ميتة لا تأكلوه ثمَّ قال: جيش رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، ونحن مضطرون، كلوا باسم الله فأكلنا منه. وجعلنا منه وشيقة [وهي لحم يُغلى قليلاً ثمَّ يُقدَّد ويُحمل في الأسفار] ولقد جلس في موضع عيْنه ثلاثة عشر رجلاً،

(١) المائدة ٩٤ ـ ٩٦.

قال فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه فرحل بها أجسم من بعير من أباعر القوم فأجاز تحتها، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ قال: «ما حبسكم»؟ تَتَبّع عِيْرات قريش. وذكرنا له من أمر الدابَّة فقال: «ذلك رزق رزقكموه الله عزَّ وجل. أمعكم منه شيء؟» قلنا: نعم»[١].

الصناعة:

ولا يسعنا ونحن نتحدث عن وسائل الارتزاق عند سكان المدينة قبل الهجرة إلاَّ أن نتطرق إلى الحديث عن الصناعة فيهم. فقد ثبت أنه كان لها فيهم رواج، وإن سكانها وبخاصة اليهود منهم كانوا يحترفون بعض الحرف يرتزقون منها كصياغة الحلي وصناعة الدروع والسيوف والسهام وآلات الزراعة حتى قيل إن أجود السهام سهام يثرب.

وكانت تشتهر فيهم أيضاً صناعة الخمر من التمر والبُسْر، وكانوا يسمونها الفضيخ. وقد ورد في البخاري عن أنس بن مالك قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة وكان خمرهم يومئذٍ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: «ألا إنَّ الخمر قد حرِّمت قال أبو طلحة: أُخرج فأَهرقها. فخرجتُ فأهرقتها فجرت في سكك المدينة». وورد أنَّ المسلمين وجدوا في غنائم بني قريظة خمراً وجرار سكر فأمر رسول الله ﷺ بإهراقها»[٢].

واشتهرت فيهم كذلك صناعة الخوص من سعف النخل يضعون فيها المكاتل، وصناعة القفف، كما كانوا يصنعون أبواب المنازل ونوافذها بما عرفوه من فن النجارة. ويصنعون أثاث المنازل من الكراسي

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير ٤٤/٧.

(٢) أمتاع الأسماع للمقريزي ٢٤٥/١.

وسواها. وكانت حياكة النسيج من خصائص النساء في البيوت وكذلك الخياطة والدباغة.

وقد ظهرت فيهم صناعة عمارة المنازل، وبناء الطوب يقوم بها أناس من اليهود والعرب والموالي والعبيد، وكذلك عمارة أقنية الريِّ لجرِّ المياه فيها لسقي المساحات الزراعية التي لا تصلها المياه.

أسواق المدينة:

وحديثنا عن الأنشطة المحركة للاقتصاد وفي مجتمع المدينة قبل الهجرة من الزراعة والتجارة والصناعة ورعي الغنم وسوى ذلك، يفضي بنا حتماً إلى الحديث عن أسواقها التي كانت تشهد بعض هذه الأنشطة وآثارها، وتسهم إلى حدّ بعيد في تعزيزها.

وإن رواة الأخبار لينقلون بأنَّه كان ثمة لسكان المدينة أسواق عدَّة، منها سوق قينقاع وسوق بزبالة من الناحية الشمالية الغربية منها، وسوقٌ بالعصبة في موضع من قباء، وسوق بمزاحم عند مساكن بني الحبلى عشيرة عبدالله بن أبي، وسوق قرب البقيع كانت معروفة ببقيع الخيل.

أهمها وما كان يباع فيها:

وكان من أهم هذه الأسواق سوق بني قينقاع[1] عند جسر وادي بطحان مجاورة لمنازلهم. فقد كانت سوقاً عظيمة يكثر مرتادوها، وتعظم فيها حركة البيع والشراء وبخاصة بيع الحلي التي كان ينتجها يهود بني قينقاع.

وكانت تباع في أسواق المدينة المنسوجات القطنية والحريرية،

---

(١) السيرة النبوية لابن الحسن الندوي/ ٢١٥.

والنمارق الملوَّنة والستور المرسومة، والعطور بأنواعها والمسك والعنبر والزئبق والتمر والشعير والخمور والحطب والصوف والشعر والوبر والسمن والأقط وأنواع البضائع التي يتيسَّر جلبها من مختلف الأقطار المجاورة.

نماذج من التعامل في البيع والشراء:

وكان الناس في هذه الأسواق يبيعون الذهب بالذهب والفضة بالفضة، وكثيراً ما كان يقع في هذا البيع الغش والاستغلال، حيث كان يستغل سكان الحضر الوافدين من أهل البادية، فيرفعون لهم الأسعار إن كان يشترون أو ينقصونها لهم إن كانوا يبيعون. وكثيراً ما كانوا يوقعون التطفيف في الكيل والميزان، ويتخذون أنواع المبايعة التي يجري فيها الخداع والاحتيال؛ فكانوا يتعاملون ببيع المجازفة [وهو بيع لا كيل فيه ولا وزن] وبيع المناجشة [وهو أن يزيد الشاري في ثمن البضاعة المعروضة والمتنافس على شرائها ليعلي ثمنها ليخدع سواه أو ليضارَّه ثمَّ لا يشتريها]، وكان البعض من الباعة يبلِّون الحنطة أو الشعير بالماء ليعظم كيلها، أو يخفون الردىء منها في الجيد ويخلطون التمر جيِّدة ورديئة، ويحفلون الإبل والغنم والبقر فيؤخرون حلبها أياماً ثمَّ يعرضونها في الأسواق لتبدو حلوبة ويرغب بها الشاري. كما كانوا يتعاملون ببيع النسيئة، ويتخذون الرهن كوسيلة من وسائل تعاملهم. ويتعاملون بالربا. ويبيعون التمر على رؤوس النخيل وقبل أن يظهر لونه. والثمار قبل أن يبدو صلاحها، والقمح في سنبله إلى آخر ما هنالك من وسائل التعامل التي كانت رائجة في أسواق المدينة قبل الهجرة، بالإضافة إلى السمسرة التي كان يحترفها الكثيرون منهم ويتولون البيع عن أصحاب البضاعة لقاء عمولة يتفقون عليها»[1].

(١) مكة والمدينة لأحمد الشريف/ ٣٦٠ وما بعدها.

وقد جاء الإسلام ورأى هذه الأساليب في التعامل بعد دخول النبي ﷺ المدينة فحرَّم منها الكثير، حرَّم الربا والغش والتناجش والتطفيف في الكيل والميزان وبيع الخمر ونهى عن بيع الغرر وغيره مما كان يسيء إلى الناس ويثير بينهم الخلافات والشحناء والبغضاء.

أثر الأسواق:

على أنَّ كل هذا كان من العوامل ذات الأثر الحسن في تنشيط حركة التجارة والصناعة والزراعة وجلب البضائع على اختلاف أصنافها إلى المدينة. بل كانت سبباً لا ينكر في ازدهار الحياة الاجتماعية في المدينة، وخلق وشائج الصلة مع المناطق والبلدان الأخرى، وتنشيط الأسفار والرحلات بحثاً عن الرزق والكسب. فكانوا يرحلون إلى بلاد الشام وإلى اليمن ويمرُّون في أسفارهم على قرى وبلدان متعددة من الشمال والجنوب، كما كانوا يركبون في بعض الأحيان متون البحار وينتقلون إلى بلاد فارس والهند والصين، لاستيراد أنواع الأنسجة والأقمشة والأسلحة والعطور والأطعمة، فيتيسَّر لهم بذلك المشاركة في الأسواق العربية وغير العربية ويشترون منها ما يحلو لهم أو يحتاجونه.

ولا ريب أنَّ هذا قد شجع غير العرب من سكان بلاد الشام وفارس على حمل بضاعتهم إلى أسواق المدينة كما كان يفعل الأنباط. ولا يستبعد أنَّه كان يفد عليهم غير هؤلاء من أبناء الأقطار الأخرى حاملين إليهم ما تنتجه بلادهم من أنواع البضاعة ونتائج الصناعة.

وقد أتى القرآن الكريم على ذكر صور من هذا الترحال في سبيل الحصول على الميرة وعلى أنواع البضاعة للتجارة والارتزاق في الجزيرة

وفي تخومها فسرد لنا قصة إخوة يوسف الذين كانوا يأتون مصر من فلسطين ليميروا أهلهم بقوافل تحمل منها القمح وأنواع الحنطة التي يفتقرون إليها[1] ومنَّ على العرب بما يسَّره لهم في قديم الزمن من الرحلات الموسمية في الصيف والشتاء، يضربون فيها في الأرض يبتغون من فضل الله. يقول تعالى: ﴿لإِيْلَافِ قُرَيْشٍ أَيْلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوْا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِيْ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوْعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُوْمُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِيْنَ مَعَكَ. وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُوْنُ مِنْكُم مَرْضَى وَآخَرُوْنَ يَضْرِبُوْنَ فِيْ الأَرْضِ يَبْتَغُوْنَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾[2].

صورة عن النقد المتداول والكيل والميزان:

وقد عرفوا التعامل بالنقد؛ فاتخذوا الدنانير من الذهب. وكان منها المضروب والمنقوش من صنع فارس والروم، وغير المضروب والمنقوش من صنع اليمن. وكانت الدنانير المستوردة من الروم تحمل صورة ملكهم واسم ضاربها باللغة الرومية ويسمُّونها الهرقلية، واستعملوا الدراهم، وكانت مصوغة من الفضة وكانوا يستعملونها من صنع فارس مضروباً عليها صورة كسرى واسمه باللغة الفارسية». ولم يعرف العرب في جاهليتهم في كل مناطق الجزيرة عملة مضروبة لحسابهم وخاصة بهم[3].

وكان لهم مكاييل وموازين يعتمدونها في تقدير محاصيلهم

(١) سورة يوسف من /٥٦ ـ ٨٠.
(٢) المزمل/ ٢٠.
(٣) التراتيب الإدارية للكتاني ١٠/١ ٤١٣.

ومنتوجاتهم وقد ورد أنَّ المكيال مكيال أهل المدينة والوزن وزن أهل مكة»[1]. وكانت مكاييلهم متنوعة، وحدتها المدّ. وهو أربع حفنات بحفنة الرجل الأوسط. والصاع وهو أربعة أمداد وهو خمسة أرطال. والفَرَق وهو سبعة عشر رطلاً وثلاثة أرباع الرطل[2] والوَسْق وهو ما يساوي ستين صاعاً[3].

(١) المصدر نفسه ١/٤٣٨.

(٢) القاموس مادة فرق.

(٣) التراتيب الإدارية للكتاني/ ١/٤١٣ وما بعدها.

الفصل الخامس

أخلاقهم وعقائدهم

من خصالهم:

للعرب خصال وطباع عامة يشترك فيها الأكثرون منهم. ويبقى ثمة بعض الفوارق من قبيلة إلى أخرى، ومن منطقة إلى منطقة ومن بلد إلى بلد شأن الناس في كل أطراف الدنيا. وبخاصة وأنَّ بعض مناطق الجزيرة وبلدانها تختلف من حيث ما تكون عليه الطبيعة الجغرافية والمناخ من الرخاء والقسوة، ومن حيث امتزاج أهلها بالأعاجم، وكل هذا يؤثر في أخلاق الإنسان ويترك بصماته وملامحه فيه.

ولأجل هذا فقد كانت ثمة فروق بين أخلاق وطباع عرب نجد وعرب الجنوب والحجاز، بل وفي الملامح الجسدية والطرائق الفكرية وأساليب التعامل، بل إنَّ الفروق لتبدو أحياناً بين سكان قطر وسكان قطر آخر حتى لمسه الأقدمون وتحققوا من وقوع الخلاف في الصفات والشمائل بين أهل بيئة وأخرى، فتحدثوا عن حلم قريش ولينها ورقة ذوقها

وسلاسة لغتها وبراعتها في التجارة، وتحدثوا عن عمق تفكير أهل اليمن واشتهارهم بالحكمة حتى قالوا «الحكمة يمانية»[1].

وعلى كل حال فقد كانت ثمة طباع عامة يشترك فيها العرب ولا يكادون يختلفون، فلا يفترق فيها ابن الحجاز عن ابن نجد، وساكن اليمن عن ساكن حضرموت وعمان ولا ابن المدينة عن ابن مكة. ومما هو شائع فيهم النزوع إليه، الاعتداد بالنفس والفخر إلى حد الزهو بحيث إذا تكلموا رفعوا أصواتهم وبدت الخشونة في كلماتهم. وإذا تعاملوا مع سواهم ظهر الحذر عليهم خشية أن يقع بهم الغدر. فاستعلنت فيهم الخشونة، وبدا فيهم غلظ الطبع وقسوة التعبير. وقديماً قيل: «من بدا جفا».

وإن من سماتهم في الغالب الجهل حتى في شؤونهم الخاصة من عقيدة ودين. وكذلك الحقد حتى يأخذوا بثأرهم. وهم ماديون أنانيُّون يستأثر بنفوسهم الطمع، ولا يخضعون إلاَّ للسطو والقوَّة، وهم سريعو التقلُّب والتغيُّر. ومن أخلاق العربي الحنين إلى الوطن، والشعور العميق بكربة الغربة. رغم ما في حياتهم كلها من جمود ورتابة، ورغم ما يتخللها من مظاهر الحرمان والفقر والشظف والقسوة.

التعصب للتقاليد:

ومن أبرز ما كان يتصف به العربي بصورة عامة أنَّه شديد التعصب لتقاليده وأعرافه، عظيم الارتباط بمسيرة الآباء والأجداد، حريصٌ على اقتصاص آثارهم والاقتداء بهم. وقد بلغ من شدَّة تعصبهم لتقاليدهم أن

---

(١) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٢٩١/٤ - ٢٩٩.

اتخذوها نموذجاً يحتذى، بل ديناً يتبع. وقد هزىء القرآن الكريم من هذه الخصال فيهم وأنكرها عليهم في أكثر من موضع، فقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوْا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُوْنَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِيْ قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيْرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُوْنَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ، قَالُوْا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُوْنَ﴾(١) وقال أيضاً: ﴿وإِذَا قِيْلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّـهُ قَالُـوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنا، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُوْنَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُوْنَ﴾(٢).

ولقد كان منهم هذا المسار لأنَّهم اعتبروه مشيئة لله؛ يحقق رضاه ويضمن لهم سلوك السبيل الأقوم والمنهج الأهدى. وهو ما برز وضوحه في القرآن الكريم أيضاً في إطار الحديث عن بعض خصال هؤلاء العرب الجاهليين الذين بعث الله فيهم سيدنا محمداً ﷺ فيقول: ﴿وَإِذَا فَعَلُوْا فَاْحِشَةً قَالُوْا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا. قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُوْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ﴾(٣).

أثر العصبية في المجتمع العربي:

على أنَّه مع استهجان بعض هذه التقاليد العربية لطبيعة النزعة العصبية الشائعة في المجتمع العربي، فإنَّ ثمَّة تقديراً لمبرِّرات وجودها فيه في فترات رهيبة من الحياة العربية التي لا حكم فيها ولا قانون. ولا رادع من خلق أو ضمير أو دين. فإنَّ الإنسان الخائض في خضم هذا

---

(١) الزخرف/ ٢٢ ـ ٢٤.
(٢) البقرة/ ١٧٠.
(٣) الأعراف/ ٢٨.

المجتمع المتفجِّر الذي تهيمن فيه شرعة الغاب وأنظمة الحيتان حيث يأكل منهم القوي الضعيف، ينقلب إلى ذات أناني حريص شديد الحذر كثير الخوف سيِّء الظن بما حوله فيلتمس بسبب ذلك أي عرف أو تقليد يحميه ويحفظ كرامته وحرِّيته ويرعى مصالحه الخاصة والعامة. والعصبية القبليَّة هي وحدها في هذا المحيط المتأجج التي تمكنه من حفظ التوازن بين البطون والقبائل التي يتألف منها المجتمع العربي، وهي وحدها التي تشكل عامل دفع الناس بعضهم عن بعض، وأداة صون حقوقهم وأموالهم وكراماتهم إلى حدّ ما، وإن كانت لا تضمن في شكل من الأشكال تكوين مجتمع موحدّ المنطلقات والأهداف والوسائل، موحد الآمال والمصائر تنصهر فيه مصالح الفرد بمصالح المجموع. ويبقى المجموع عَيْناً ساهرة تحمي كل فرد وكل مصالحه.

ولهذا فإنا نستطيع القول بأنَّه قد كان لهذه العصبية مظهران: أحدهما إيجابي وهو هذا الذي ذكرناه، وهو أنها ضمنت إلى حد ما حجب القبائل والبطون بعضها عن بعض، ومنح كلٍ منها بعض الشيء شكلاً من أشكال السلطة والحماية وإن كان فيه كل العَفْوِيَّة والكيفيَّة والارتجال، والثاني سلبي لما كان يترتب عليه من بروز التعدديَّة وكثرة الرؤوس والأطراف، وبالتالي حتميَّة التنازع والتخاصم الدائمين التي تركت آثارها المشهودة فيهم على مدى تقلُّب التاريخ في القديم والحديث.

وعلى كل حال فقد كان مجتمع المدينة متأثراً إلى حد عميق بظروف بيئته والأخلاق والطباع التي رشحت عنها، فكان من المتعذِّر عليه في هذه الأجواء أن يكون مجتمعاً مستقرّاً آمناً.

الفصل السادس

الأسرة العربية في مجتمع المدينة
قبل هجرة الرسول ﷺ

الأسرة في مجتمع المدينة جزء من الأسرة العربية في الجزيرة:

لم تكن الأسرة العربية في الواقع سوى نموذج من عن حياة الأسرة العربية عامة، وصورة مصغَّرة لمجتمعها الكبير. فالعربي الأناني الحذر وسيّء الظن بكل ما حوله، لم يكن يسعه أن يرى في المرأة، هذا الكائن المستضعف، سوى سلعة تباع عند الحاجة وتشرى وتورث كما يورث المتاع.

ولذلك فقد كانت تشيع في مجتمع المدينة في معاملة المرأة بعض المعاملات السيئة، فكان بعضهم يجيز إكراهها على الزواج بل على البغاء في بعض الحالات، ويحرِّم عليها التملك[1]. وكانوا يبيحون نكاح الاستبضاع. وهو أن يأذن الرجل لزوجته بأن تمكِّن من نفسها رجلاً معيَّناً

(١) نداء إلى الجنس اللطيف السيد محمد رشيد رضا/٢، ١١، ١٤.

من الرؤساء أو الكبراء الممتازين بالشجاعة أو الكرم ليكون لها منه ولد مثله. ويستبيحون نكاح السفاح بالبغاء. وكان عند العرب شائعاً في الإماء دون الحرائر. وكذلك نكاح المبادلة. وهو أن ينزل رجلان كلٌّ منهما عن امرأته للآخر. ويجيزون نكاح الشغار وهو أن يزوج كل من الرجلين الآخر بنته أو أخته أو غيرهما، ممّن تكون تحت ولايته، بدون صداق. وهذان النوعان مبنيّان على قاعدة حسبان المرأة ملكاً للرجل يتصرف بها كيف يشاء.

وكان من الأنكحة الشائعة في المجتمع المدني قبل الهجرة نكاح المتعة أو النكاح المؤقت[٢]. وكان الكثير منهم يستبد في تزويج نسائهم من بنات وأخوات وغيرهن بغير رضاهن. بل يكرهونهن على الزواج أحياناً ممن يكرهن رغم ما في ذلك من الفساد والضرر الكبيرين. وقد ورد في الحديث ما ينبىء عن وقوع مثل هذا وفي الوقت نفسه عن موقف الإسلام منه. فقد روى الجماعة إلاَّ مسلماً عن خنساء بنت حذام الأنصارية أن أباها زوَّجها وهي ثيّب، فكرهت ذلك فأتت رسول الله ﷺ فردَّ نكاحها أي أبطله. ولقد علق بعض المحققين من العلماء على هذا بأنَّ سكوت البنت عند استئذانها لا يكون إذناً بتزويجها إلاَّ إذا كانت تعلم ذلك.

وروى أحمد والنسائي من حديث ابن بريدة، وابن ماجه من حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته. فقال فجعل رسول الله ﷺ الأمر إليها. فقالت أجزت ما صنع أبي. ولكن أردت أن أعلم النساء أنَّه ليس إلى الآباء من شيء. تعني أنَّه ليس لهم إكراههن على التزوج بمن لا يرضينه[١].

---

(١) المصدر السابق/ ١٥.

وهكذا، فقد كانت الأسرة العربية القديمة وبالمدينة بالذات أسرة مدخولة في بعض الحالات في رأينا تبعاً للعادات القبلية وأعرافها المطبقة فيها، مما يسيء إلى سمتها ويفسد بناءها، ولكن مع ذلك فقد كانت في المجتمع العربي والمدني بالذات أسرة. وكانت للأب فيها حرمته، وكذلك للأم مكانتها، وكان للابن منزلته الحبيبة عند أبويه اللذين يحرصان على تربيته وتنشئته التنشئة الصالحة حسب أعرافهما وتقاليدهما. وقد شاع من أقوال العرب:

إنما أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض

تمايز الناس وتفاخرهم بالآباء:

وقد كان من فرط حب الأبناء لآبائهم في العصر الجاهلي في كل مكان من أرض الجزيرة وفي المدينة أنَّهم كانوا بالإجمال يحرصون على الأنساب ويتفاخرون بها وبالآباء وبالدم واللون والنوع. وكان الناس فيهم طبقات، طبقة الأحرار، ومنهم الأغنياء والرؤساء وأبناء القبيلة الذين يجمعهم نسب واحد. وطبقة الموالي؛ وهم المنضمون إلى القبيلة من العرب الأحرار من غير أبنائها عن طريق الجوار أو الحلف، أو من الضعفاء. وطبقة الأرقاء. وهم المجلوبون من الخارج شراء، أو أسرى الحروب.

ولقد شجع الإسلام المسلمين على المحافظة على سلامة الأنساب وعلى تكريم الآباء والأبناء ومحبتهم، ولكنه نهى عن التفاخر بالآباء لأنها من نخوة الجاهلية ونعراتها الجامحة الذميمة، فكان من قول رسول الله ﷺ في خطبة الوداع مخاطباً أهل مكة وسواهم: «إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء» و«كلكم لآدم وآدم من تراب. لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلَّا بالتقوى».

الفصل السابع

الحكم والرياسة

النظام القبلي هو المعتمد:

لم تكن المدينة على العموم قبل الهجرة تحتوي شعباً موحداً ذا نظام كامل ورئاسة مفردة يخضع لها الجميع. كما هو دأب المدن العريقة والممالك ذات الأنظمة السياسية المعروفة والقوانين المعتمدة في الفصل بين الناس فيما يجد بينهم من خصومات ومنازعات.

وكل الذي نقله لنا الرواة والمؤرخون أنَّ النظام القبلي، رغم كل ما كان شائعاً في المدينة من وسائل التعامل الحضاري، ظلَّ يفرض نفسه فيها بصورة جلية. فطرائق معاش القبائل العربية في يثرب لم تكن تختلف في كثير أو قليل عن طرائق حياة القبائل البدوية في عمق الجزيرة، اللَّهمّ إلاَّ بالاستقرار الذي وفَّرته لهم طبيعة الأرض فيها وطبيعة مناخها.

واليهود لم يكونوا أحسن حالاً فيها من عربها، الأمر الذي يحملنا على القول بأنَّ حياة أهل يثرب كانت قبل الهجرة على العموم، حياة أقرب

إلى البداوة في جميع أنماط العيش وأساليب التعامل.

وهكذا فقد ظلَّ الحكم للقبيلة أو للبطن يترابط أفرادهما على أساس مصالحهما وعاداتهما وتقاليدهما. وكان من آثار ذلك شيوع كثرة الخلافات وعمقها بين القبائل والبطون أو بين أفرادهما، لأنَّ اللجوء إلى حلّ المشاكل العالقة بين الناس حلًّا عشائرياً لا ينتهي إلى الحسم في الغالب. بل تظل له صفة التراضي، لاعتماده أسلوب الضغط والإكراه أو الاستحياء. وكثيراً ما يكون التراضي قائماً على دخل وفساد وحقد.

رئيس القبيلة:

على أنَّه كان للقبيلة رئيس هو لها بمقام الملك، لأنه هو المرجع المسؤول في السلم وفي الحرب يقصده أفراد القبيلة من ذوي الحاجات ويتولى الشؤون العامة ويفصل في المنازعات.

ورئيس القبيلة يفرض فيه أن يكون من أعلاها نسباً وأرفعها شرفاً، وأن يتحلى بحميد الخصال وجميل السجايا، وأن يكون حليماً كريماً شجاعاً نجداً حدوباً على مصالح أبناء قبيلته وغيوراً.

مشاكل الرياسة:

ومع أنَّ رئيس القبيلة هو ملتقى أنظار جميع أفرادها، فإنَّه كثيراً ما كانت تتعرض رئاسته لبعض الاهتزاز بسبب تمرد البعض عليها وعصيانه أمرها وحكمها أو يسبب انفصاله عنها. وبخاصة عندما تكون القبيلة كبيرة ذات عشائر وأرهاط، حيث يستغل رؤساء العشائر فيها فرصة ابتعادهم عن الأرض الأم فيعلنون انفصالهم، أو يمارسون من الأعمال ما يفهم منه الخروج على الرئاسة التي ينتمون إليها

بعض امتيازات رئيس القبيلة:

هذا ويمتاز رئيس القبيلة على الآخرين ببيته الواسع الكبير المؤهل لاستقبال الجميع عند الضرورة، وبعدد نسائه الكثيرة وبإشرافه على تقسيم الغنائم في الحروب، وحقه بأن يأخذ المرباع، كما أنَّ عليه أن يرعى شؤون القبيلة، يسأل عن أبنائها، ويسعى لفك العاني الذي يكون قد وقع في أيدي العدو. ويشارك في تحمل الديات حين يعجز رجال القبيلة عن حملها[1]. واختيار هذا الرئيس كان يتأثر بأعراف القبيلة وتقاليدها. كما يتأثر بما قد يكون لمن تتجه إليه الأنظار من مؤهلات شخصية وفضائل ذاتية. ولذلك فقد أوْلت أخبار الرواة والمؤرخين هاتين الظاهرتين أهمية كبرى. بيد أنَّها أبرزت في هذا المجال سنَّة التوارث فيها كابراً عن كابر.

ذلك أنَّ الواقع المشهور هو أنَّ الرئاسة هذه تكون غالباً وراثية عندما يكون للرئيس المتوفى ابن. فتنتقل إليه بيسر غالباً. أما إذا لم يكن له عقب يحل محله بعده أو عندما يكون له أكثر من ولد وتقع المنافسة بينهم، فإنَّه في هاتين الصورتين يحسم الأمر باختيار الأكثر حزماً أو الأقرب إلى الرئيس المتوفى.

الشورى في القبيلة:

والمعروف لدى القبائل العربية أنَّ الحكم فيها هو بالفعل لسيد القبيلة، ولكن الواقع أنَّ سيد القبيلة يستمد رأيه على الأكثر من آراء أشراف قومه ووجوهها الذين يجمعهم في الملمات ليستطلع رأيهم وأفكارهم ومعلوماتهم فيما جدّ له من أحداث ووقائع.

---

(١) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٣٤٨/٤.

وقد ثبت في التاريخ أنَّ رؤساء القبائل البارزين والناجحين هم الذين كانوا يعيرون استشارة وجوه قبيلتهم الأهمية. فلا يقبلون على اتخاذ قرار أو عزيمة سلباً أو إيجاباً إلَّا بعد أن يتحاوروا معهم فيها، ويصلوا معهم فيها إلى الاتفاق على الموقف الذي يختارونه...

ولذلك رأينا قريشاً كانت كلما أرادت أن تتخذ موقفاً حاسماً من رسالة محمد ﷺ أو منه، تنادت إلى اجتماع دار الندوة حيث يتشاور فيها وجوه القوم وشيوخهم وذوو الرأي فيهم ويأخذون بالنتيجة القرار النهائي. ومن ذلك قرار إرسال الوفد إلى النجاشي ليطرد المسلمين المهاجرين إلى الحبشة، وقرار المقاطعة الذي اتخذوه في وجه النبي ﷺ وصحبه، وقرار نقض الصحيفة والغزوات التي كانوا يقومون بها على المدينة.

ولقد كانت تقع مثل هذه الاجتماعات للتشاور بين زعماء اليهود، أو زعماء الخزرج، أو زعماء الأوس، في الملمات ولدى بروز الصعاب والمعضلات السياسية والاجتماعية، كما كان يوم بعاث؛ وبالذات يوم اختلف رؤساء الخزرج، وخرج عليهم عبدالله بن أبي بن سلول رافضاً القتال ومتخذاً موقفاً حيادياً لصالحه الشخصي ولصالح قبيلته، فاستطاع أن يحمي أمواله من الاعتداء عليها وأن يكسب لنفسه مركز مرموقاً في الجوِّ المضطرب بين طوائف المدينة، حيث اتجهت إليه الأنظار كرجل يمكن أن يكون واسطة التجميع وحلِّ النزاع[1].

ولاجتماعات زعماء اليهود للتشاور أكثر من خبر ومصدر يمكن الاستفادة منه. ويكفي أنَّ نورد هنا لذلك خبر يوم قريظة يوم أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم. فقد قام كعب بن أسد

(١) مكة والمدينة لأحمد الشريف/ ٣٤١ - ٣٤٢.

فيهم وقال لهم: «يا معشر يهود قد نزل فيكم من الأمر ما ترون، وإني عارضٌ عليكم خِلالاً ثلاثاً فخذوا أيَّها شئتم. قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدُّقه. فوالله لقد تبيَّن لكم أنَّه لنبيٌّ مرسل، وأنَّه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة ولا نستبدل به غيره»[1].

ورغم كل هذا فقد ظلَّ حال سكان المدينة من عرب ويهود قبل هجرة النبي ﷺ غير محمود، وشأنهم الاجتماعي والسياسي مركوناً إلى الأعراف القبلية وتقاليدها. وكانت رئاستهم موزعة غير محكمة لذات أو شخص فرد يخضع له الجميع، مما جعل للمنازعات خطرها في إضعاف قوتهم وشل وحدتهم، وحدا بهم أخيراً بعد حرب بعاث إلى التفكير الجدي بالاتحاد والبحث عن الرجل الكبير الذي تلتقي عنده جميع الإرادات وكل القلوب..

وإن ابن إسحاق ليروي أنَّهم أوشكوا أن ينصبوا عليهم ملكاً من الخزرج حسب روايته التي يقول فيها: «وقدم رسول الله ﷺ المدينة وسيدّ أهلها عبدالله بن أبي بن سلول العوفي ثمَّ أحد بني الحُبلى. لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين. فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوِّجوه ثمَّ يملكوه عليهم. فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك. فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضَغِن، ورأى رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً. فلما رأى قومه قد أبوا إلاَّ الإسلام، دخل فيه كارهاً مُصراً على نفاقٍ وضغن»[2].

(١) الروض الأنف للسهيلي ١٩٥/٢.
(٢) الروض الأفق للسهيلي ٢/٥١.

ومثل هذا الخبر يفيد على سبيل القطع بأنَّ سكان المدينة لم يكن لهم قبل هجرة الرسول ﷺ إليها ملك ولا حاكم ولا رئيس مفرد منهم يخضعون له في شؤونهم الاجتماعية والقضائية والسياسية والإدارية، وإن كان يفيد بأنَّهم قد أوشكوا أن يتوصلوا في أواخر عهدهم فيها قبل الهجرة إلى الاهتداء إلى ذلك وحاولوا فعله..

الفصل الثامن

نبذة عن عقائد سكان المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ

(١)
عقائد العرب

العرب والدين:

إن أصدق مرجع يؤخذ عنه لدى الرغبة في التعرف إلى الدين عند العرب على الخصوص هو القرآن الكريم. ولقد ذكر بجلاء ما كان عليه اعتقاد الناس وبالذات أهل مكة ويثرب وما حولهما وما كانت لهم من عبادات. بل لقد ذكر اسم بعض أصنامهم التي كانوا يعظمونها ويعبدونها من دون الله قبل ظهور الإسلام.

وقد يزداد الباحث معرفة في ذلك بالرجوع إلى ما ورد في كتب السير والمغازي، وكذلك بعض كتب الحديث، ثمَّ ما كتبه بعض العلماء في الأصنام ككتاب الأصنام للكلبي، وما كتب في ذلك قديماً وحديثاً[١].

(١) راجع الجزء الأول من كتاب أخبار مكة للأزرقي.

وكل هؤلاء قد أجمعوا على أنَّ العرب عامة كان منهم من عبد الأصنام، كما كان منهم من ألَّه بعض الظواهر الطبيعية لتوهمهم أنَّها تستبطن قوى روحية مؤثرة في حياة الإنسانية وفيما حوله، مثل الشمس والقمر وبعض النجوم.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر بعض تلك الأصنام وعبادتها، كما وقع فيه أيضاً الإشارة إلى انتشار عبادة الشمس والقمر في الجزيرة. يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُون وَلَا يَمْلِكُوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُوْنَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً ولا نُشُوراً﴾[1]. ويقول في تحديد أسماء بعض آلهتهم التي عبدوها: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى تِلْكَ إذاً قِسْمَةٌ ضِيْزَىٰ إنْ هِيَ إلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوْهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إن يَتَّبِعُوْنَ إلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾[2] ويقول في عبادة بعضهم للشمس والقمر: ﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُمْ إيّاهُ تَعْبُدُوْنَ﴾[3] ويقول في أخبار عبادة ملكة سبأ وقومها: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيد فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُوْنَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُوْنَ﴾[4] والمعروف أنَّ

---

(١) الفرقان/ ٣.
(٢) النجم/ ١٩ ـ ٢٣.
(٣) فصلت/ ٣٧.
(٤) النمل/ ٢٢ ـ ٢٤.

مقر ملكة سبأ كان في اليمن الشمالي اليوم.

تعظيمهم للبيت ووجهة نظرهم في عبادة الأصنام:

ولم يكن سكان المدينة من العرب بعيدين عن العقائد التي كانت سائدة في الجزيرة العربية، فقد كانوا يعظمون البيت الحرام، ويحترمون المناسك التي كانت شائعة آنذاك.

ويظهر أنَّ غالب ما كان عليه العرب قبل ظهور الإسلام من دين هو دين إبراهيم عليه السلام، دين الحنيفية دين التوحيد محرَّفاً، شأن غيرهم من المتدينين الذين كانوا يعيشون من حولهم. وقد اتَّجه بهم ظنهم حتى زعموا أنَّ الأصنام شفعاؤهم عند الله، وأنَّهم يعبدونها لتقرِّبهم إلى الله. فمالوا إليها وعظَّموها ثمَّ عبدوها من دون الله وضلوا بذلك ضلالاً بعيداً، يقول الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُوْنِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُوْنَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُوْنَ، قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيْعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾[1] ويقول الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّيْنُ الْخَالِصُ وَالَّذِيْنَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوْنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُوْنَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِيَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[2].

وبضلالهم هذا سقطوا في الشرك زمناً مديداً، حتى بعث الله فيهم الرسول محمداً ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام وأخرجهم به من الظلمات إلى النور.

ولقد كان شركهم هذا متاهة رحبة المدى شردوا في بطاحها

---

(١) الزمر/ ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) الزمر/ ٣.

فاتخذوا الكثير من المعتقدات الغريبة مثل تعظيم قبور الأسلاف، أو عبادة الجن، أو تعظيم السحر والنجوم، والاعتقاد بوجود أرواح مؤثرة في الطبيعة، ومثل إنكارهم للساعة وإنكارهم للرسالات وإلى هذا لفت القرآن الكريم الأنظار كثيراً، فيقول الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالْسَّاعَةِ سَعِيراً﴾(١) ويقول: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُوْنَ قَالُوا ءإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعِظَاماً ءإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآباؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِيْنَ﴾(٢) ويقول في شـأن تكذيبهم بإرسال الله للرسل: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُوْنَ هَذَا شَيءٌ عَجِيْبٌ﴾(٣) ويقول: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُوْنَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَاهاً واحِداً إِنّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبروا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلَاقٌ﴾(٤).

وإن أظهر ما اشتهر بينهم هو عبادة الأصنام حتى قال ابن الكلبي: «اشتهرت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتَّخذ بيتاً، ومنهم من اتَّخذ صنماً. ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثمَّ طاف به كطوافه بالبيت. فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذ ربّاً، وجعل ثلاث أسافي لقِدره، فإذا ارتحل تركه. فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون عندها ويتقربون إليها»(٥).

---

(١) الفرقان/ ١١.

(٢) المؤمنون/ ٨١ ـ ٨٣.

(٣) ق/ ٢.

(٤) ص/ ٤ ـ ٧.

(٥) الأصنام للكلبي/ ٣٣.

وروي أنَّه لم يكن حيّ من أحياء العرب إلاَّ وله صنم يعبده يسمُّونه «أنثى بني فلا. .» ولأجل هذا نزل قوله تعالى: ﴿ إنْ يَدْعُونَ مِنْ دُوْنِهِ إلاَّ إنَاثَاً وإنْ يَدْعُونَ إلاَّ شَيْطَانَاً مَرِيْداً﴾[1] والإناث كل شيء ليس فيه روح مثل الخشبة والحجارة وصغار النجوم[2].

عرب المدينة والدين:

ومن تصفح الكتابات التي وضعت عن عبادات الجاهليين الوثنية وعن الأصنام يرى الأصنام التي كان يعبدها سكان المدينة من الأوس والخزرج، وإن كان جميع أهل الحجاز ونجد عامة، يتعبدون على الأغلب أصناماً معروفة لهم قاطبة ومعظمة عندهم.

بيد أنَّ البعض منهم كان يميِّز بعض هذه الأصنام بالتعظيم، وتقديم القرابين والقيام بالزيارات لها في المواسم وغيرها. فاللاَّت والعزَّى ومناة وهُبَل هي آلهة مشتركة بينهم جميعاً. ولكن ثقيف مثلاً كانت تعبد اللات وتخصها بالتعظيم. بينما كانت قريش تخص العزَّى بذلك. قال الكلبي: «ولم تكن قريش بمكة ومن أقام فيها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم للعزَّى ثمَّ اللاة ثمَّ مناة. فأمَّا العزَّى فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية. وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش للعزّى وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء الآخرين وكلهم كان معظماً لها»[3].

بل إنَّ الذين يأخذون مأخذ سكان المدينة في العبادة كالأزد وغسان

---

(١) النساء/ ١١٧.

(٢) القاموس المحيط للفيروز أبادي.

(٣) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٦/ ٢٣٩.

فقد كان يحجُّون ويقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رؤوسهم عندها وأقاموا عندها لا يَروْن لحجهم تماماً إلاَّ بذلك»[1].

من شعائرهم الدينية:

وهكذا فقد كان من شعائرهم تعظيم بيوت الأصنام وتقريب القرابين إليها والنذور، والتقرُّب إليها بالصلاة والسجود والطواف حولها، وحبس الحبوس عليها والقسم بها.

أما الصوم فلم يكن موضع تطبيق بين عامة أهل الجاهلية، وإن كان أهل يثرب وكذلك أهل مكة على علم به لاتصالهم باليهود وبالنصارى. وقد ذكرت بعض كتب الحديث أنَّ رسول الله ﷺ كان يصوم يوم عاشوراء في الجاهلية وأنَّه بعد هجرته واظب عليه وأمر الناس بصومه حتى نزل فرض صوم رمضان[2]. ويرى صاحب كتاب المفصل أن خبر صيام قريش يوم عاشوراء لا سند له، وأنَّه خبر مقحم فيه اسم قريش لأنَّه لا يعقل صيام قريش فيه وهم قوم مشركون»[3].

وإنَّ أقوى الأسانيد تبرز خبر صيام اليهود ليوم عاشوراء وإنَّ رسول الله ﷺ صامه مَقْدِمَهُ المدينة بعد أن رأى اليهود يصومونه فقال: «ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح نجَّى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوِّهم فصامه»، وقال: «أنا أحق بموسى منكم وأمر بصيامه»[4].

---

(١) الأزرقي ١٢٥/١ طبعة دار الأندلس.

(٢) إرشاد الساري لابن حجر العسقلاني ٤٢١/٣ وزاد المعاد لابن قيم الجوزية ١٦٤/١ وجامع الأصول لابن الأثير ٣٠٥/٦.

(٣) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٣٤٢/٦.

(٤) جامع الأصول لابن الأثير ٣٠٨/٦.

ولقد كان من شعائر العرب الفاشية فيهم الاختتان. وكانوا يعيِّرون الأغرل وهو الذي لم يختتن ومن شعائرهم الطواف بالبيت والحج إليه، وتعظيم الأشهر الحرم. وهذا واضح من الكتاب الكريم وبخاصة فيما جاء فيه يحظر على المشركين قربان المسجد الحرام في سورة التوبة فيقول تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِيْنَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُوْنَ. إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهِ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِيْنَ﴾[1] ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُوْنَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيْكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ﴾[2].

واشتهر أيضاً أنَّ العرب في الجاهلية كانوا يعظمون الحجر الأسود ويقبِّلونه كما كانوا يعظمون بعض الأحجار الأخرى كالأنصاب، والماء الذي كان يستقى منه الحجيج والذي كان يوجد في الأحواض عند أماكن العبادة. ومن أجل ذلك كانت سقاية الحاج في الجاهلية من أكبر المآثر عند أهل مكة. وكان يليها في أيام الرسول ﷺ العباس بن عبد المطلب، وكانوا يولون كل الأهمية لمحارق البخور والمباخر لتبخير أماكن العبادة والأصنام والقائمين بأداء الشعائر عندها.

---

(١) التوبة/ ١٧ - ١٨.

(٢) التوبة/ ٢٨.

(٢)
عقائد اليهود

السبب الديني وراء وجودهم في المدينة:

لقد ثبت أنَّ اليهود قدموا من فلسطين إلى الجزء الغربي من الجزيرة العربية، وذلك لكونه امتداداً طبيعيًّاً للحجاز المـلائم لليهود والمناسب لهجرتهم إليه وإقامتهم في ربوعه، لا سيما عند مواقع المياه، وفي المناطق الخصبة منه. ويقال لأنَّه المنطقة التي أشارت إليها كتبهم لدى بشارتها بظهور نبي يبعث في آخر الزمان وأكَّدت لهم بأنَّها هي المسرح الذي سيظهر فيها هذا النبي وتشهد انطلاقته، فجاءوا إليها يترقبون بعثه ليكونوا أول من يتَّبعه وينصره. ويؤيد هذا الاتجاه ما تناقلته ألسنة الرواة من أقوال اليهود سكان المدينة هؤلاء عن مجاوريهم من أبناء الأوس والخزرج كلما احتدم بينهم النزاع أنهم كانوا يهدّدونهم بظهور نبي سوف يبعث ويكونون معه فيقاتلونهم قتالاً قوياً.

وقد روى ابن إسحاق هذا فقال: «لما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيِّه وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على القبائل كما كان يصنع في كل موسم. فبينا هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً. . . فلما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «من أنتم؟» قالوا نفر من الخزرج قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا نعم: قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أنَّ يهود كانوا معهم في بلادهم. وكانوا أهل كتاب وعلم. وكانوا هم أهل شـرك وأصحاب أوثان. وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء

قالوا: «إن نبيّاً مبعوث الآن قد أطلَّ زمانه نتبعه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم»[1].

فهذه الرواية وغيرها مما ينتهي إلى سرد هذا الخبر أو قريب منه تعضد النبأ الذي يقول بأنهم لجأوا إلى المدينة وما حولها لِعِلَّة دينية، لا لمجرّد ٱنتجاع أماكن الكلأ والماء.

وعلى كل حال فإنَّ مما لا يجوز تجاهله هو أنَّ اليهود قد هجروا بلادهم في التاريخ وقصدوا المدينة هرباً في الأصل من القهر والتعسف، ونجاة من ألوان العذاب الذي كان يسومهم به ملوك وقادة الشعوب من الرومان والفرس، وبخاصة أيام «بختنصرّ» الفارسي، وأيام ظهور الرومان على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم.

ولقد نزل قسم منهم وادي القرى وخيبر وتيماء ويثرب واستقروا بها حتى ظهر الإسلام على يدي الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه[2].

أصول اليهود الدينية:

واليهود هم في الأصل أتباع سيدنا موسى عليه السلام الذي أنزل الله تعالى عليه التوراة، وأمره بأن يدعو فرعون وقومه إلى الإسلام. وقد فعل. ولكن فرعون وقومه لم يستجيبوا له. فلما تيقَّن موسى من انصرافهم عن دعوته كليّاً ويئس من استجابتهم إليه، أمره الله تعالى بأن ينجو بقومه بني إسرائيل من مصر إلى فلسطين قبل أن يتمكن منهم فرعون ويبطش بهم. يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ، وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ، وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/١٧٦.

(٢) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٦/٥٦٧ ـ ٥٨١.

فَاعْتَزِلُوْنِ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمونَ، فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُّتَّبَعُونَ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ. كَمْ تَركُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِيْنَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِيْنَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِيْنَ. وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَونَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِيْنَ وَلَقَدِ آخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِيْنَ وَآتَيْنَاهُمْ مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ﴾[1].

ورغم رعاية الله لهؤلاء اليهود فإنهم لم يلتزموا بالحدود التي أمرهم الله بالتزامها على لسان داود وعيسى بن مريم، فانتقم الله منهم وشرَّدهم في الآفاق ومزَّقهم شرَّ ممزَّق، وكان منهم هؤلاء الذين هاجروا إلى يثرب.

وكان من أبرز انحرافاتهم التي وقعوا فيها إضافة لعصيانهم أوامر الله تعالى، قتلهم الأنبياء بغير حق واعتقادهم زوراً وبهتاناً وخلافاً لما جاء في كتابهم بأنَّ النبي لا يبعث إلاَّ إذا كان من بني إسرائيل، وأنَّه لا كتاب بعد التوراة، ورفضهم بعثة عيسى وطعنهم بأمه، ثمَّ إيمانهم بأنَّ المسيح الذي سيبعث في آخر الزمان لن يكون إلاَّ منهم.

فهم يؤمنون بالله، ولكن أيمانهم هذا صار كفراً وصدوداً عن الحق. لأنَّهم مع إيمانهم حرفوا تعاليم التوراة وادعوا لأنفسهم ما لم يمنحهم الله إياه، ورفضوا بعثة عيسى عليه السلام وكتابه الإنجيل رغم كل الدلائل والوثائق المؤيدة له. فصار إيماناً باللسان لا يتجاوزه إلى القلب، فليس فيه ما يثبته من تطبيق أوامر الله تعالى والالتزام بحدوده والاستجابة لتعاليمه التي وجهها إليهم بواسطة أنبيائه.

---

(١) الدخان/ ١٧ ـ ٣٣.

مراكز عبادتهم:

ومع تقلب الأيام أنشأوا لأنفسهم في هذه المناطق، وفي المدينة بالذات مواضع مخصوصة بهم يتدارسون فيها أحكام دينهم وأخبار الرسل وما جاء في التوراة والمشنا، عرفت بين العرب في الجاهلية بـ: «المدْراس» أو «بيت المدْراس» ولقد كانوا يتخذون منها ملتقى لهم في أوقات فراغهم لاستئناس بعضهم ببعض، أو للمدارسة في شؤونهم والبت في قضاياهم الكبرى والمصيرية.

وقد جاء في بعض أخبار السيرة بأنَّ الرسول ﷺ دخل هذا «المدْراس» وحادث فيه اليهود وحاورهم. قال ابن عباس: «دخل رسول الله ﷺ بيت المدْراس على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: «على ملَّة إبراهيم ودينه» فقالا: «فإن إبراهيم كان يهودياً، فقال لهما رسول الله ﷺ: «فهلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم» فأبوا عليه.

وكانت مواضع صلواتهم تدعى المحاريب جمع المحراب. وعرف علماؤهم ورجال دينهم بأنَّهم الرَّبانيون أو الأحبار جمع حبر[1] وقد وردت هاتان الكلمتان في الكتاب الكريم فقال تعالى بالنسبة للأولى: ﴿يَعْمَلُوْنَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الْشَّكُورُ﴾[2] وقال بالنسبة للثانية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُوْنِ اللَّه وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا إلاهاً واحِداً لَّا إِلَهَ إلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾[3]

---

(١) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٦/ ٥٥٠.

(٢) سبأ/ ١٣.

(٣) التوبة/ ٣١.

وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِيْنَ أَسْلَمُوا لِلَّذِيْنَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾(١).

ويجزم القرآن الكريم بوجود خلافات بين بني إسرائيل أنفسهم في فهمهم لكتابهم. وأنَّهم انقسموا إلى شيع وأحزاب. ولا يستبعد أن يكون هذا الاختلاف قد انتقل إلى يهود يثرب. يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ والنُّبُـوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِيْنَ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوْا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَائَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾(٢) ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ فَرَّقُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾(٣).

وقد ذهب بعض المفسِّرين من السلف إلى القول بأنَّ الآية هذه نزلت في أهل الكتاب إذْ فرَّقوا دين إبراهيم وموسى وعيسى، فجعلوه أدياناً مختلفة، وجعلوا كل دين منها مذاهب تتعصب لها شيع متفرقة يتعادون ويتقاتلون بل ويكفر بعضهم بعضاً»(٤) ويقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُوْنُوا كَالَّذِيْنَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتِ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٥) وفي هذه الآية كل التحذير للمسلمين من أن يسقطوا في مثل ما سقط فيه أهل الكتاب السابقون عليهم كاليهود والنصارى مع الإشارة إلى خلاف هؤلاء.

---

(١) المائدة/ ٤٤.
(٢) الجاثية/ ١٥ ـ ١٧.
(٣) الأنعام/ ١٥٩.
(٤) تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا الجزء ٢١٤/٨.
(٥) آل عمران/ ١٠٥.

اشتهارهم بالسحر:

وقد عرف يهود يثرب بمزاولتهم السحر والاتقاء منه، واشتهروا بعلمهم بالتعاويذ وإنَّ المشركين كانوا يلجأون إليهم لذلك وليأخذوا منهم الرقى. وقد ورد أن أبا بكر رضي الله عنه دخل يوماً على عائشة وهي تشتكي ويهودية ترقيها فقال أبو بكر: «أرقيها بكتاب الله»[1].

اليهود والسبت:

وقد ظلَّ يهود يثرب يحافظون على تقديس يوم السبت وعلى حرمته، ويعتبرونه من الأيام التي لا يجوز لليهود أن يعملوا فيها.

بعض تعاليمهم الدينية:

وكان من تعاليمهم الدينية وأحكامها: اعتزال النساء في المحيض ورجم الزاني وصوم يوم العاشر من محرم. كما كانوا يعلنون عن عبادتهم وصلاتهم وأعيادهم «بالقرن».

عاداتهم: أما عاداتهم فمنها أنَّهم كانوا يسدلون شعورهم، بينما كان المشركون العرب يفرقونها، ولا يستبعد أنَّهم كانت لهم ملابسهم التي يمتازون بها عن جوارهم العرب.

(٣)
النصرانية في المدينة

النصرانية دخلت الجزيرة:

لا يسعنا في ختام هذا الفصل إلاَّ أن نأتي على ذكر النصرانية

(١) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٦/٥٦٠.

ومكانتها في المدينة قبل دخول النبي ﷺ. وهي الدين الذي ثبت شيوعه في أجزاء من جزيرة العرب.

وإن كتب المؤرخين لتثبت قطعاً بأنَّ النصرانية سلكت طريقها إلى عمق الجزيرة قبل ظهور الإسلام، بعد الذي لقيته على أيدي اليهود والحكام الرومانيين من أساليب التعذيب والقهر والإذلال، فاستقرت في أطراف الجزيرة العربية الشرقية والغربية والجنوبية. فكان أهل دُومة الجندل خليطاً وفيهم النصارى.

ولمَّا أسر خالد بن الوليد رضي الله عنه الأُكَيْدر، جاء به إلى رسول الله ﷺ فصالحه على الجزية، وكان صاحب أَيْلة، يوحنا بن رؤبة وهو نصراني، قد جاء إلى تبوك يوم كان الرسول ﷺ فيها فصالحه الرسول أيضاً على أن يدفع له الجزية.

وقد كانت غسان وتغلب وتنوخ ولُخَم وجذام وسُليح وعاملة من متنصّرة القبائل العربية. كما كانت كذلك نجران في اليمن في جنوب الجزيرة العربية.

ومن أجل هذا فإنَّ بعض المؤرخين، لا يستبعدون أن تكون النصرانية قد دخلت أيضاً المدينة ومكة عن طريق تجارة الرقيق التي تسلَّلت إلى الجزيرة وأدخلت معها الأرقاء من المسيحيين الرومانيين، وأنَّ من الروميات والصقليات والجرمانيات من صِرْن أمهات لأولاد عدد من صميم العرب. وكان أكثرهن قبل ظهور الإسلام على النصرانية. وكان في مكة والطائف، وفي يثرب ومواقع أخرى من الجزيرة رقيق نصراني يقرأ ويكتب ويفسّر للناس ما ورد في التوراة والأناجيل. ويقص عليهم قصصاً نصرانية، ومنهم من تمكّن من إقناع بعض العرب باعتناق النصرانية.

وقد كان للأديرة المغروسة في أعماق الصحراء تأثيرها الهام في تعريف التجار العرب بالنصرانية وتشجيعهم على الاهتمام بها[1].

وبالفعل فقد كان نفر غير قليل من هؤلاء الرقيق يقومون في خدمة ساداتهم بمختلف الأعمال التي يكلونها إليهم. وكان لبعضهم مكانة مرموقة بين الناس حتى أصبحوا عاملاً ومؤثراً في تحريك دولاب الاقتصاد في ذلك الزمن. وبخاصة وأنَّ العرب لم يكونوا يرغبون بالعمل، بل وقد كانوا يتعيَّرون منه، لأنَّ العمل والاحتراف في نظرهم لا يليق بالأحرار، حتى ولو بلغت الحاجة ببعضهم حدّ الفاقة والعوز الشديد.

أماكن وجودهم في المدينة:

ويقال إنَّه قد كان لهم موضع يسكنون فيه يدعى سوق النبط، وقد ورد أنَّ عمر بن الخطاب استعمل في خلافته أبا زبيد الشاعر النصراني على صدقات قومه، وأنَّ أبا زبيد هذا كان مقرَّباً من الخليفة عثمان بن عفان.

طقوسهم:

ولقد كان لهم طقوسهم وأديرتهم وكنائسهم ورهبانهم وشمامستهم ومطارنتهم وبطارقتهم الذين كان لهم تأثيرهم ببعض العرب.. ولقد ظل هذا الأثر بادياً حتى ظهر الإسلام فأخذ بعد ذلك بالانحسار تدريجيَّاً حتى ضعف كل الضعف ولم يعدْ له أي تأثير.

وثبت أنَّ الرسول ﷺ نهى الصحابي عثمان بن مظعون وكان من النصارى قبل الإسلام، نهاه عن تقليد الرهبان في الخصاء والامتناع عن

---

(١) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٥٨٨/٦ - ٦٠٣.

الزواج، كما نهاه عن التشدد في أمور أحلها الله للناس[1]، وقد أسند الطبري إلى ابن عباس أنَّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَ تُحَرِّمُوْا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوْا﴾[2] نزل بسبب رجل أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله إني إذا أصبت من اللحم انتشرت وأخذتني شهوتي فحرّمت اللحم. وقيل إنَّها نزلت بسبب جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ التقوا في دار عثمان بن مظعون واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا الوَدَكَ [الدسم] ولا يقربوا النساء والطيب. وعلى أن يلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ويسيحوا في الأرض، ويترهبوا ويجبّوا المذاكير، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[3].

وذكر أنَّ الرسول ﷺ لما سمع بابتعاد عثمان ابن مظعون عن أهله دعاه فنهاه عن ذلك ثمَّ قال: «ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم!! ألا إني أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني» ونزلت هذه الآية[4]

(١) الدر المنثور للسيوطي ٢/٣٠٧.
(٢) المائدة/ ٨٧.
(٣) تفسير القرطبي ٦/٢٦٠.
(٤) تفسير الطبري ٧/٦.

الفصل التاسع

مجتمع المدينة
بعد هجرة الرسول ﷺ

التأهب للهجرة

الاتصال بالقبائل:

روت كل كتب السير، أنَّ رسول الله ﷺ كان بعد بعثة الله له، يدأب كل عام في موسم الحج على الاتصال سِرّاً ببعض وجهاء القبائل الوافدين منها، فيعرض عليهم الإسلام ويطلب إليهم النصرة لتبليغ رسالة ربِّه إلى الناس، وقد اشتهر أنَّ معظم هؤلاء كانوا يشيحون عنه ولا يصغون إليه ولا إلى ما كان يدعوهم إليه، وأنَّ الأمر قد ظلَّ على هذه الحال حتى ما يقارب السنة العاشرة من البعثة.

لقاؤه مع بعض أهل المدينة:

وكان في هذه الفترة قدم إلى مكة نفر من الأوس يرغبون بعقد حلف مع قريش ضدَّ قبيلة «الخزرج» وفيهم أنس بن رافع وأبو الحيسر

وبعض من بني عبد الأشهل، وعلى رأسهم إياس بن معاذ. فالتقاهم الرسول ﷺ في الموسم وقال لهم: «هل لكم في خير مما جئتم له؟» وأخبرهم بأنَّه النبي المبعوث إلى الناس من رب العالمين. ودعاهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة الأصنام. وعرض عليهم الإسلام بعد أن تلى عليهم آيات من كتاب الله التي أعجبتهم، بدليل أنَّ إياس بن معاذ قال لصحبه بعد ذلك: أي قوم!! هذا والله خير مما جئتم له. ولكن زميله أبا الحيسر زجره. فقام القوم وعادوا إلى يثرب حيث وقعت معركة بعاث بين القبيلتين.

وفي الموسم الثاني قدم إلى مكة وفد جديد من قبيلة «الخزرج» مؤلف من ستة أشخاص، فقابلهم الرسول ﷺ عند جمرة العقبة ودعاهم، بعد أن تعرَّف إليهم، إلى الإسلام وألان قلوبهم ببعض ما تلاه عليهم من آيات الله، حتى حمل البعض على أن يحدث البعض الآخر ويقول لهم: تعلموا والله إنَّه النبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنَّكم إليه!!.

وبالفعل فإنَّ اليهود من سكان يثرب كانوا يحدِّثون جوارهم من العرب من الأوس والخزرج بخبر نبي قد أظل زمانه، وأنَّهم سيقاتلونهم معه قتال عاد وإرم، ولذلك فإنَّ هؤلاء الستة، ما إن سمعوا من الرسول ﷺ ما أخبرهم به حتى رقَّت له قلوبهم وتحضَّرت لقبول الإسلام. فبادروا إلى إجابة دعوة النبي وصدَّقوه وقالوا له: «إنّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك. ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزُّ منك» ثمَّ انصرفوا راجعين إلى يثرب حيث ذكروا لإخوانهم ما رأوه وما سمعوه من رسول الله ﷺ.

ودعوهم إلى الإسلام. فنشأ فيهم، ولم تبق دار من دور الأنصار إلاَّ وفيها ذكر من رسول الله ﷺ[1].

بيعة العقبة الأولى:

ولم يكد يهل الموسم الجديد للحج أي قبل الهجرة بعام وثلاثة شهور، حتى وفد على مكة جمع من سكان يثرب مؤلف من عشرة من الأوس واثنين من الخزرج، فلقوا الرسول ﷺ عند العقبة الأولى، فبايعوه على: «ألاَّ نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نَفْتَرِيه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف» فلما همَّ القوم بالانصراف، بعث معهم الرسول ﷺ مصعب ابن عمير. وأمره بأن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين. فخرج معهم ونزل على أسعد بن زرارة وكان يؤمهم بالصلاة[2].

تأهب الأوس والخزرج لتقبل الدعوة:

ولعلَّ من فضل الله على قبيلتي الأوس والخزرج وقوع حرب بعاث بينهم، واستفحال أمرها فيهم حتى أنهكتهم، فرب ضارَّة نافعة. يقول الله تعالى: ﴿كِتَبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[3] ولذلك فقد أحست جموع القبيلتين بعد هذا اليوم بميل عظيم إلى نبذ التقاتل، وإلى البحث عن أنجع الوسائل لجمع الشمل ورأب الصدع وتوفيق القلوب. وكانوا يجتهدون في هذه الفترة بحثاً عن الرجل الذي يمكن أن يحقق الله به آمالهم وأهدافهم هذه، وما إن كان لقاء

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام؟ ابن هشام القسم الأول طبع البابي الحلبي/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

(٢) ابن هشام القسم الثاني/ ٤٣١ ـ ٤٣٢.

(٣) البقرة/ ٢١٦.

أولئك النفر برسول الله ﷺ واستماعهم إليه حتى بادروا إلى الالتصاق به والاستجابة لدعوته والالتفاف حوله.

بيعة العقبة الثانية:

وما أن أهلَّ عليهم الموسم اللاحق حتى خرج إليه من الأوس والخزرج وفد عظيم يَعدُّ ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، فواعدوا رسول الله ﷺ عند العقبة الثانية. فرغبهم بالإسلام وحضَّهم على اعتناقه. ولما وجد منهم تقبُّلاً قال لهم: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فبايعوه واستوثقوا منه ألَّا يدعهم ويرجع إلى قومه بعد أن ينصره الله. فوعدهم رسول الله ﷺ بذلك وقال: «أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» واختار رسول الله ﷺ منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[1] يكونون على قومهم بما فيهم. وروى ابن إسحاق فقال: «حدَّثني عبدالله بن أبي بكر أنَّ رسول الله ﷺ قال لهؤلاء النقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم، كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي». قالوا نعم[2].

بدء الهجرة من مكة إلى يثرب:

ولقد روي أنَّ رسول الله ﷺ رأى في المنام أنَّه يهاجر من مكة إلى أرض بها نخل[3]، فأذن لصحبه بالهجرة إلى يثرب. وأقام بعد أن تابعه ذانك الحيَّان من الأنصار ينتظر في مكة حتى يأذن له ربّه في الخروج من مكة مهاجراً إلى يثرب، ولكنه لم يكُفّ عن حض أصحابه على الهجرة إليها.

(١) ابن هشام القسم الأول/ ٤٤١ ـ ٤٤٣.
(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٢/١٩٨ ـ ٢٠١.
(٣) المصدر نفسه ٢/٢١٣.

أوائل المهاجرين:

ولقد كان من أوائل من هاجر إليها من أصحابه: أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد بن هلال ابن عبدالله بن مخزوم، ثمَّ عامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي حَثْمة العدوية ثمَّ عبدالله بن جحش ثمَّ تتابع قدوم المهاجرين إليها بعد ذلك أرسالاً.

ولما أذن الله لرسوله بالهجرة إليها خرج بصحبة أبي بكر رضي الله عنه. وكان لم يتخلف مع رسول الله في مكة إلَّا شخص حُبِس، أو شخص فُتن. إلَّا علي ابن أبي طالب وأبو بكر رضي الله عنهما، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله بالهجرة فيقول له الرسول ﷺ: «لا تعجل لعلَّ الله يجعل له صاحباً». فيطمع أبو بكر أن يكونه[1].

فترة إقامة الرسول في مكة:

والراجح أنَّ رسول الله ﷺ قد قضى في مكة بعد بعثته ثلاثة عشر عاماً يُوحىٰ إليه. ثمَّ كانت هجرته إلى يثرب بعدها. روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال: «بعث النبي ﷺ لأربعين سنة، فمكث فيها ثلاث عشرة يوحى إليه ثمَّ أمر بالهجرة» وكانت هجرته في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته وذلك يوم الإثنين. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: «ولد نبيُّكم يوم الإثنين، وخرج من مكة يوم الإثنين. ونبىء يوم الإثنين. ودخل المدينة يوم الإثنين وتوفي يوم الإثنين»[2].

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/٢١٥ ـ ٢١٨.

(٢) المصدر نفسه/ ٢٣٢.

الفصل العاشر

الرسول ﷺ والمهاجرون في المدينة

استقبال الأنصار للرسول:

وما كاد سكان المدينة يعرفون بهجرة الرسول ﷺ من مكة، حتى أخذوا يترقبون قدومه كل يوم بشوق عظيم، فكانوا يخرجون كل صباح إلى ظاهر المدينة فما يعودون حتى تغلبهم الشمس فيدخلون بيوتهم اتقاء حرِّها.

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة، كان الناس قد آوَوْا إلى مساكنهم، وكان أول راءٍ له رجل من اليهود، فصرخ بأعلى صوته يخبر الأنصار بقدومه، فدلفوا من كل حدب وصوب مرحبين به، حتى أنَّ العواتق صعدن لفَوْق البيوت يتراءيْنه يقُلْن أيهم هو؟ أيهم هو؟. يقول أنس رضي الله عنه فما رأينا منظراً شبيهاً به[1]. وكان الغلمان والخدم يقولون:

---

(١) الإمام أحمد في مسنده.

الله أكبر جاء رسول الله!! الله أكبر جاء محمد!! الله أكبر جاء رسول الله[1]. قال البراء بن عازب: فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيءٍ فرحهم برسول الله ﷺ[2] وكانت بنات الأنصار ينشدن:

طلع البدر علينا من ثنيَّات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وكان الناس يتلقونه في الطريق أفواجاً، ويطلبون منه الإقامة عندهم. ويمسكون بزمام ناقته فيقول لهم: «خلُّوا سبيلها فإنَّها مأمورة».

منزل رسول الله ﷺ:

وظل الأمر كذلك حتى مرَّ بحيّ من بني النجار، استقبلته فيه جوار منهم وهنَّ يضربْن الدفوف ويقُلن:

نحن جواري بني النجار يا حبذا محمدٌ من جار[3]

حتى أتى دار بني مالك بن النجار بركت الناقة على مكان فيه هو يومئذ مربد [أي الموضع الذي يجفف فيه التمر] لغلامين يتيمين من بني النجار وهم أخواله ﷺ. ونزل رسول الله ﷺ عن الناقة فاحتمل أبو أيوب بن زيد النجاري الخزرجي رحله فوضعه في بيته ونزل عليه رسول الله ﷺ، فأكرم وفادته وكان عظيم الفرح بنزوله عنده حتى قال: «كنا نضع لرسول الله ﷺ العشاء ثمَّ نبعث به إليه فإذا ردَّ إلينا فضله تيمَّمت أنا وأم

---

(١) البخاري ومسلم من حديث الهجرة.
(٢) الجامع الصحيح باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة.
(٣) البيهقي عن أنس.

أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة. وكان رسول الله ﷺ في سفل البيت، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حبٌّ لنا فيه ماء فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوُّفاً أن يقطر على رسول الله منه شيء فيؤذيه[1].

بناء مسجد رسول الله:

وفي الفترة التي كان ينزل فيها رسول الله ﷺ عند أبي أيوب استدعى الغلامين صاحبي المربد فساومهما عليه. فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله!! فأبى حتى ابتاعه منهما. ثمَّ بنى مسجده عليه[2].

وقد ثبت أنَّه ﷺ كان يعمل في بناء هذا المسجد وينقل اللَّبن مع المهاجرين والأنصار حتى أتمه وهو يقول: «اللهم إنَّ الأجر أجر الآخرة: فارحم الأنصار والمهاجرة.

مدة إقامته في بيت أبي أيوب:

وقد أقام ﷺ في بيت أبي أيوب سبعة أشهر وهو الوقت الذي اقتضاه لإنهاء بناء المسجد وبناء مساكنه كلّها.

---

(١) السيرة النبوية ابن كثير ٢/٢٧٧.
(٢)

الفصل الحادي عشر

خلاصة عن مجتمع المدينة
لدى دخول الرسول ﷺ

قبل المباشرة بعرض صورة مجتمع المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها يحسن بنا استعراض صورته قبل الهجرة بإيجاز.

كانت المدينة موزعة بين العرب واليهود. وكان أبرز العرب في المدينة قبيلتا الأوس والخزرج. وكانت النزاعات والحروب دائمة الهياج بين هاتين القبيلتين حتى هلك منهم فيها خلق كثير. وحتى كان من العسير التقاؤهم على رجل واحد منهم يجتمع عليه أمرهم.

كانوا وثنيين يتبعون في عقائدهم وعباداتهم قريشاً؛ فيعبدون من الأصنام ما تعبد وما يعبده في الغالب أهل الحجاز عامة، بيد أنهم كانوا يولون بعض الأصنام من الاهتمام والتعظيم أكثر مما يولونه للبعض الآخر. فكانت لمناة عندهم احتفاءات أكثر مما كان لغيرها من الأصنام، وكانوا يعظمونها أكثر مما يعظمون سواها. وكانت حذو «قديد» وهو الجبل الممتد بين مكة والمدينة من ناحية الساحل. وقد جاء في تفسير قوله

تعالى: ﴿إِنَّ الصفا وَٱلْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرَ اللَّهِ فمن حَجَّ البيتَ أَوْ اعتَمَر فلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ وذلك فيما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنَّ الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلّل، وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله تعالى: ﴿إنَّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾ الآية.

وكان لهم في الجاهلية عيدان ويومان يلعبون فيهما ويتلهّوْن. وهما النَّيْروز والمهرجان وقد أخذوهما عن الفرس.

وكان سكان المدينة في عامتهم أهل زراعة وذوي معرفة بخصائص الأشجار وأساليب التعامل معها. وكانت لهم معرفة بالتجارة. وكانت لهم أسواق يتبايعون فيها ويتبادلون السلع من كل صنف. وكانت لهم طرق في المؤاجرة والمبايعة والتعامل كالمحاقلة والمزابنة والمخابرة.

وكانت الحياة في المدينة مثلها في غيرها مسرحاً لضروب من العادات، وانتشار صنوف الأطعمة والأشربة التى صادفها الإسلام لدى دخوله، وأخذ فيها القرار الذي يضمن مصلحة الإنسان فرداً وجماعة، ويضمن مصلحة البيئة التي يحيا بها هؤلاء وينقّيها من الأوبئة والأمراض الصحية والاجتماعية، ويتفق مع أصوله في بناء المجتمع وحماية الإنسان ومصالحه العامة والخاصة، وعقله وماله ونسله.

المدينة ومجتمعها وبيئتها بالنسبة للمهاجرين:

ولقد هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة كما هاجر من قبله معظم أصحابه من القرشيين وسواهم، فلم يكن انتقالهم إليها انتقالاً من

قارة إلى أخرى، أو من بيئة إلى بيئة أخرى تختلف في أوصافها عنها كلياً، كما حصل يوم كانت الهجرة الأولى في الحبشة، وإن كانت تختلف بعض الشيء في المناخ أو التربة أو بعض خصال أبنائها. بل هاجروا إلى منطقة وبيئة ومجتمع لها كل الصفات والخصائص التي لمنطقتهم وبيئتهم ومجتمعهم التي كانوا فيها. بل كانت لهم مع أهلها علاقات ومصاهرات جعلتهم يألفونها ويقدرون على العيش فيها وبين أهلها دونما عائق لغوي أو تقليدي أو ديني أو اجتماعي.

ولقد كان التفكك بارزاً بين سكان المدينة، فلم يكن اليهود على انسجام مع القبائل العربية الموجودة في المدينة. وكان الصراع عنيفاً بين قبيلتي الأوس والخزرج. وكان لكل فئة من قبيلة، بل وفرد من عشيرة شأنه ومصلحته ونزوعه. وكان أجلى ما يكون عليه هذا التفكك حالهم في الاعتقاد حيث كان لكل فرد إلّهه في بيته أو خيمته، فكان فساد العقيدة واضحاً، ثمَّ انحلال الرابطة الاجتماعية وانتشار المفاسد الخلقية والعادات الذميمة، وانعدام مفهوم الأمة والسلطة والقانون، وضعف الصلة بين الفرد والجماعة.

وكان مع ذلك التحفّز النفسي موفوراً لدى الكثيرين منهم بحثاً عن الأفضل، وسعياً لتحقيق الوضع الاجتماعي والسياسي الأمثل. وكان الاستعداد لدى الغالبيَّة عظيماً لتلقِّي الخير والاستماع إلى الأحسن، كما كان الاندفاع شديداً نحو اكتشاف القائد الحكيم والموجه البصير والراعي الشفيق الذي يمكن أن يوحد كلمتهم ويجمع صفوفهم.

الفصل الثاني عشر

الركائز الأساسيّة في تطوير مجتمع المدينة بعد الهجرة

التطوير غير مرتجل:

من متابعة مجتمع المدينة بعد هجرة رسول الله ﷺ إليها نرى فيه تطوراً عجيباً على كل المستويات أنجز على مدى سنوات قليلة تعد على أصابع اليدين. وإنّه لتطور ينبىء بِصِدْقٍ وَبِحَقٍ أنّه لم يكن وليد هوى وارتجال. بل شعاع دين أزلي خالد ارتضاه الله تعالى للعالمين في قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾(١) وفي قوله: ﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامَ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِيْنَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَائَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيْعُ الْحِسابِ﴾(٢) وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ﴾(٣).

---

(١) المائدة/ ٣.

(٢) آل عمران/ ١٩.

(٣) آل عمران/ ٨٥.

ويفهم من هذه الآيات الثلاث أنَّ الإسلام دين معبّر عن جميع الملل التي جاء بها الأنبياء والرسل، وإنه هو جوهرها الأساسي وروحها العام الذي تتفق فيه وتلتقي عنده. وهو العام الضامن لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة بما احتواه من منهاج وتكامل في الاعتقاد والتشريع والتأديب والتربية الإنسانية.

ولذلك فإنَّه لدى اقتحامه مهمة الإصلاح كان ذا تصور متكامل للمجتمع الذي يشاء أن يقيمه ويحقق به مصلحة الإنسان، فرداً وجماعة شعباً ودولة في مظلة شريعة سامية جامعة لبنود الخير والصلاح وهو ما أخبر به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّيْنِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوسَى وَعِيْسَىٰ أَنْ أَقِيْمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفرَّقُوا فِيه كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِيْنَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيْبُ﴾[1] وقوله تعالى أيضاً: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيْعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِيْنَ لاَ يَعْلَمُوْنَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِيْنَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِيْنَ، هَـذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدَىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُوْنَ﴾[2].

فهو لم يدخل مجتمع المدينة بفكر مبعثر، وتصور ضائع زائغ لا يدري من أين يبدأ وكيف يتصرف، وإلى أين يتوجه. ولو كان كذلك لكان أكثر ضلالاً من أولئك الذين كانوا يحملون الفكر الجاهلي والاعتقاد الجاهلي في مكة والمدينة وغيرها من أطراف الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام.

(١) الشورى/ ١٣.

(٢) الجاثية/ ١٨ ـ ٢٠.

لقد دخل الإسلام المدينة بعد هجرة رسول الله ﷺ ديناً مستكملاً العناصر الأساسية للبنية الإنسانية الفردية الصالحة، وللأصول والمبادىء الهامة للتنظيم الاجتماعي والسياسي والمالي للأمة الواحدة المستوفية لشرائط الوجود العزيز والكيان القوي الكريم.

ومن أول يوم دخل فيه الرسول ﷺ المدينة أعرب بثاقب فكره وعميق نظرته عن هذا المفهوم عندما حاول بعض زعماء سكان المدينة من الأوس والخزرج إجراء الضغوط عليه لينالوا شرف استضافته، فلم يشأ أن ينزل عند أحدهم بمحض اختياره فيقع فيما يقع فيه كل الذين يمرُّون بمثل هذه التجربة، من نقد أو عتب لتفضيله النزول عند هذا الزعيم دون ذاك، ثمَّ ينجرف من حيث يريد أو لا يريد على مدى الزمن في خلافات لا تخلو من أن تترك بصمات مؤثرة في التحاقد والعداوة. . .

ولذلك فقد حدَّثتنا كتب السيرة فيما رواه هند بن سعد بن سهل بن حنيف من حديث علي رضي الله عنه أنَّه أدرك رسول الله ﷺ الجمعة في بني سالم بن عوف فصلَّاها في المسجد الذي في بطن وادي رانوناء فكانت أول جمعة صلَّاها بالمدينة فأتاه عتبان بن مالك وعباس بن عُبادة بن نضلة في رجال من بني سالم بن عوف فقال: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمَنَعَة، فقال: «خلُّوا سبيلها فإنَّها مأمورة» فخلوا سبيلها، أيْ ناقته، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمَنَعة قال: «خلوا سبيلها فإنَّها مأمورة» فخلوا سبيلها فانطلقت حتى إذا مرَّت بدار بني ساعدة اعترضه سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة، فقالوا له مثلما قال له الأوائل وأجابهم بمثل ما أجاب أولئك. ثمَّ مر على بني الحرث بن الخزرج فاعترضه

رجال منهم ثمَّ رجال من بني النجار وكان يتكرر منهم ومنه ما حصل من السابقين، إلى أن بركت الناقة عند دار بني مالك بن النجار على باب مسجده ﷺ، وهو يومئذٍ مربد لغلامين يتيمين من بني النجار، ثمَّ قامت وسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثمَّ التفتت إلى خلفها ورجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ثمَّ تحلحلت ووضعت جرانها، فنزل رسول الله ﷺ عنها واحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته، ونزل عليه رسول الله، حتى بنى مسجده ومساكنه»[1]. ثمَّ توالت من بعد ذلك خطواته الرائدة في البناء والإصلاح. . .

ولقد كان من أولى الركائز التي اعتمدها الإسلام في برنامجه الإصلاحي والتنظيمي للأمة وللدولة والحكم، تصحيح العقيدة لدى اتباعه المؤيدين وبناء المسجد، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ثمَّ بين المسلمين من جهة وعقد حلف الموادعة مع يهود المدينة. وذلك لما لها من فضل في تعزيز انطلاقة الإسلام ومجتمعه الحديث.

تصحيح العقيدة:

ولا جرم أننا قد رأينا من قبل ما كان عليه عرب المدينة من الأوس والخزرج وسواهم من معتقد؛ فقد كانوا وثنيين كدأب غيرهم من عرب الجزيرة عامة. وكانت الوثنية قد رسخت في نفوسهم وقلوبهم رسوخاً جمّد عقولهم وعطّل مواهبهم الفكرية إلى حدّ بعيد، بعد أن التزموا قاعدة تقليد الآباء والأجداد والإصرار على اتباع آثارهم في كل شيء حتى كان قولهم المأثور الذي نقله لنا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّهْتَدُوْنَ﴾[2]. ولقد سولت لهم هذا

(١) الروض الأفق للسهيلي ٢/١١.
(٢) الزخرف/ ٢٢.

النهج وأغرتهم به وقسرت عقولهم عليه، حتى كانوا كلّما نبّهوا إلى خطأ ما هم عليه ودعوا إلى تصحيحه وتعديله والرجوع إلى الحق وعبادة الله الواحد القهار ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا﴾(1)، ولم يريدوا تكليف أنفسهم متعبة البحث عن الحق، وبخاصة وأنَّ آباءهم بشر مثلهم يخطئون ويصيبون، الأمر الذي حدا بطرح السؤال على ذواتهم أكثر من مرَّة ومناسبة في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قال أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُّمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قَالُوْا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُوْنَ﴾(2).

لقد جمدت عقولهم عند ظاهرة الالتزام بما كان عليه آباؤهم من الاعتقاد الضال، رغم أنَّهم كانوا يرون بعد شيء من المحاكمة الفكرية العادلة بطـلان معتقدهم، وأنَّهم به يزوغون عن سواء الحق، ولذلك فإنَّهم كانوا كلما طرح عليهم السؤال للاستفسار عن خالقهم أو خالق السماوات والأرض يبادرون إلى الإجابة بأنَّه الله. يقول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ﴾(3). ويقول: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُوْلُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُوْنَ﴾(4).

إنَّهم كانوا يعترفون قطعاً بأنَّ الله خالقهم وخالق السماوات والأرض، وخالق كل شي. ولكن وثنيَّتهم جمدت نشاط فكرهم وحملتهم على معاندة الحق ومكابرته، والمضيِّ في متابعة مفاهيم الشرك والانسياب في زواريبه ومنحنياته المنحرفة، وحكمت على عقولهم بالضعف بل

(1) البقرة/ 170.
(2) الزخرف/ 24.
(3) لقمان/ 25.
(4) الزخرف/ 87.

وبالشلل، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُوْنَ﴾(١) كأنَّهم كانوا مسحورين أو مجذوبين إلى ذلك، وبدليل قوله تعالى حول حادثة تكسير إبراهيم عليه السلام لأصنام قومه وتعليق فأسه على رقبة كبيرهم بعد أن أعفاه من الكسر لأمر يريده: ﴿قَالُوْا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِيْنَ، قَالُوْا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيْمُ. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُوْنَ قَالُوا ءأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيْمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيْرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوْهُمْ إن كَانُوا يَنْطِقُوْنَ، فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوْا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُوْنَ﴾ لأنَّهم تأكد لهم منطقياً وعقلياً وبصورة عفوية التمعت في عقولهم نورانية الحق، خطأ ما هم عليه من العبادة لهذه الحجارة والتعظيم لها، وهي لا تملك لنفسها نفعاً ولا تقدر أن تدفع عن ذاتها أذى ولا ضراً. فبادروا إلى هذا القول.. ولكنهم سرعان ما عادوا بفعل تأثرهم بتقليد الآباء وجمودهم عنده كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِّسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِم لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤُلاءِ يَنطِقُوْنَ﴾ حتى اضطر إبراهيم عليه السلام لأن يقول لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُوْنَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُم شَيْئاً ولا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ؟﴾(٢).

وهكذا فقد اضطربت بشكل عام لدى الإنسان الجاهلي موهبته الفكرية فران على قلبه سوء سلوكه وغشي بصره وعمي عن الحق وتاه في فيافي خرافات الوثنية وأساطيرها ودعاويها الباطلة. بل لقد هان هذا الإنسان الوثني على ذاته ففرضت عليه صَغارها، وسوَّلت له الاسترخاء إلى فسادها والارتياح إلى واقعها الضال حتى عاش الناس في فوضى

(١) الصافات/ ٦٩ ـ ٧٠.
(٢) الأنبياء/ ٥٩ ـ ٦٧.

وألفوها ردحاً طويلاً لا يعون وكأنّهم لا يسمعون ولا يبصرون تماماً كما قال البوصيري:

أتيت والناس فوضى لا تمرّ بهم إلاّ على صنم قد هام في صنم

فعاهل الروم يطغى في رعيّته وعاهل الفرس من كبر أصم عمي

بل كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُوْنَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُوْنَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُوْنَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُوْنَ﴾[1].

تعظيم العربي لكل شيء وخوفه منه:

ولعلنا نستطيع أن نقول إنَّ الإنسان الجاهلي باندماجه مع العقيدة الوثنية انزلق إلى إمكان الاتجاه بالتعظيم إلى كثير من الأشياء والخوف منها، فكان منهم من ألّه الشمس وعبدها، أو ألّه القمر أو النجوم أو الشجر أو النار أو غير ذلك. ومنهم من ألّه الآباء وألّه الأرواح، واندمج إلى حدّ بعيد مع ألاعيب السحر والشعوذة والطلسمات، وتأثر بها ووقع تحت كابوس الخوف من أخطار العارفين بها، فازداد خَوَراً وهواناً وازداد فكره خزياً وضلالاً.

ومع تقدم الأزمان وبضغط من كل هذه العوامل وغيرها مما كان يجد فيه غرابة ويستحوذ على نفسه، نما إحساسه الخفي بوجود القوى الخفيّة وبقدرتها الخارقة على فعل الأعاجيب وإتيان المدهشات، وعظم استرساله في البحث عن كل ما يحقق رضاها أو يساعده على مفاداة ضررها. وكان في كل ذلك فقدانه لأعظم عناصر ثقته بقوته ورجولته وإبداعه الفكري...

(١) الأعراف/ ١٧٩.

العربي الجاهلي والعربي المعاصر:

ولعلّنا نستطيع عقد بعض أوجه المشابهة بين طبيعة العربي الجاهلي والعربي المعاصر، وظروف حياتهما، فقد كان معروفاً بأنَّ العربي بطبيعته لا يطيق القيود ولا يألف النظام، ويميل كليّاً إلى العيش في ظلال الحريَّة ويتطلبها في كل مراحل حياته وأحوالها بحيث لا يستسهل الرضوخ لسلطان، أو الخضوع لنفوذ.

ولئن كان الإنسان العربي المعاصر الذي يعيش في وطنه في مظلَّة نظام وحكم يخيَّل إليه أنَّه يتمتع بكامل حريته، فهو يملك حرية الاعتقاد، وحرية الفكر، وحريَّة الحركة والعمل واختيار النظام الذي يشاء في السياسة والتربية والاقتصاد والصناعة، فإنَّ ذلك كله يبقى في حدود، بينما يظل في حقول أخرى غارقاً في مستنقع الضعف ومكبّلاً بقيود التبعية لقوى ومحاور تتخطاه وتحكمه وتسترق جهوده وطاقاته.

وإن جميع أنظمة الحكم في الشرق العربي والإسلامي على الرغم مما أحرزته من قدرة على تسيير دفة الحكم في جميع الحقول حتى بدت وكأنَّها تمسك بالأزمّة كافة، وتهيمن على مقاليد المجتمع في مختلف الميادين، فإنَّها في الواقع ما فتئت خاضعة للقيود الاستعمارية وأسيرة لما تلزمها به منها الدول الكبرى بشكل مرئي أو خفي..

وعليه، فإنَّه إذا كان العربي في جاهليته يعبد الأصنام الحجرية أو غير الحجرية، ويرهب جبروتها ويسعى لكسب رضاها أو تفادي ضررها وخطرها. ويعيش نهاره وليله وأيام حياته كلها تحت كابوس الخوف منها، وفي هاجس الرعب من نقمتها، فإنَّ العربي في عصره الحديث يخضع لأنظمة عربية أو إسلامية، ما تزال تعيش هذا الكابوس وهذا الهاجس مع

الأصنام الاستعمارية التي تحكم مناهجه السياسية والتربوية والاقتصادية والصناعية والثقافية والإعلامية وغيرها. . .

وإنَّ الشعوب العربية والإسلامية في الشرق بل وفي غير الشرق يتراءى لها وكأنَّها تعيش في أوطانها وفي مجتمعـاتها عيش الحـريَّة والاستقلال، ولكنها في الحقيقة وواقع الأمر تجهل في غالبيتها أنَّها واقعة في قبضة الاستعمار القوية التي لا يراها ولا يحس بها إلاَّ العالمون تماماً كما كان يتراءى للإنسان العربي في جاهليته وفي أوطانه أنَّه في ربوعه وبين مضاربه يمارس حريَّته الشخصية المطلقة التي لا يقيِّدها شيء في الوقت الذي كان فيه ساقطاً في قبضة الوثنية وأصنامها من الحجر والبشر وغيرها التي كانت تهيمن على كل ما لديه من فكر ونزوع وإحساس.

ولئن كانت الأنظمة العربية والإسلامية لا تطيق حتى هذا التاريخ إنجاز مشاريع تصنيعية تكفل لشعوبها الحصول على ما يحقّق لها الكفاية الذاتية في كل ما تحتاجه من وسائل العيش والتعامل، والمحافظة على مفهوم الحريَّة الصحيح؛ فلا تملك إنتاج الحديد وتصنيعه من الإبرة حتى السيارة والطيارة والتراكتور والدبابة ومختلف الأسلحة الدفاعية والهجومية عند الاقتضاء، ولا ما سوى ذلك من المواد التي تفتقر إلى تعاطيها جموع الإنسان في كل مكان من هذا الشرق الفسيح في طعامهم وشرابهم ولباسهم وفي مجالات الصحة والثقافة والتربية والأعلام والخدمات العامة وسواها، بل لا يسمح لها بالاتجاه إلى ذلك، فهل يمكن أن يقال إنَّ هذه الشعوب تعيش عيش الحريَّة بمفهومها الدقيق.

لقد كان أخطر ما كان يعانيه الإنسان العربي في جاهليته خضوعه للعقيدة الوثنية واسترساله في التأثر بأجوائها المختلفة التي أشرنا إلى

بعضها من قبل. ولذلك فإنَّه لم يكن بمقدوره الخروج من هذا السجن الكبير إلاَّ بثورة فكرية دينيَة واضحة المعالم تكسر له قيوده الثقيلة وتكشف عنه أسداف الظلام ليرى الحق أبلج واضحاً، ويتنفس هواء الحريَّة، وينطلق في حياته وهو مالك لكل ما آتاه الله من عوامل القوة والثقة بالنفس ولطاقاته الفكرية كاملة..

فضل عقيدة التوحيد:

وقد تحققت هذه الثورة البيضاء على يد الإسلام الذي أشرق أول إشعاع له من قمة حراء عندما تنزَّل الوحي الإلّهي على محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام وأعلن اصطفاء الله تعالى له وبعثته إلى الناس جميعاً مبشِّراً بوعد الله له بالدعم والعون وتحقيق الهداية إلى الحق والنصر، ومنذراً من عاقبة الإعراض عنه في الدنيا ثمَّ في الآخـــرة.

ومن غار حراء كان إعلان أول ركائز هذه الثورة، بل أوَّل ركائز الإصلاح الذي جاء يحمل رايته لتطوير المجتمع الإنساني ودفعه في مجالات التقدم والازدهار... وكانت هذه الركيزة أنَّه لا إلّه إلاَّ الله ولا معبود سواه وأنَّ محمداً هو رسول الله إلى العالمين ليبلغهم رسالة ربِّهم وليتلو عليهم آياته ويعلمهم ويزكيهم بعد ضلال مديد ورجس طويل.

ولقد قضى رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكَّة المكرَّمة يدعو قومه ويوجههم إلى رسالة ربه، ينفِّرهم من عبادة الأوثـان، والآلهة والأرباب المتفرقة ويحضهم على الإقبال على الله، على الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، والذي بيده الملك والخير وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيءٍ قدير. الله الكبير المتعال الذي خلق الموت والحياة والذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا تدركه الأبصار

وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير يعلم السر وأخفى بل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. . . ثلاث عشرة سنة من الاتصال والتوجيه والتربية لترسيخ هذه العقيدة فيمن اتَّبعوه، ولتحبيبها إلى كل الذين كانوا يلقونه ويسمعونه، لقي فيها ما لقي من قومه من العنت والمضايقة والأذى مع من آمن به مما حفلت به كتب السيرة، ويؤكد مدى ما يعانيه المصلحون في سبيل نشر الفكر الصالح وتثبيت الحق والخلق القويم، اضطر بعدها بإذن من ربه إلى الهجرة من مكة إلى المدينة بعد أن وجد فيها الجماعة التي تجاوبت مع دعوته ورسالته وألفى لديها المناخ الصالح الذي يؤمن لهما رسوخهما ونماءهما وقوتهما وانتشارهما.

رسالة التوحيد هي رسالة الله الأزلية:

ولقد أكَّد الله تعالى في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه العظيم للعرب من سكان مكة والمدينة وكل أطراف الجزيرة ثم للناس جميعاً أنَّ رسالة التوحيد هذه هي رسالة الله تعالى الأزلية التي بعث بها الرسل من قبل: يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[1] ويقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2] ويقول: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾[3].

ولقد كانت العبودية لله على مرِّ التاريخ موضع فخر واعتزاز كبار الصالحين والعالمين وفي مقدِّمتهم من اصطفاهم الله تعالى من خلقه

(١) الأنبياء/ ٢٥.

(٢) النحل/ ٣٦.

(٣) البقرة/ ٢١.

يقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيْمَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوْبَ أُوْلِي الأَيْدِي والأَبْصارِ، إنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[1]. ويقول: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيدِ إنَّهُ أوَّابٌ﴾[2] ويقول عن سليمان: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إنَّهُ أَوَّابٌ﴾[3] وعن أيوب: ﴿إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ﴾[4] وعن نوح ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾[5] وعن عيسى والملائكة: ﴿لَن يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُوْنَ وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إلَيْهِ جَمِيعاً﴾[6] ويقول عن سيدنا محمد ﷺ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾[7] ويقول فيه: ﴿فَأَوْحَى إلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[8].

وكذلك جميع الخلق، فهم في العبودية سواء. لأنَّه الذي خلقهم وسوَّاهم وأحسن صورهم وهو يقول فيهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إدّاً تَكَادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً أَن دَعَوْا لِلَّرحْمَنِ وَلَداً. وَمَا يَنْبَغِي لِلَّرحْمَنِ أَنِ يتَّخِذَ وَلَداً إنَّ كُلُّ مَن فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ إلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾[9]. ويقول:

---

(١) ص/ ٤٥ - ٤٧.
(٢) ص/ ١٧.
(٣) ص/ ٣٠.
(٤) ص/ ٤٤.
(٥) الإسراء/ ٣.
(٦) النساء/ ١٧٢.
(٧) الإسراء/ ١.
(٨) النجم/ ١٠.
(٩) مريم/ ٨٨ - ٩٣.

﴿قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فيما كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُوْنَ﴾[1] ويقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِيْنَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[2] .

عبودية الإنسان على كل حال:

على أنَّ الإنسان في كل حالاته قد يغفل عن الحقيقة الواقعة أحياناً فيخيل إليه وكأنَّه متحرِّر من العبودية، مع أنَّه في نفس الأمر لا يخلو منها في حال من الأحوال، فهو إذا لم يشأ أن يعترف بعبوديته لله اعترافاً ذاتياً فيه كل الاستسلام والخضوع والتعظيم، عبدٌ لأنَّه كائن حي ذو رغبات وحاجات وشهوات ومطامع. وإنَّ هذه الرغبات والحاجات والشهوات المطامع تستعبده من حيث لا يريد ولا يشعر في غالب الحالات. فقد يكون عبداً للمال، أو للجاه أو لمحابِّه المختلفة من النساء والعادات والمآكل والمشارب. وقد ورد في الصحيح عن النبي ﷺ أنَّه قال: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة وإذا شيك فانتقش إن أُعْطي رضي وإن منع سخط»[3] والنقش، إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش ما تخرج به الشوكة.

وقد قيل قديماً الطمع غُلٌّ في العنق وقيد في الرجل، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل. ومن طبيعة الإنسان أنَّه إذا رغب في شيء وتاقت نفسه إليه وطمع فيه تعلق به قلبه وتتبعه وصاراً فقيراً إليا

---

(١) الزمر/ ٤٦.
(٢) الزمر/ ٥٣.
(٣) رواه البخاري وابن ماجه عن ابن هريرة.

وإلى كل من يخيّل إليه أنّه قادر على أن يمكنه منه أو يحققه له وبذلك يكون له عبداً، حتى ينال منه ما يشتهي وما يريد.

ومن حرص الإسلام على تربية الإنسان تربية استقلالية حرَّة متصفة بالإباء والشمم والثقة بالذات بعد الثقة بالله تعالى، حصر عبودية الإنسان في الله وعلّمه أن يجعلها تدور في فلكه وحده فحسب، وأن يشعر في ذاته بالغنى والاكتفاء ليستوي مع سواه ولا ينزل معه إلى حدود العبودية والخضوع، لأنّه حينذاك يسقط في مفهوم الشرك بالله ويقع فيما يسيء إلى سلامة عقيدته وصفائها من شوائب الشرك والضلال.

التوجه بالسؤال إلى الله:

ومن هنا علمنا الإسلام أن نكرر في صلواتنا السؤال إلى الله متوجهين إليه بالثقة واليقين وألا نتوجه به إلى أحد من خلقه فنقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ونهانا في أحاديث كثيرة عن سؤال الآخرين فقال ﷺ: «من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً ـ أو خموشاً ـ أو كدوشاً ـ في وجهه»(١) وقال: «لا تحل المسألة إلاَّ لذي غُرْم مُفْظِع أو دمٍ مُوجع أو فقر مدقع»(٢) وقال: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطَوْه أو منعوه»(٣) وقال: «ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل، ولا مستشرف فخذه ومالاً فلا تتبعه نفسك»(٤). وقال: «من يستغن يغنه الله، ومن

(١) رواه الطبراني في الأوسط بمعناه عن جابر وقال المنذري لا بأس بإسناده.
(٢) رواه أبو داود والبيهقي عن أنس بن مالك.
(٣) رواه البخاري وابن ماجه عن الزبير بن العوام.
(٤) رواه البخاري ومسلم والنسائي عن عمر بن الخطاب.

يستعف يُعفَّه الله، ومن يتصبَّر يصبِّره الله وما أعطى أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»(١).

وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه بالاعتماد على النفس بعد حسن الاتكال على الله ويوصيهم بألا يسألوا الناس شيئاً، وقد ورد في «المسند» «أنَّ أبا بكر كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولني إياه. ويقول: «إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً».

وقد جاءت النصوص تؤكد على المؤمنين الالتزام بسؤال الخالق في أكثر من موضع. يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾(٢) ويقول: ﴿واسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهَ﴾(٣) ويقول: فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾(٤) وفي تقدم الظرف وهو «عند» إشعار بالاختصاص والحصر، ويؤكد ذلك قوله ﷺ لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»(٥).

العبودية لله:

ولهذا كان اقتضاء المنطق السليم والفكر الرشيد أن يعبد الإنسان ربه الذي خلقه وأحسن صورته ثمَّ هو يرعاه بالحفظ والرزق والهداية. ومن أجل هذا كانت ركيزة الإصلاح الأولى التي اعتمدها الإسلام هي

(١) في سنده انقطاع.
(٢) الشرح/ ٧ ـ ٨.
(٣) النساء/ ٣٢.
(٤) العنكبوت/ ١٧.
(٥) رواه الترمذي وأحمد الحاكم وهو مسند لغيره.

انتزاع الإنسان من بؤرة الجاهلية الجهلاء، وإخراجه من نية الشرك وضلاله المبين وتوجيهه إلى عبادة الحي القيوم، ثمَّ ترسيخ هذه العبادة في قلبه ونفسه.

العبادة أصل كل فلاح وكل عمل:

وقد اجتهد رسول الله ﷺ وهـو يبني مجتمعه الجديد في المدينة المنورة في تعزيز ظاهرة العبادة هذه، وتأكيد معانيها ومعالمها في كل شيء بحيث جعلها أصلاً لا يجوز في شكل من الأشكال نسيانه ولا الغفلة عنه. لأنها أصل تحرّر المؤمن من كل ما حوله من مغريات الدنيا ومشوقاتها. فكلما التصق العبد بربه وخلص اتجاهه إليه وقوي طمعه فيما عنده من فضل ورحمة ازدادت عبوديته له صفاء ونقاءً وقوة ومضاءً. ووهبته تحرراً مما سواه لأنَّه وجد كلّ حاجته عند الله، ويئس من أن تكون له عند غيره واغتنى قلبه عنه كلياً. وما أجمل قول من قال: «استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفْضِل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره». فعبودية العبد لربه كاملة عن يقين تخلى قلبه عن الطلب من سواه والاحتياج إلى من عداه. وما أجمل قوله ﷺ: «من أحبَّ لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[1] وكذلك قوله «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»[2] وقوله: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) أخرجه أحمد عن البراء والطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود وفي «الصغير» عن ابن مسعود.

بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[1].

وهكذا فقد جعل الإسلام عبادة الله أصلاً في حسن الصلة بالله، وأصلاً في حسن الصلة بالإنسان فرداً وجماعة. وأصلاً في بناء الجماعة والدفاع عنها وتعزيز وجودها وتوفير مؤسساتها وأصلاً في الحب والكره والرضى والسخط والعطاء والمنع وأصلاً في الرغبة في الحياة وتعاطى كل شؤونها.

ثمرة هذا المنهج:

ولقد كان من أولى ثمرات هذا الأصل العظيم أن تحرّر الإنسان المسلم في مدينة الرسول ﷺ من الأوثان والأصنام والأشباح والأرواح والسحر والشعوذة والأساطير والخرافات والجن والشياطين وألاعيب المنجمين وسخافات التطير والعيافة والكهانة وغير ذلك مما أثقل فكر الإنسان العربي قديماً وأزاغ قلبه عن سواء السبيل ووسمه بالضعف والانحلال والخزي والهوان والخسران المبين... وهو بهذا خرج من قمقم الوثنية الضاغط وكابوسه المهلك وآل إنساناً سوياً مُهَيّأً لأن ينشىء الحياة ويبني معالمها بعزم وقوة وإرادة صلبة لا تهون ولا تلين.

وسترى كيف أنَّ هذا الأصل ارتبط فيه كل إجراء إصلاحي اتخذه الإسلام في مجتمع المدينة وظلَّ وسيبقى القاعدة التي ينبني عليها عمل المسلم وقوله وسلوكه كله وكل تطور في شخصه فرداً كان أو جماعة أو غير ذلك.

---

(1) متفق عليه.

الفصل الثالث عشر

بناء المسجد

المسجد في المدينة:

عرفنا مما تقدم أنَّه لم يكن معروفاً في المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها أنَّه كان يوجد فيها بيت للعبادة يلتقي فيه أبناؤها من الأوسيين والخزرجيين على نسك واحدة وعبادة واحدة، بل الذي أشرنا إليه من قبل أنَّهم كانوا على العكس متفرقين في ذلك، يعظِّمون آلهتهم ويعبدونها كل في بيته ومستقره على طريقته وحسب مشيئته، فيحفظ لها كل واحد منهم صنماً أو وثناً يتجه إليه في خلواته ويمارس معه عبادته منفرداً ومستقلاً.

بيد أنَّه بعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، وتبعه على دينه فيها أكثر سكانها العرب من الأوس والخزرج، ونزل على أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، اتَّجه إلى بناء مسجده ومساكنه فأنجزها في أشهر معدودة.

بناء المسجد:

وقد روي أنَّه لما بركت ناقته قال: «هذا المنزل إن شاء الله» ثمَّ أخذ في النزول وقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وأنت خَيْرُ الْمُنْزِلِيْنَ﴾[1]. وكان نزوله ﷺ في مِرْبد ليتيمَيْن هما سهل وسُهيل ابنا رافع ابن أبي عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النَّجار. وكانا في حجر أسعد ابن زرارة[2]. وورد في البخاري أنَّ رسول الله كان يصلي حيث أدركته الصلاة. ويصلِّي في مرابض الغنم. قال ثمَّ إنَّه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ من بني النجار فجاؤا فقال: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا» فقالوا «لا والله لا نطلب ثمنه إلاَّ إلى الله». فقال أنس: فكان فيه ما أقول لكم. كانت فيه قبور المشركين. وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل. فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ثمَّ بالخرب فسوِّيت وبالنخل فقطع[3].. ولقد سام رسول ﷺ فيه فقال الغلامان: بل نهبه لك يا رسول الله!! فأبى حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير. وأمر أبا بكر أن يعطيهما ذلك[4] وقد ورد أنَّ الصحابي أسعد بن زرارة كان قد اتخذه مصلى قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة. فكان يصلي فيه بأصحابه ويجمِّع بهم الجمعة[5].

ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ باشر ببناء المسجد مع أصحابه، فكان ينقل معهم الحجارة بنفسه وجعل قبلته إلى بيت المقدس وجعل عمده

---

(١) المؤمنون/ ٢٩.

(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام الصالحي الشامي ٣/٤٨٥.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ٢/٣٠٣.

(٤) في الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢٣٩.

الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢٣٩.

الجذوع. وَسَقَفه بالجريد. وقيل له ألا نسقفه؟ فقال: «عريش كعريش موسى خشيبات وثمام. [وهو بيت ضعيف قصير] ألشأنُ أعجلُ من ذلك أما أرضه فقد بقيت مفروشة بالرمال والحصباء. وبنى بيوتاً إلى جنبه باللَّبن وسقَّفها بجذوع النخل والجريد[1].

ومن هذه الأخبار وبخاصة نزوله ﷺ بعد بروك ناقته قوله «هذا المنزل إن شاء الله» ثمَّ مبادرته لمساومة آل النجار في المربد، نستفيد بأنَّ بناء المسجد في المدينة لم يكن أمراً عفوياً، بل كان أمراً مدروساً يتشوق إليه الرسول ﷺ لاستكمال بنود برنامج موضوع وخطة معدَّة لبناء مجتمع مستوف لكل شرائط النجاح.

المسجد وصلته بالعبادة:

ومما لا يختلف فيه اثنان أنَّ المسجد هو مكان السجود. والسجود هو أبرز حالات التعبد لله العلي القدير. وقد ورد عنه ﷺ أنَّ العبد يكون في سجوده أقرب إلى الله منه في حالاته التعبدية الأخرى. ولم يشأ رسول الله ﷺ أن يترك أصحابه بعد اعتناقهم الإسلام أن يظلوا كما كانوا قبل الإسلام يمارسون عبادتهم كل على طريقته وحسب هواه وما يناسبه. فمثل هذه العبادة تخلو من كثير من المعاني التي فرضت العبادة من أجلها.

ذلك أنَّ من أهداف العبادة بعد أن تصل العبد بربِّه وتزيد من تعلقه به وذكره وتعظيمه وإكباره، أن تلين قلبه، وترهف حواسه ونوازعه الخيِّرة، وتوجهه لمحبة الآخرين والتعاون معهم تعاوناً بناءً يسخِّر أكثر طاقاته الفكرية والبدنية والمالية في خدمة صالح العامة وخير المجموع. ومثل

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢٤٠.

هذا الهدف لا يكون مضموناً بالنزوع الفردي والانعزالي كما كان حال العرب في الجاهلية في المدينة وغيرها من الجزيرة العربية. بل بتهيىء كل الظروف التي تدفع بالإنسان للقاء أخيه الإنسان ومحاورته والتشاور معه ومشاركته الفكر فيما ينفعهما ويصلح أمريهما ومجتمعهما.

ولقاء الإنسان لأخيه الإنسان ليس مضمون العاقبة دوماً بل كثيراً ما يكون في غير الظروف المحمودة. ولذلك فقد كان لا مناص من أن توجد له الأجواء الفاضلة والأحوال التي توحي بأرق المشاعر وأحلاها وأكثرها استعداداً للأخذ والعطاء في ظلال من الود والتحاب والإخاء.

وليس كالمسجد مكان يمكن أن تتوفر له الأجواء الطيبة التي تفوح منها نسائم التقارب والتعاطف دونما مقابل ومن غير ما حساب أو بحث عن الكسب المادي. فهو المكان المبارك الطاهر الذي ينسى فيه الإنسان دنياه وما فيها من إغراءات ومظاهر اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد ومعطيات الجاه وسعة السمعة وسمُوِّها، ويتجه بكليته إلى خالقه ومالك أنفاسه بخضوع وذلة وضراعة ليفوز برضاه وعفوه، ومثل هذه الحال عندما يصل إليها الإنسان يكون قد أحرز وصفاً ووضعاً فيه الكثير من الصفاء والنقاء ونبل الطويّة وخلوص النفس، ويكون قد سما إلى مستوى روحي رفيع لا يتيسّر له الوصول إليه في الأماكن الدنيوية الأخرى.

وشتان بين اللقاء الإنساني الذي يتم في المسجد بين الجموع البشرية، واللقاءات الأخرى التي تتم في النوادي والقاعات العامة والبرلمانات ومجالس الشورى وغيرها فذلك لقاء أحاطت به بركات السماء وشحنت في نفوس أفراده من داخل كل واحد منهم أحاسيس

ومشاعر هي على غير مثال تلك التي تكون في هذه الأماكن الدنيوية... ذلك لأنَّ المسجد في الأصل مرتبط بمفهوم العبادة التي يفرض فيها الإخلاص لله والانعتاق من علائق المادة والمصالح الجسدية والدنيوية والتطلع إلى ما بعد الحياة في تبتّل وحذر للآخرة ورجاء لرحمة الله، وهو من هذا المفهوم يعكس على نفوس كل الذين يحتويهم ويضمهم الكثير من هذه المعاني والصفات التي فيها كل التمجيد للإنسان وكل الدفع لعمل الخير وبذل العطاء في صالح المجموع.

المسجد والتوجيه الجماعي:

ولا يمكننا أن نغفل ونحن نتحدَّث عن مهمة المسجد ووظيفته أنه يلحظ حتى في العبادة ألاَّ تكون فردية وانعزالية لأنَّ مثل هذا الاتجاه في العبادة إذا استفحل وتمكن واستأصل في نفوس الأفراد يضعف النزوع الجماعي في الناس ويقوِّي عوامل التمزُّق والتشتت فيهم.

فضل صلاة الجماعة:

ومن أجل هذا فإنَّ الإسلام عندما دخل المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ أبى أن تستمر في المسلمين صفة العبادة التي كانت شائعة في سكان المدينة، والتي كانت تتم في البيوت فاقدة لروح الجماعة. ومن أجل هذا فرضت صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم والليلة وجاءت النصوص المختلفة تباركهما وتحسنها، وتعلي فضلها وتحض عليها، وتنفر من صلاة الفرد. وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وَحْده بخمسة وعشرين جزءاً» وفي رواية أخرى: «صلاة الجماعة تعدل خمساً وعشرين من صلاة الفذّ».

وروي أنَّ رسول الله ﷺ فقد ناساً في بعض الصلوات فقال: «لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثمَّ أُخالف إلى رجال يتخلَّفون عنها فآمر بهم فيُحَرِّقوا عليهم بِحُزَمِ الحطب بيوتهم. ولو علم أحدهم أنَّه يجد عظماً سميناً لشهدها يعني صلاة العشاء»(١).

ومثل هذا الحديث حدا ببعض المجتهدين من العلماء إلى أن يستدلوا به على أنَّ صلاة الجماعة فرض عين. وهو مـذهب عطاء والأوزاعي وأحمد وأبي ثور وابن خزيمة وداود. ولكن الجمهور يذهبون إلى القول بأنَّها ليست كذلك. ومنهم من يرى أنها سنة. ومنهم من يرى أنَّها فرض كفاية(٢). وسواء أكانت فرض عين أم فرض كفاية أم سنة، فإنَّها تُلفت إلى أهمية هذه الصلاة، وإلى حرص الإسلام على تعزيز التلاقي وعقد الجماعات بين المسلمين يومياً لما توفره لهم من بركة وخير.

وقد روى مسلم أيضاً عن أبي الأحوص عن عبدالله ابن مسعود قوله: «من سرَّه أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهنَّ، فإنَّه شرع لنبيِّكم ﷺ سنن الهدى، وإنهنَّ من سنن الهدى. ولو أنَّكم صلَّيتم في بيوتكم كما يصلِّي هذا المتخلِّف في بيته لتركتم سنَّة نبيِّكم. ولو تركتم سنة نبيِّكم لضللتم. وما من رجل يتطهَّر فيحسنُ الطُّهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلاَّ كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحط عنه بها سيِّئة، ولقد رأيتُنا وما يتخلَّف عنها إلاَّ منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يُؤتى به يُهادَى بين الرجلين حتى يقام في الصف».

---

(١) رواه مع الذي سبقه مسلم.
(٢) راجع النووي على مسلم ١٥٥/٥ طبعة دار الفكر بيروت.

وورد عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يزال العبد في صلاة ما كان في مصلَّاه ينتظر الصلاة وتقول الملائكة اللهم اغفر له اللهم ارحمه حتى ينصرف أَوْ يُحْدِث»[1] وروى أبو الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بَدْوٍ لا تقام فيهم الصلاة إلَّا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة؛ فإنَّما يأكل الذئب القاصية». وعن أُبَيِّ بن كعب قال: «صلَّى بنا رسول الله ﷺ يوماً الصبح فقال: «أشاهد فلان؟ قالوا: لا. قال: أشاهد فلان؟ قالوا: لا. قال إن هاتين الصلاتين أثقل الصلاة على المنافقين ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حَبْواً على الرُّكب. وإن الصف الأول على مثل صف الملائكة ولو علمتم ما فضيلته لَابْتَدَرْتُمُوه. وإنَّ صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاتَه مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل. وما أكثر فهو أحب إلى الله عزَّ وجل»[2].

وإنَّ هذه الأحاديث وسواها مما هو وارد في فضل صلاة الجماعة وهو كثير كثير ليؤكد المعنى الذي شئنا التوجيه إليه من حرص الإسلام على تدعيم النزوع الجماعي لدى الفرد المسلم وتوفير كل المناخات التي تساعده لعقد الجماعات في الصلاة والاستفادة منها في صالح العموم وصالح المجموع. لأن قيام الجماعة في أجواء الصلاة يبخِّر منها ريح السموم والشر ويزيل عوامل العبث والفساد ويمكن فيها نفحات السلام والرحمة والبر.

ومن هنا كان فضل المسجد في الإسلام وأثره الفعَّال في تكوين الجماعات الفاضلة وإيجاد المجتمعات الخيِّرة الصالحة. ومن أجل هذا

(١) النووي على مسلم ٥/١٥٦.
(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود ٢/٢٦٠.

كانت مبادرة النبي ﷺ في مطلع عهده في المدينة إلى بناء مسجده الشريف ثمَّ في حضّ الناس على إقامة الجماعات في الصلاة وبيان فضلها وأجرها وثوابها عند الله.

فالمسجد ملتقى الأبرار من عباد الله، ومجتمع الأخيار يفوح فيه عطر الإيمان وينتشر منه عبير الصلاح والتقوى، ويؤصل العبادة في كيان الجماعة وهيكل المجتمع ووحدة الأمة.

وإنَّه مع هذا كله مركز التوجيه والتعليم والتزكية وملتقى أفراد الشعب لتبادل الرأي ووسائل التعاون وخدمة الناس جميعاً ليكون الأحب والأقرب إلى الله والأنفع لعياله.

وهو ما فعله رسول الله ﷺ في المدينة وهو ما جناه أصحابه الصالحون فقد أنشأ من مسجده عباداً لا يجاريهم أحد من خلق الله في مستوى الصلاح والعطاء. وكوّن منهم أمة هي خير أمة أخرجَت للناس ومجتمعاً لن يحلم التاريخ على الدهر بقيام مثله... وفي مسجده هذا جمع من فرقتهم الوثنية ووحدهم وألَّف بفضل الله بين قلوبهم. وفيه عزَّز ما أضعفته وأغنى ما أفقرته. فكان المثابة التي تلقت فيه الجموع الإسلامية الأولى دروسها في أصول التنظيم والتربية والآداب العامة وخرجت منه لتلعب دورها البناء في خدمة الإنسان على الزمن فرداً وجماعة مسلماً وغير مسلم في كل حقل ومجال على قاعدة الإيمان بالله.

دعاء الرسول للمدينة وأهلها:

على أنَّه كان لا بدَّ لنا قبل قفل هذا الحديث من الإشارة إلى أنَّ من الأمور التي باركت قيام هذا المسجد وما رافقه أنَّه ما أن أذن الله

تعالى لرسوله الكريم بالهجرة من مكة إلى المدينة حتى بادر إلى وصفها لأصحابه تشجيعاً لهم على الهجرة إليها، بأنَّها دار أمان لهم وذلك بقوله: «إنَّ الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها».

ولقد كان مناخ المدينة في بداية الأمر يسبب لأبنائها قبل هجرة الرسول بعض الوباء ومنه الحمى. وقد أصيب بعض الصحابة لدى هجرتهم بها. وكان ممن مرض بها أبو بكر رضي الله عنه وعامر ابن فهيرة وبلال بن رباح حتى وصل بهم الحال إلى الهذيان من شدتها عليهم. ولكن رسول الله ﷺ دعا للمدينة فقال: «اللهم حبِّب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكَّة وأشد. وبارك لنا في مدِّها وصاعها وانقل وباءها إلى مهيعة»[1] وهو مكان في شمال المدينة، ومنه ميقات الحجيج من الشام. وقد استجاب الله تعالى لنبيِّه دعاءه الكريم فزال وباء الحمى من المدينة.

ولقد كرَّم الرسول المدينة ورفع مكانتها وجعلها حَرَماً من عَيْر إلى ثَوْر [اسم جبلين الأول بذي الحُلَيْفة مكان إحرام الحجاج من أهل المدينة أو الوافدين عليها من الشام وغيرها، والثاني شمال غرب جبل أحد] فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى فيها محدِثاً فَعَلَيْه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً. وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم..».

فضل الصلاة في مسجد الرسول:

وقد ورد عنه أيضاً أنه: حرَّم ما بين حرَّتَيْها، فمنع أن يقطع عضاها أو يقتل صيدها، وقال: «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. لا يدعها أحد رغبة عنها إلاَّ أبدل الله فيها من هو خير منه» وقد سمَّاها طيبة..

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/٣١٧.

وأخبر عنها بأنَّها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضَّة. وأخبر عن فضل الصلاة في مسجده فيها فقال: «إنَّها خَيرٌ من ألف صلاة، أو كألف صلاة فيما سواه من المساجد إلَّا أن يكون المسجد الحرام، والمسجد الأقصى» وقال أيضاً: «ما بين قبري وبيتي روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي».

ولعلَّ سبب اهتمام الرسول ﷺ بالمدينة ودعائه لها هو للفت الأنظار إلى فضلها وهي التي آوته يوم أخرجته قريش من مكة واحتضنته واحتضنت دعوته يوم تنكرت له ولها كل مناطق الجزيرة. واندفعت تنصره وتؤازره وتعزّز نشاطه ورسالتهِ يوم عزَّ النصير وندر المؤازر.

إنَّها البلد الطيب الذي جمع الله فيه كلمة المسلمين، وحشد عنده طاقاتهم واتَّخذه مثابة للرسالة والمؤمنين بها وأمنا يوم انبرى لهما صناديد قريش وذؤبان العرب لينالوا منهما وليحولوا دون انتشار ضياء الحق. فلماذا لا يوليها ما أولاها من الحب والتكريم ويلفت أنظار العالم والمؤمنين بالذات إلى فضلها ومكانتها؟! إنَّها في الحق الوطن الأم لكل مؤمن، يحن إليها مهما بعدت الشقة، ويأرز إليها كلما ألمت به جائحة، ليجد في مناخ ساكنها العظيم العزاء والعزم ومقوِّمات الانبعاث في متابعة العمل والجهاد ولنصرة الخير والتواصي بالحق والصبر..

الباب الثاني

١ ـ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.
٢ ـ موادعة اليهود.
٣ ـ ركائز أخرى في بناء المجتمع.
٤ ـ وسطية الإسلام.
٥ ـ شرعة الأذان.
٦ ـ التطوير والبناء لمجتمع المدينة بعد الهجرة.
٧ ـ تنظيم الأسرة.

الفصل الأوّل

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

هجرة الرسول تطلّع إلى الأفضل:

لم تكن هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة رحلة سياحة في الأرض يطلب فيها الاستجمام عَبْر تغيير المناخ، أو يسعى فيها إلى لقاءات يعقدها هنا وهناك مع فئام من الناس يستروح بها ويعزِّز نشاطه ويفيد منها بعض ما يعينه في تحمل مسؤولياته الكبرى. بل كانت تطلُّعاً إلى الأفضل، ونشداناً للوضع الأمثل الذي يخوله أن يمكِّن لدعوته في الأرض ويبني مجتمعه الإنساني النبيل.

لقد كان ﷺ قد لمس بيده وبكل إحساسه وفكره تمزّق العرب في الجاهلية إلى قبائل وعشائر وأفخاذ لا يجمعها جامع ولا يقارب بينها شيء سوى المادة والمصلحة وشؤون الحياة الدنيا. ورأى كيف أنَّ العربي الجاهلي قد فقد الكثير من الفضائل ومن مقوماته كإنسان رفيع المستوى، صالح لتكوين مجتمع كريم، وبناء حياة حضارية، وفقد في الأساس

الكثير من مفهوم التراحم والإخاء الإنسانيين اللذين بهما يقوم بناء المجتمعات ويتسامى صرح الحضارات. فإنَّ قيام مثل هذه الخصال في الإنسان فيه ضمان كبير لصون سمات إنسانيَّته النبيلة، بل وتحضير جيد لجعله إنساناً كريماً يجود إذا اقتضته الظروف بالسخاء وينجد عند كل طلب يصدر ممن يستحق منه النجدة.

حث المسلم على التجمل بالخصال الحميدة:

ومن أجل هذا جدّ الرسول الكريم في تعزيز شخصية الفرد المسلم وشحنها بأطيب الخصال والمحامد، وحذَّره من الجبن والبخل والقسوة وحب المال لذاته، وحثه على الكرم ومحبَّة الآخرين ونجدة الضعفاء منهم والفقراء، وعلى التعاون مع من حوله في خدمة القيم والفضائل من الحق والخير وتنشيط كل ما من شأنه تثبيت معاني الإخاء فيهم. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلا اقْتَحمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيْمَاً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيْنَاً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالْصَّبْرِ وَتَوَاصَوا بِالْمَرْحَمَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾[1] وقال: ﴿وَالَّذِيْنَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالإِيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُوْنَ فِي صُدُوْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوْتُوا وَيُؤْثِرُوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ﴾[2] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيْرٌ﴾[3]. وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوْا

---

(١) البلد/ ٨ ـ ١٨.

(٢) الحشر/ ٩.

(٣) الحجرات/ ١٣.

بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوْا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُوْنُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تلمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيْمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوْهُ واتَّقُوْا اللّهَ إِنَّ اللّهَ تَوَّابٌ رَحِيْمٌ﴾(١).

ولقد كانت للقرآن الكريم في ذلك أساليب متنوعة، منها ما كان يباشر به الحض أو النهي كما رأينا. ومنها ما كان يلجأ بها إلى التحذير المخيف لترقّ معه القلوب وتلين الحواشي والجنوب كما في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُوْنَ الْيَتِيْمَ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِيْنِ، وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَمّاً وتُحِبُّون الْمَالَ حُبّاً جَمّاً. كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً. وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسانُ وأَنَّىٰ لَهُ الْذِكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلاَ يُوْثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾(٢).

وبالرغم من تبرُّم العرب بهذا النهج الحديث لاغترارهم بكبريائهم واعتزازهم بعصبيَّتهم فقد كانت هذه الآيات تنال الكثير من قلوبهم فتلينها وتخضعها وتحملها على مطاوعة الرسول في كل أمر ونهي والاستجابة له في كل مطلب ودعاء.

---

(١) الحجرات/ ١٠ ـ ١٢.

(٢) الفجر/ ١٧ ـ ٢٦.

بادرة المؤاخاة بين المسلمين:

ولما نزل رسول الله ﷺ المدينة بعد هجرته إليها من مكة المكرَّمة، كان أمامه خوض مرحلة جديدة مؤهلة لقيام المجتمع الذي يتطلع إليه. ولذلك فقد كان عليه تحضير نفوس أتباعه من المهاجرين والأنصار وشحنهم بكل المعاني والصفات المناسبة لذلك، وإيجاد المناخات الملائمة اجتماعياً وسياسياً في داخل المدينة وما حولها.

ولقد شجَّعه على هذا التوجه ما رآه بالفعل من سكان المدينة المؤمنين من معاملة إخوانهم الذين هاجروا إليهم فراراً بدينهم ورغبة في متابعته الرسول الكريم في مهاجره الجديد حيث رحَّبوا بهم، وفتحوا لهم منازلهم وأنزلوهم فيها على الرحب والسعة، فنزل عمر بن الخطاب ومن معه على رفاعة بن عبد المنذر، ونزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع. ونزل طلحة بن عبيدالله على عمير بن معبد، ونزل سعد ابن أبي وقاص على سعد اليماني وكذلك غيرهم، وبقوا على ذلك زمناً حتى استمكنوا في الأرض وتدبروا شؤون معاشهم وابتنوا لهم بيوتاً يسكنونها مع أهاليهم وذراريهم.

صور من المؤاخاة:

أجل لقد شجعه ذلك فانتهج مع أتباعه خطوة عملية لم يشهد لها تاريخ الإنسانية مثيلاً قبل ذلك ولا بعده، ودعاهم إلى أن يتآخوا فقال لهم: «تآخوا في الله أخوين أخوين»[1] فتآخى حمزة عمه مع زيد بن حارثة. وجعفر ابن أبي طالب مع معاذ بن جبل. وأبو بكر مع خارجة بن زيد الخزرجي. وعمر بن الخطاب مع عتبان بن مالك

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/٣٢٤.

وأبو عبيدة مع سعد بن معاذ. وعبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع، والزبير بن العوام مع سلمة بن سلامة وعثمان بن عفان مع أوس بن ثابت بن المنذر وطلحة بن عبيدالله مع كعب بن مالك وسعد بن زيد مع أُبَيْ بن كعب ومصعب بن عمير مع أبي أيوب وأبو حذيفة بن عتبة مع عباد بن بشر وعمار مع حذيفة بن اليمان وهكذا.

ولقد وردت روايات أخرى في هذه المؤاخاة مخالفة لهذا الذي رويناه ولكنها على كل حال لا تخرج بكل تفاصيلها واختلافاتها عن الأصل القاطع بثبوت هذه المؤاخاة في مطلع عهد النبي ﷺ في المدينة بعد هجرته إليها.

بل إنَّ أرجح النصوص لتؤكد بأنَّ هذه المؤاخاة كانت بين المهاجرين والأنصار أولاً وكانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض ثانياً، وبين الأنصار بعضهم مع بعض ثالثاً أوْسهم مع خزرجهم[1] ليقضي الرسول ﷺ على النفرة السابقة بينهم بالألفة التي تجمع القلوب وتحبب النفوس.

بعض آثارها:

ولقد روى الإمام أحمد بسنده أنَّ عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة مهاجراً فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري. فقال له سعد: أي أخي!! أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شطر مالي فخذه. وتحتي امرأتان، فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك. دلُّوني على السوق. فدلُّوه على السوق فذهب فاشترى وباع فربح، فجاء بشيء من أقِط وسمن ثمَّ

(١) خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة ٦٦٣/٢.

لبث ما شاء الله أن يلبث فجاء وعليه ودع وزعفران، فقال رسـول الله ﷺ: «مَهْيَم»؟ فقال يا رسول الله تزوجت امرأة. قال ما أصدقتها؟ قال وزن نواة من ذهب. فقال: «أَوْلِم وَلَوْ بشاة» قال عبد الرحمن: «فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب ذهباً وفضة».

ولقد كان من قوّة هذه المؤاخاة وأثرها الجميل فيما أفاضته على المهاجرين أنَّ الإمام أحمد روى بسنده فقال: «قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مؤاساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير. لقد كَفَوْنا المؤونة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله!! قال: «لا!! ما أثنيتم عليهم ودعوتم لهم»[1] وأنَّ البخاري روى عن أبي هريرة: «قالت الأنصار للنبي ﷺ اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال عليه السلام لا، ويشركوكم في الثمرة قالوا سمعنا وأطعنا». وأنَّ النبي ﷺ جعل المهاجرين يعملون ليستفيد الأنصار منهم كما آوَوْهم ونصروهم فقد روى أنَّه ﷺ قال مخاطباً الأنصار: أموالنا بيننا قطائع. فقال رسول الله ﷺ أو غير ذلك!! قالوا وما زال رسول الله يثني عليهم حتى قال: هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر». أي تتركونهم يعملون معكم «ويكون الثمر بينهم قسمة عادلة للأرض حصتها وللعمل حصة»[2].

ولقد مكنت هذه الأخوّة العلاقة بين المهاجرين والأنصار وبين الأنصار بعضهم مع بعض من الأوسيين والخزرجيين فألّفت بين القوي والضعيف والشريف والمولى ومكّنت الصحبة بين المؤمنين على اختلاف

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/٣٢٨.
(٢) خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة/ ٦٦٧.

منازلهم بحيث لم يعد يتعالى مؤمن على مؤمن وبخاصة بعد أن آخى رسول الله ﷺ بين حمزة الشريف النسيب وزيد بن حارثة المولى الذي كان عبداً ثمَّ منَّ عليه رسول الله ﷺ بالعتق ورفع له مقامه بعد أن تبنَّاه. وظل بالنسبة إليه كذلك حتى حَرَّم الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾[1] كما آخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء الخزرجي وبين بلال وأبي رُوَيْحَة الخثعمي[2].

بل لقد ساعدت على تخفيف فعل العصبية القبلية إذا لم تمحها في الكثيرين من أفراد القبائل المختلفة الذين هاجروا مع النبي إلى المدينة وأفراد القرشيين الذين كانوا ينتمون إلى بيوت متنافسة وقاربت بينهم ببركاتها. وأدَّت دوراً إيجابياً بحمل الأنصاريين من أبناء الأوس والخزرج على نسيان عداواتهم التي كانت إلى زمن قريب مستعرة الأوار بينهم مستحكمة من نفوسهم.

لقد كان لهذه المؤاخاة هذه الآثار كلها، بالإضافة إلى أنَّها ذهبت قاعدة راسخة ترتكز عليها علاقات المؤمنين بعضهم مع بعض في أي زمن أو مكان كانوا. ولأي عرف أو جنس انتموا. لقد كانت العلاج الأفضل والبلسم الأحسن لصقل النفوس جميعها وتحريك كل عوامل التقارب والتواصل الكامنة فيهم لتعزيز أواصر الألفة والمحبة والتعاون، بحيث لا تضعف أمام صلة الدم، ولا أمام الأهواء ونزعات الأنانية ولا

---

(١) الأحزاب/ ٤ ـ ٥.

(٢) الروض الأنف للسهيلي ٢/ ١٨.

تترك أي مدخل لنزاع أو صراع يفتت قوى المسلمين ويصدع كيانهم.

وقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس وأبي مسلمة عن أبي أسيد مالك بن ربيعة، ومن حديث عبادة بن سهل عن أبي حميد عن النبي ﷺ أنَّ سعد بن عبادة قال يوماً: «ما أرى النبي ﷺ إلاَّ قد فضَّل علينا. فقيل: قد فضَّلكم على كثير. وقد زاد في حديث أبي حميد، قال أبو أسيد لسعد ابن عبادة: ألم تر أنَّ النبي ﷺ خيَّر الأنصار فجعلنا آخراً؟ فأدرك سعد النبي ﷺ فقال يا رسول الله: خيَّرت دور الأنصار فجعلتنا آخراً. قال: «أوليس بحسبكم أن تكونوا من الأخيار»[1] وذلك أنَّه تعالى قد أثبت الشرف لجميع الذين أسلموا من أهل المدينة وهم الأنصار، وأثبت لهم الرفعة في الدنيا والآخرة في قوله: ﴿وَالسَّابِقُوْنَ الأَوَّلُوْنَ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيها أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ﴾[2].

وقد كانوا كما قال العلماء ثلاث طبقات: طبقة المهاجرين، وطبقة الأولين من الأنصار الذين بايعوا النبي ﷺ عند العقبة في المرَّة الأولى سنة إحدى عشرة من البعثة، وكانوا سبعة، وفي المرة الثانية وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين. ثمَّ طبقه الذين اتبعوهم بإحسان وهم الذين تفيدنا هذه الآية بأنَّه تعالى قد رضي عنهم في إيمانهم وإسلامهم وقبل طاعتهم وغفر لهم سيئآتهم.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/٢٨١.

(٢) التوبة/ ١٠٠.

فعل الأنظمة والتشريع عند فقدان التآخي:

وما قيمة المجتمع أذا فقد أفراده مفهوم التآخي بينهم؟ بل وما أثر القوانين والأنظمة ومبادىء التشريع التي تهدف لإقامة العدالة بين الناس في المجتمع إذا قست قلوبهم وانعدمت فيها نسمات الأخوة؟

إنَّ قيمة المجتمعات في الأساس بما يكون بينها قائماً من أسباب التفاهم والتواصل والترابط كوحدة اللغة والجنس والدين والمكان والأخوة في الأصل. لأنَّ المجتمع هو في الحقيقة مجموع عائلات تترابط فيما بينها برباط الأخوة والنسب. وإنَّ سلطة الدولة مستمدة في الأساس من توافق هؤلاء وأولئك وتراضيهم. وأنى يكون التوافق والتراضي إذا لم يسبقهما في العمق تآخٍ عريق يدفع بهم إليهما.

ولقد لحظ الرسول ﷺ كل هذه المعاني وغيرها لدى إرساء القواعد الأولى لبناء مجتمعه الجديد ووضع أنظمته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية..

ولئن كان ﷺ قد أفلح في إحكام الروابط بين أفراد مجتمعه الجديد وفئاته على اختلاف مشاربهم، وجنى ثمارها بتعزيز وحدتها وقوتها ومنعتها وقدرتها الدفاعية والقتالية عند الاقتضاء فلأنَّه أحسن العمل في خطوته الأولى وأرسى فيهم أخوة الإسلام والإيمان...

فالأخوة بين أبناء المجتمع الواحد، والشعب الواحد والأمة الواحدة، ركن أوَّلي لمتانة نهضتهم وتماسك بنيانهم، وإن كان كمال هذا البنيان يفتقر إلى أركان أخرى وشروط وعوامل لا محيص عنها. وإنَّ سقوط الأمة وتهاتر بنيانها قد يكون في بعض مراحل حياتها حتى مع وجود أصول هذه الأخوة في أعماق نفوس أبنائها. بيد أنَّ ذلك يكون

بسبب تغلّف هذه الأخوة بكثير من العوامل المعاشية التي يسهو عنها الحكم في فترات عهده كاتباع الهوى وانتشار الجهالات وضعف الإيمان بضعف الممارسة والتطبيق، ولا يوليها ما تتطلّبه من حسن المعالجة لمحو آثارها. . . وإنَّه مع ذلك ما إن تكون الصحــوة ويعود الرشاد إلى العقول والهدى إلى القلوب حتى تنصقل هذه الأخوَّة وترسل إشعاعها من جديد في المجتمع وينبعث الوجود العام أكثر تماسكاً وأشد اتحاداً من ذي قبل.

صور من هذا الإخاء وأساليب تدعيمه:

ولذلك فقد استفاضت آيات الكتاب الكريم والأحاديث النبوية الشريفة في تعزيز هذا الإخاء وتدعيم عناصره وركائزه بين المؤمنين حتى رَوَت لنـا عنه كتب التاريخ والسير صوراً رائعة. بل وما يزال المجتمع الإسلامي بفضل الإيمان ينسج منها أماثيل فاضلة وسيبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها. . .

فقد اعتبر الإسلام كل مسلم مسؤولاً عن نفسه، بل ومسؤولاً عن مجتمعه في حدود قدرته وإمكاناته. ولذلك فقد أمره بأن يحسن حفظ أسرته، وهي المجتمع الصغير، وذلك بدقة الاختيار لهـا والإشراف عليها، بدءاً من اختيار الزوجة ثمَّ باتقان تربية ولده وإجادة توجيهه منذ نعومة أظفاره. بل وأمره فوق ذلك بأن يحسن إلى جواره ويوفر النصيحة الصادقة لمن حوله من إخوانه المؤمنين، وأن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر إذا توفَّرت له معطيات الأمـر والنهي، ومعطيـات النصح والإرشاد، ويقدم لهم ما يفيض عنه مما قد يحتاجون إليه من طعام وكسوة وشراب ومال. . . كل ذلك ليبقي معاني الأخوة حيَّة في نفسه، تخفق بالحنان والعطف والمودَّة والحب. وتدفع به دوماً إلى مزيد من الأفعال

التي تمكّن تواصله مع من هم حوله من إخوانه المؤمنين بما ينفعهم ويزيد قوّتهم ويعلي نسبة قدراتهم على العطاء ومواكبة تطلبات الحياة على اختلاف ظروفها.

نصوص من القرآن:

وهذا القرآن الكريم يقول للإنسان المؤمن: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيْمَ فَلاَ تَقْهَرْ وأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1] ويقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُوْنَ وَالَّذِيْنَ عَنْ اللَّغْو مُعْرِضُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ لِفُرُوْجِهِمْ حَافِظُوْنَ إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرَ مَلُوْمِيْنَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُوْنَ. وَالَّذِيْنَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُوْنَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُوْنَ الَّذِيْنَ يَرِثُوْنَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾[2] ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُوْنَ وَالَّذِيْنَ يُؤْتُوْنَ ما آتَوا وَقُلُوْبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُم إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُوْنَ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُوْنَ فِي الْخَيْرَاتِ وهُمْ لَهَا سَابِقُوْنَ﴾[3] ويقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُوْنُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاَسْمُ الْفُسُوْقُ بَعْدَ الإِيْمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اجْتَنِبُوْا

---

(١) الضحى/ ٩ ـ ١١.
(٢) المؤمنون ١ ـ ١١.
(٣) المؤمنون/ ٥٧ ـ ٦١.

كَثِيراً مِنَ الظَنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيْهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوْهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ يا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوْبَاً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ خَبِيْرٌ﴾[1].

بل إنَّ متابعة نقل النصوص التي تحمل في ثناياها توجيه المؤمنين إلى التمسك بمعاني الأخوة والأخذ بأسبابها والحرص على آدابها لهي أكثر من أن تدرج في هذا المجال، ويمكن القارىء مراجعة سورة النور مثلاً ليدرك ما فيها من مثل هذا التوجيه فكيف بما في السور الأخرى من بداية القرآن حتى نهايته؟!

نصوص من الحديث:

ولم يكن حديث الرسول ﷺ ولا سنته من فعل وتقرير بأقل عناية بهذا التوجيه من القرآن الكريم، ولا يمكن أن تكون كذلك لأنها في الحقيقة صِنْوُ القرآن الكريم ومرآته التي بها يعرف ومنها ينكشف وقد ورد في الحديث القدسي أنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة لمن يحاسبه من أبناء آدم: «يا ابن آدم مرضت فلم تَعُدْني. فيقول ابن آدم. يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! فيقول الله أما علمت أنَّ عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْه؟ أما إنَّك لو عُدْته لوجدتني عنده!! يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني! فيقول يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول الله أما علمت أنَّ عبدي فلاناً استطعمك فلم تطعمه؟! أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني!! فيقول: كيف أسقيك،

(١) الحجرات/ ١٠ ـ ١٣.

وأنت رب العالمين؟ فيقول استسقاك عبدي فلم تسقه. أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي».

وروي أنَّ عثمان بن مظعون دخل بجوار الوليد بن المغيرة، فلما رأى ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان، قال: «والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون البلاء والأذى في الله ما لا يعنيني، لَنَقْصٌ كبير في نفسي. فمشى إلى الوليد بن المغيرة وقال له: يا أبا عبد شمس، وَفَتْ ذِمَّتُك. وقد رددت إليك جوارك!! فقال له: يا ابن أخي! لعلَّه آذاك أحدٌ من قومي؟ فقال! لا، ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره».

وروي أنَّ أبا بكر رضي الله عنه تضايق كثيراً من المرتدين. فقرَّر ذات يوم الخروج بنفسه لقتالهم، فلما علم بذلك علي رضي الله عنه، جاءه وأخذ بزمام راحلته وقال له: أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد، شم سيفك لا تفجعنا بك وارجع إلى المدينة. والله لئن أُصبنا بك لا يكون بعدك نظام أبداً. ولقد كان هذا الموقف من الإمام علي رضي الله عنه في قمَّة الإخلاص الأخوي والإسلامي وذروة النصح المحب.

ولما دون أمير المؤمنين عمر الدواوين بالشام، وكان بلال قد خرج إلى الشام وأقام مجاهداً بها قال له عمر إلى من تجعل ديوانك؟ فقال مع أبي رويحك لا أفارقه أبداً للأخوة التي كان رسول الله ﷺ قد عقدها بينه وبيني فضم إليه.

وقد نقل المؤرخون أنَّه قد وقع يوم اليرموك صرعى كثيرون. وكان

منهم الحارث بن هشام، وعكرمة ابن أبي جهل وسهيل بن عمرو، فأتاهم السقاة بالماء لما سمعوهم يطلبونه فلما وصلوا به إلى عكرمة نظر إلى سهيل فرآه ينظر إليه فقال: ادفعوه إليه. فنظر سهيل إلى الحارث فرآه ينظر إليه فقال: ادفعوه إلى الحارث. ولكنهم ما إن وصلوا إلى الحارث حتى وجدوه قد فارق فلما رجعوا إلى سهيل وجدوه أيضاً قد فارق، ولما وصلوا إلى عكرمة وجدوه كذلك فارق الحياة».

وما أظن تعبيراً عن صدق الإخاء بين المسلمين أوضح من هذا الذي تصوّره لنا هذه الحادثة في تاريخ النضال الإسلامي الطويل.

ولما انتشر وباء الطاعون في عمواس أراد عمر بن الخطاب أن يستخرج منها أبا عبيدة وكان يحبُّه كثيراً. فكتب إليه «سلام عليك. أما بعد فقد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها. فعزمت عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا ألاّ تضعه من يدك حتى تقبل» فعرف أبو عبيدة ما أراد عمر، فكتب إليه: «يا أمير المؤمنين!! قد عرفت حاجتك إلي. وإني في جند المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم. فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه فخلِّني عزيمتك» فلما رأى عمر الكتاب بكى!! فقال الناس: يا أمير المؤمنين! أمات أبو عبيدة!؟ فقال: «لا، وكأنْ قد» وفعلاً لقد مات أبو عبيدة بطاعون عمواس سنة ثمان عشرة للهجرة»[1].

ولقد روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنَّها كانت صائمة ولم يكن عندها سوى قرص من الشعير فجاءها سائل، فقالت لبريرة: ادفعي إليه ما عندك. فقالت: ليس إلاّ ما ستفطرين عليه!! فقالت لها: إدفعيه

---

(١) بين العقيدة والقيادة اللواء محمود شيت خطاب/ ١٦٠ ـ ٢٤٥.

إليه، ولعلَّه أحوج إليه الآن. ولما جاء المغرب أهدى إليهم رجل شاة بقرامها، وهو ما كانت العرب تفعله إذا أرادوا شواء شاة طلوها من الخارج بالعجيين حفظاً لها من رماد الجمر. فقالت لبريدة كلي هذا خيرٌ من قرصك»[1].

وهذه القصة والتي سبقها وكثير غيرها في قصص التاريخ الإسلامي ونوادره تدل كلها على ما تركته التربية الإسلامية الموجهة من القرآن الكريم والسنَّة المطهَّرة من أثر محمود في تطبيع نفوس المؤمنين وتأديبهم وشحن أفكارهم بمعاني الأخوة المخلصة، وما أوجدته فيهم من تهيؤ لحمل مسؤولية الحياة الجماعية بوعي وصدق وشجاعة وتضحية عزّ نظيرها في تاريخ الإنسان القديم والحديث.

ولقد كان من أفضال زرع هذه الأخوة في نفوسهم أن سمت بها كل السمو ورقَّت كل الرقة وصفت كل الصفاء من ملابسات الغش والنفاق والميل إلى الشر والفساد، ومالت كل الميل إلى البرِّ والتقوى والعمل الصالح. روى الزهري عن أنس قال: «كنَّا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنَّة» فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد علق نعليه بيده الشمال. فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى. فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام رسول الله ﷺ تبع عبدالله بن عمرو بن العاص الرجل، فقال: «إني لاحَيْت أبي فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثاً، فإنْ رأيت أن تُؤويني إليك حتى تمضي فعلت.. قال: نعم.. قال

(١) أضواء البيان للجكني الشنقيطي. ٧٢/٨.

أنس: فكان عبدالله يحدِّث أنَّه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنَّه إذا تعار ـ تقلب على فراشه ـ ذكر الله وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر فقال عبدالله: غير أني لم أسمعه يقول إلَّا خيراً. فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أن أحتقر عمله، قلت يا عبدالله: لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنَّة» فطلعت أنت الثلاث المرات. فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي بك، فلم أرك تعمل كبير عمل. فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلَّا ما رأيت! فلما ولَّيت دعاني فقال: ما هو إلَّا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًّا ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه»[1].

تلك بعض آثار الإخاء الذي اعتمده الرسول ﷺ كركيزة أساسية في بناء مجتمعه الإسلامي الحديث فكان أروع بادرة تأسيسية اجتماعية وسياسية سنها الإسلام في تاريخ بناء الأمم، وكان نعمة فائضة البركة ساقها الله إلى المسلمين ومَنَّ عليهم بها فقال: «وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّه عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً». إخواناً في العقيدة التي لا تفرق الناس إلى طبقات وأجناس وألوان وأصناف بل تدعو إلى أخوة أصولها وحدودها المشاركة في الإنسانية والمشاركة في الإيمان بالله الواحد الذي له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. أخوة تدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وتحاور الناس بالتي هي أحسن حتى مع المعتدين لأنَّ أبناءها لا يحاربون للفتح ولا للسلب والنهب ولا للقهر والإذلال، بل للدفاع عن الذات والدفاع عن

(١) السيرة النبوية ابن كثير ٦/٦٠٦.

القيم والفضائل وليتعلم الناس الخير ويلتزموا سبيل الرشد. . .

عمق هذه الأخوَّة في أيامها الأولى:

على أننا لا يسعنا أن نقفل الحديث عن هذه الأخوَّة وظاهرتها العجيبة في تاريخ إنشاء الأمم قبل أن نورد ما يؤكد أنَّ طليعة الأيام التي أنشأ فيها الرسول ﷺ هذه الأخوَّة بين المؤمنين تثبت أنَّها كانت في غاية المتانـة والمَنَعَة، حتى أنها رسخت أيضاً على أسس مادية، وترتب عليها حكم شرعي واستمرت كذلك حتى كانت وقعة بدر الكبرى.

إنَّ لهذه المَنَعَة في أيام الإسلام الأولى ما يبرِّره وبخاصة وأنَّ الرسول ﷺ ينشىء مجتمعه من مجموعة نخر في أفرادها سوس العداوة والحسد والتنافس والتفاخر. فلا بدَّ من أن تكون البداية شديدة وحازمة وراسخة حتى تنفي كل دخل وفساد. ولا بدَّ من اتخاذ كل الإجراءات التي تحكم الرباط بين هؤلاء وتزيد في عوامل الالتحام والتعاون.

ومن أجل ذلك ورد أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل في الأيام الأولى، حق الميراث منوطاً بهذا التآخي، دون حقوق القرابة والرحم. وقد نقل ابن سعد في الطبقات أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على الحق والمؤاساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام. . فلما كانت وقعة بدر أنزل الله تعالى: ﴿ وَأُولُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] فنسخت هذه الآية هذا التوارث في المؤاخاة ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه»[2].

---

(١) الأنفال ٧٥.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢٣٨ بتصرف.

وهكذا كان توجه الإسلام العظيم في بداية إقامة مبدأ المؤاخاة بين المسلمين؛ بين المهاجرين بعضهم مع بعض في مكة أولاً ثمَّ بينهم وبين الأنصار في المدينة[1]. ثمَّ جعلها قاعدة ثابتة على الدهر بين المسلمين كافة حتى تقوم الساعة وألزمهم بمقتضياتها الدينية والاجتماعية والسياسية . . .

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١٩١/٧.

الفصل الثاني

موادعة اليهود

وجود اليهود في المدينة:

عرفنا مما سبق أنَّه لم يكن سكان المدينة مقصورين على العرب وبالذات على الأوس والخزرج. بل كان معهم فيها من يشاطرهم نعمها ويقاسمهم معاشها وهم يهود بني النضير وقريظة وقينقاع.

خطر اليهود:

وإذا كان رسول الله ﷺ قد وفَّق في نزع فتيل العداوة والخصام من بين صفوف العرب المؤمنين ثمَّ في تثبيت المؤاخاة بينهم، فقد أحسن إلى حدٍّ بعيد، ولكنه مع ذلك يبقى معرضاً لاحتمالات فتن تثيرها عليه جموع اليهود الذين لهم وجود متمكن في أطراف المدينة.

ومن أجل ذلك كان لا مفرَّ له من الاتجاه نحو عمل ما يساعده على ضمان الأمان ولو إلى فترة من الزمن من تآمر قبائل اليهود أو بعضها عليه.

وكان لا بدَّ من التفكير بإنشاء عقد موادعة وأمان معهم يلجم نوازع الشر فيهم.

محاورة اليهود:

ولقد كان الرسول ﷺ يعرف ما لليهود من وجود وخطر في المدينة ويدرك مدى تأثيرهم على حياتها الاجتماعية والاقتصادية بل والسياسية، ويعلم أن أي اضطراب يثور في أوساط العامة سينعكس أثره على مجموعة المؤمنين وبالتالي على حركة الدعوة الناشئة. فلا جرم أن الناس فيها إما مؤمنون وإما كافرون رافضون معاندون ومعادون أو معاهدون مسالمون.

وإذا كان الرسول ﷺ قد أسس بدعوته، الأخوة بين أتباعه المؤمنين وجعل السلم بينهم حتميًّا وواجباً على مدى الأزمان لا ينقضه إلَّا كافرٌ أو مرتدٌ أو ظالم وذلك بمقتضى مفهوم الأخوة الشامل، فلقد كان لا مناص أمامه ﷺ من محاورة جواره اليهود ليرى ما سيقعون عليه من خيار في تعاملهم معه، بل ليعرض عليهم فكرة الموادعة والأمان فيما بينهم وبينه.

ولقد اجتهد ﷺ في بيان فضل هذه الموادعة لليهود وما ستوفِّره لهم وله من أمان، وما ستبعده عنهم من صراع قد لا يكون في صالحهم ولا في صالحه حتى طوق أي نزوع منهم للحرب أو للدس وقبلوا بعرضه.

فلما كانت منهم الموافقة جمعهم واتفق معهم على الموادعة بموجب كتاب وادعهم فيه وعاهدهم وأقرَّهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم، وجعل على المسلمين نفقتهم، وعلى اليهود نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب المتعاهدين في الكتاب. وأن بينهم النصح والبر دون الإثم والنصر للمظلوم. وأن يثرب حرام جوفها.

وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأن أي حدث يكون بينهم جميعاً، أو اشتجار يخاف فساده، فإنَّ مردُّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأنّه لا تجار قريش ولا من ناصرها[1].

وقد استنفدت المساعي حتى ضمنت هذه النتيجة فترة من الزمن تمكن فيها الرسول ﷺ من توثيق صلاته بهم. قال محمد حسين هيكل: إنّـه «بلغ من ذلك أن كانت قبلته في الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم ومثابة بني إسرائيل جميعاً... كما أن سيرته وعظيم تواضعه وجميل عطفه وحسن وفائه وفيض برِّه بالفقير والبائس والمحروم، وما أورثه ذلك من قوَّة السلطان على أهل يثرب. كل ذلك وصل بالأمر بينه وبينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف وتقرير لحريَّة الاعتقاد. معاهدة هي في اعتقادنا من الوثائق السياسية الجديرة بالإعجاب على مرِّ التاريخ»[2].

وبخطوة الموادعة هذه مع جواره اليهود في المدينة، أجهز الرسول ﷺ ولو بصورة مؤقتة على أي احتمال يكون لنشوء اضطراب بين أبناء المدينة جميعاً، بين المسلمين بعضهم مع بعض أو بينهم وبين اليهود من طرف آخر، وضمن الأمان والسلام في ربوع مجتمعه الجديد واطمأنَّ إلى نجاح خطته التي كان يهدف بها إلى الوصول لتنقية كل الأجواء المحيطة بمناخ دعوته من رياح السموم والعواصف المزعجة لتنطلق دونما عائق أو مثبط ظاهر. بل ليحمي ظهره وجوانبه ويأمن من أيِّ انقضاض يكون عليه من الداخل، في الوقت الذي يتطلب منه ظرفه الجديد أن يكون على أُهْبة الاستعداد لأي هجوم عدواني مفاجىء يكون

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣٢٢/٢.

(٢) حياة محمد لمحمد حسين هيكل/ ٢٣٨.

عليه من أعدائه اللدودين؛ من قريش ومن كان يجاريها في حقدها ولردها عليه وعلى رسالته.

وبهذا فقد قام لأول مرة في تاريخ المدينة مجتمع آمن مترابط من الناحية السياسية والاجتماعية على الأقل، يتعامل أبناؤه من خلال مفاهيم جديدة في التناصر والتفاهم والتعاون والبر وحسن الجوار والعطف على الفقير والبائس المحروم والدفاع عن بلدهم دفاعاً موحداً.

القائد المفرد:

وظهر لأول مرة في تاريخ هذه المدينة العريقة التفاف سكانها على اختلاف عقائدهم وأهوائهم وأغراضهم حول رجل واحد، إمَّا بدافع الإيمان به ومحبته والحرص على طاعة أوامره والموت في سبيله، أو بدافع الارتباط معه ببنود المعاهدة التي أصبح عليهم الالتزام بها ولو لمرحلة زمنية مخصوصة..

بل إنه لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية يظهر رجل تتوفر فيه كل مقوِّمات القيادة والريادة. فقد ظهر محمد ﷺ في مكة ولبث فيها ثلاث عشرة سنة يدعو الناس فيها إلى عبادة الله الواحد ونبذ الأوثان والأصنام وكل مظاهر الشرك بالله، ثمَّ هاجر بعد صبر طويل ومصابرة على الدعوة والتوجيه دون أن يلقى فيها كثير استجابة، إلى المدينة حيث تمكن من تكوين نواة الأمة الواحدة بمن توفر له من سكانها الذين آمنوا به ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه. ثمَّ أخذ يتعهدها ويعــزز كيانها بما كان ينشره فيها من علم وتوجيه ويقوم به من تثقيف وتربية وإعداد حتى نَمَتْ واستغلظت واستوت على سوقها.

ولم يكن محمد ﷺ قائداً ذا مثيل، لا في العهود التي سبقته ولا

في التي لحقت به. فهو ﷺ فريد عصره ودهره كله في الدنيا كلها في نبله وشرف مقصده ومستوى علمه وأدبه وخلقه وحكمته وحسن سيرته وسياسته وقوة شخصيته. ولذلك كان التفاف المؤمنين به عظيماً وعجيباً حتى قال فيه عروة بن مسعود، بعد عودته من سفارته لقريش يوم الحديبية: «يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه. وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه؛ لا يتوضأ إلاَّ ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيءٌ إلاَّ أخذوه، وإنَّهم لن يسلموه لشيء أبداً فَرَوْا رأيكم»(١).

ولذلك فقد أصبح محمد ﷺ القدوة والمثال لكل المؤمنين من حوله. ولكل المنصفين على الدهر ممن يقرءون له وعنه. رغب عن الدنيا في سبيل نشر دعوته، وللتفرُّغ لربه ولإخراج الناس من ظلمات الجهالة والضلالة إلى نور العلم وهدى الإيمان. فعاش صابراً ومناضلاً ومجاهداً وضحَّى بكل ما يملك ليفوز بأمرين اثنين: رضا ربه أولاً ثمَّ هداية الناس إلى عبادة الله الواحد القهار وتوجيههم ليسلكوا في الحياة سبيل التفاهم والتعاون والتحاب في ظلال تقوى الله ثانياً.

مع هذه القيادة الرائدة الحادبة، وجد سكان المدينة ما كانوا ينشدونه، وتحقق لهم ما كانوا يتطلعون إليه، فالتقوا على الإيمان بالله وتقواه وعلى محبة بعضهم لبعض فكانوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسهر. وبتوجيهه وإرشاده تبدلت معالم حياتهم فانقلبت فرقتهم إلى وحدة وضلالهم إلى هدى وخصومتهم إلى أخوة وضعفهم إلى قوة وعزَّة ومجد..

---

(١) حياة محمد لمحمد حسين هيكل ٣٧٨. وعيون الأثر لابن سيد الناس ١٥٣/٢.

الفصل الثالث

ركائز أخرى في بناء المجتمع

تذكير ببعض خصال العرب:

لقد كان غالب العرب في الجاهلية أهل كرّ وفر وقتال وطعان وغزو وسلب وانتهاب. وكذلك كان شأن عرب المدينة لا يختلفون في شيء كثير عما هو حال أهل الجزيرة قبل أن يشرفها الرسول ﷺ بالهجرة إليها؛ لا يأمن بعضهم لبعض، ولا تخلو أيامهم من البغي والشر والعدوان.. فكانت كلها كما سبق وبيّنا مستهلكة بالنزاع والخلاف والثأر وفعل الجهالات.

الإيمان التزام:

ولما جاءهم الرسول ﷺ وزرع في قلوبهم الإيمان بالله وتوحيده توحيداً خالصاً، وملأها مهابة له وخوفاً وخشوعاً له وحرصاً على العمل بما يرضيه، أفهمهم أن من لوازم هذا الإيمان المخلص أن يحب أحدهم

لأخيه ما يحب لنفسه وأن يتجمل بالرحمة ويرحـم من في الأرض ليرحمه من في السماء.

ولا غرو، فالإيمان التزام، من أولى ثماره الطاعة لله دونما شك أو تردد. والطاعة له مفتاح البر وجالب الخير. ولذلك فقد كان هذا الإيمان على مؤمني المدينة ثمَّ على كل المؤمنين مدخلاً فسيحاً لجميع الفضائل التي تزدحم في نفس المؤمن وذاته فتجعله مجبولاً بها من رأسه حتى أخمص قدميه وترقى به لمصاف الصدِّيقين والمقرَّبين والأبرار، فينبذ كل معاني وصفات الشر من ذاته كلما لوّحت له وحاولت أن تغمز منه ليحلَّ محلَّها كل صفات الخير والبر من الرحمة والمحبة والعدل والكرم والنجدة والحلم والتضحية وغيرها. وبذلك زكت نفوس أولئك المؤمنين لأنَّهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه وطابت أساريرهم وصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدً أَبَدًا﴾(1).

السلام شعار الإسلام والمسلم:

ولقد كان من أبرز آثار هذا الإيمان العظيم بالله الواحد القهار رفع شعار جديد لم تعرفه الجزيرة من قبل، فيه عصمة المجتمعات البشرية من أن تنقلب مجتمعات غاب تفشو فيها نوازع الشر والبغي والظلم، وركيزة هامة لتعزيز عامل التعاون فيما بين الناس لتتقارب مشاربهم وتتلاقى أفكارهم وتتفاهم نفوسهم وتغشاها مظاهر الود والحب... إنَّه شعار السلام والأمان. قال عبدالله بن سلام: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ!! قال: فجئت في

---

(1) النور/ 21.

الناس لأنظر إليه. قال: فلما رأيت وجه الرسول الله ﷺ، إذا وجهه ليس بوجه كذاب. قال فكان أول شيء سمعته يتكلم به أن قال: «يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلُّوا والناس نيام وادخلوا الجنَّة بسلام»(١).

القرآن والسنة والسلام:

ولقد أبرز القرآن الكريم هذا الشعار وجعله أساساً في التعامل بين الناس فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ﴾(٢). وقال: ﴿فإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةٍ﴾(٣) أي مضاعفة الثواب. وقد روى حميد عن أنس قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي في شيء فعلته، لم فعلته؟ ولا قال لي في شيء تركته لم تركته؟ وكنت واقفاً على رأس النبي أصب الماء على يديه فرفع رأسه إلي وقال: «ألا اعلمك ثلاث خصال تنتفع بهنَّ؟ قلت بأبي وأمي أنت يا رسول الله!! بلى. فقال: «من لقيت من أمتي فسلِّم عليهم يطل عمرك، وإذا دخلت بيتاً فسلم عليهم يكثر خير بيتك، وصلِّ صلاة الضحى فإنَّها صلاة الأوَّابين»(٤).

لقد كان مجتمع المدينة مؤلفاً من بطون متنافرة رغم أصولها المتقاربة، يحكمها التحاسد والتنافس والتباغض، فكان لا بدَّ من بعث الكثير من الروابط النفسيَّة التي تشد بعضهم إلى بعض وتجعلهم كالجسد

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٣٥/١.

(٢) النور/ ٢٧.

(٣) النور/ ٦١.

(٤) الفخر الرازي ٣٨/٢٤ طبعة دار الفكر في بيروت.

الواحد والبنيان المتماسك، وكان في رأس هذه الروابط شعار السلام. هذا الشعار الذي قال فيه الرسول ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: «ألا أدلكم على ما تحابُّون به؟ افشوا السلام بينكم».

وقد قال النووي في فضل تسليم المسلم على من لم يعرف «فيه إخلاص العمل لله تعالى، واستعمال التواضع. وإفشاء السلام الذي هو شعار هذه الأمَّة». وقال ابن بطال «في مشروعية السلام على غير معروف استفتاح المخاطبة للتأنيس ليكون المؤمنون كلهم إخوة فلا يستوحش أحد من أحد» ومن هنا كان من أفضل الأعمال في السلام السلام على من عرفت ومن لم تعرف.

طريقة السلام في الجاهلية:

ويظهر أنَّه كان شائعاً بين الناس من سكان المدينة في الجاهلية وقبل أن يشرق عليها ضياء الإسلام بدخول النبي ﷺ إليها، أن يسلم الواحد منهم على الآخر بالإشارة باليد أو بالرأس، كما كان اليهود يسلم بعضهم على بعض، فلما رأى الرسول ﷺ ذلك منهم نَكِرَه عليهم ونهاهم عنه وقال: «لا تسلموا تسليم اليهود، فإن تسليمهم بالأكف»[1].

الإسلام والسلام:

ولقد اختار الإسلام شعار السلام لأتباعه ليتبادلوا به التحية عوضاً عن إشارة اليد أو الرأس أو سوى ذلك ليكون منسجماً مع منهجه العام وخطه الجوهري. فهو في الأساس دعوة إلى الإيمان بالله والخضوع له والاستسلام لقضائه وقدره، وطاعة لأمره ونهيه والتزام بشريعته ونظامه.

---

(١) سبل السلام للصنعاني ٢/٢٠٨ طبعة دار الفكر.

وكل هذا يدفع بالمسلم دفعاً ليكون في جو الإحسان والسلام والبر.

وما اتخاذ شعار السلام إلاَّ للدلالة على مضمون الفكر الإسلامي وجوهر دعوته وهما اللذان يتضحان في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى ٱللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَلاَ تَسْتَوِي ٱلحَسَنَةُ وَلاَ ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاْوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيْمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ٱلَّذِيْنَ صَبَرُوْا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُوْ حَظٍّ عَظِيْمٌ ﴾.

ومثل هذا الشعار عندما يطالع به أي إنسان أو مجموع من الناس يستشعر براحة تغمر ذاته، وطمأنينة تحيط به، فلا يسعه إلاَّ أن يبادر إلى التعبير عما يشابهه ويعادله وما أجمل السلام عندما يتصدَّى للسلام. وما أحوجنا دوماً لأن نختار مثل هذا التصدي في مبادراتنا المعاشية المختلفة.

ولما كانت الطاعة من أعظم ميزات المجتمع الإسلامي الناهض، فقد كان كل عضو فيه يسارع إلى تطبيق أوامر الله وأوامر رسوله فيما يخص دينه أو دنياه، فانعكس ذلك على حياته كفرد، طمأنينة وسعادة وراحة. وبعد أن كان المجتمع العربي في المدينة لا يكاد يلتقي قبل الهجرة إلاَّ في الملمات الكبيرة والظروف الصعبة. ويكون لقاؤه على خطر التخاصم والتعادي، فقد صار بعد الهجرة ودخوله في الإسلام مفروضاً عليه وبأمر من الله ثمَّ من القائد المفرد محمد ﷺ أن يجتمع في كل يوم خمس مرات، على عبادة الله وتعظيمه، وإفراده بالإجلال والخضوع، وعلى المحبة والسلام والتصافي والمودة، يتدبَّرون أمورهم ويتذاكرون في شؤونهم العام الطارئة في كل آن من آناء الليل وأطراف النهار.

المجتمع بعد الهجرة:

لقد صار المجتمع بعد الهجرة مجتمع سلام ومودَّة ورحمة وعدل وتعاون وتكافل. لا مجتمع بغي وعدوان وظلم كما كان. وصار الناس فيه أخوة يحرم عليهم التظالم والتقاتل، بل والتخاصم والتنازع. مدعوّين جميعاً إلى التواصل والتراحم والله تعالى يدعوهم جميعاً ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوْا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1]. والناس ما خلقهم الله لينال بعضهم من بعض ويعدو بعضهم على بعض. بل خلقهم ليتعارفوا ويتعاونوا ويتحابوا يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوْباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

وإذا كان يجوز في عرف أفراد مجتمع الكافرين أن يسخر بعضهم من بعض ويؤذي بعضهم بعضاً ويغمز بعضهم من بعض، فإنَّ مجتمع المسلمين يرفض ذلك ويحرمه على أفراده. بل يدعوهم إلى نقيضه، ويكرِّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان والإثم والبغي والفحشاء والمنكر. يقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُوْنَ مِنَ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَالَّذِيْنَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[3] ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِيْنَ آمَنُوا يَضْحَكُوْنَ وإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُوْنَ﴾[4]. وذلك لأنَّهم فهموا الحياة والقيم محصورة في المادة وما يتفرَّع عنها من ذهب وفضة وجواهر ثمينة ودور وقصور ومسارح ومرابع وأجسام ونساء وأولاد وقوى بدنية

---

(١) البقرة/ ٢٠٨.

(٢) الحجرات/ ١٣.

(٣) البقرة/ ٢١٢.

(٤) المطففين/ ٢٠ ـ ٣٠.

وعديّه، وغفلوا عن غير هذا مما خلق الله، ومما هو أجدر بالفهم والتقدير والذكر والاعتبار. غفلوا عن معاني الخير والحق والفضيلة، وغفلوا عن صفات النبل والشرف ومبادىء الإيمان بالله الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم والذي تعنو له الجباه وتخضع له الرؤوس والقوى كلها، ما ظهر منها وما بطن. وما قوة الناس وأموال الناس وأعدادهم ومظاهر الجاه فيهم إلاّ عالة عليه، ومن مدده وعطائه، إذا شاء أبقاها وإذا شاء أزالها وأعدمها.. يقول تعالى: ﴿اعْلَمُوْا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِيْنَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ في الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُوْنُ حُطَاماً﴾(٥) ثمَّ يحكم بأنَّ التنافس والتسابق هو بالطاعات والمبرَّات وفعل الفضائل والخيرات فيتابع ويقول: ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيْدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَواةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُوْرِ، سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٦).

استواء الناس أمام الله:

ومن هنا كان الناس في الإسلام أمام الله سواء، وكان أكرمهم عنده أتقاهم وأبرّهم بالناس وأكثر حدباً عليهم وتواضعاً لهم وتعاوناً معهم. ومن هنا كان مفهوم السلام هو الأكثر بركة والأكثر خيراً. وهو الذي ينبغي أن يؤخذ به ويعمل له ويتفانى في سبيل تمكينه من قلوب الناس ومجتمعاتهم.

---

(١) الحديد/ ٢٠.

(٢) الحديد/ ٢١.

ومن أجل هذا أيضاً كان الإسلام في جميع أدواره بين يدي العارفين به والمتفهمين لجوهر رسالته لا يعوّل متطلعاً على القوة ولا على السيف، بقدر ما يُعَوِّل على الحجة الدامغة والبرهان والكلمة الطيبة والحكمة الرشيدة. وتاريخ انطلاق الدعوة وانتشارها ناصع وكاشف في أن هذا الانتشار كان في أضعف أيام الإسلام بل وحتى في أيام تراجعه العسكري ليس أقل منه في أيام قوّته، يؤيد هذا ما قالـه السير توماس أرنولد في كتابه: «انتشار الإسلام» «إنَّ الفتح الروحي الإسلامي لم يتأثر بسقوط الدولة الإسلامية وبضعف القوى السياسية، ففي أيام هزيمته السياسية نال أعظم انتصاره الروحي»[١].

ويقول الأستاذ عبد الرحمن عزَّام في الرسالة الخالدة: «وفي تاريخ الإسلام حادثان عظيمان يثبتان ذلك فحين وضع الكفار المتوحشون من المغول والأتراك السلجوقيون أقدامهم على رقاب المسلمين في القرن الثالث عشر الميلادي غزا الإسلام قلوبهم فاعتنقوا ـ وهم الغالبون ـ دين المغلوبين. ولم يكن للإسلام عون من سيف أو سلطان».

«وإذا رجعنا البصر إلى صلح الحديبية، ذلك الصلح الذي حزن له المسلمون لقبولهم شروطاً مذلَّة، والذي قرَّر وضع السيف في غمده عشر سنين، رأينا أنَّ أعظم فتح معنوي للإسلام كان في أيام هدنة الحديبية. وفتح الحديبية السلمي هو الذي هيأ لفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً»[٢].

ولهذا فإنَّ الحرب لا تنشأ في نظر الإسلام إلَّا عند الضرورة القاهرة

---

(١) الرسالة الخالدة عبد الوهاب عزام/ ١٥٤.

(٢) المصدر نفسه/ ١٥٤.

دفاعاً عن المجتمع ومصالحه ودفاعاً عن الوطن وشعبه ودفاعاً عن العقائد والنظام في وجه من يريد النيل منها بغياً وعدواناً. وإلاَّ تكن هذه الضرورة القاهرة، ففي السلام مندوحة لقول الحق وإبراز معالم الفضيلة وتعزيز عناصر الهدى والبر، والضرب في الأرض سعياً وراء ما كتبه الله تعالى من رزق حلال. . .

الفصل الرابع

وسطية الإسلام

الغلو في الأمم السابقة:

لقد أرسل الله تعالى الرسل مبشرين ومنذرين ومعلمين وهداة ومصلحين. وقد بلغوا رسالاتهم للناس وقاموا بأداء ما فرضه الله تعالى عليهم. ولكن الناس كانوا مع الزمن يغفلون عن الحقائق فيقعون في التحوير والتغيير ثمَّ يبعدون شيئاً فشيئاً عن الأصول التي أخذوها عن الرسل والأنبياء.

وقد أنزل اليهود الله تعالى منزلة البشر وافتروا عليه غير الحق ونسبوا إليه ما لم يقله، وقتلوا الأنبياء ظلماً وبغياً، وشددوا فشدد الله عليهم. وابتدعت النصارى أموراً ما أنزلها الله وما كان لهم عليها من برهان وابتدعوا الرهبانية والأعمال التعبّدية الشاقة. كرفض الدنيا وشهواتها المشروعة، وسقطوا فيما لا طاقة للإنسان به.

وقد لفت الرسول ﷺ نظرنا إلى سوء هذا فقال: «لا تشددوا على

أنفسكم فيشدد عليكم، فإنَّ قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»[1].

وقد شاء الله تعالى بمزيد من رحمته ولطفه أن يجنب أمة الإسلام ما وقعت به بعض سوابقها من الأمم من الغلو في الدين كالذين غلّبوا في حياتهم وتعاملهم، التعاليم الروحية فزهدوا كل الزهادة وأذلُّوا النفس وعذبوا الجسد مثل بعض متعبدة الهندوس والنصارى. كما حذَّرنا من السقوط فيما سقط فيه اليهود ومن هم على شاكلتهم من منظري هذا العصر الذين اندفعوا دون مراعاة للتعاليم الفضلى، وراء منافعهم المادية وحظوظهم الجسدية في مختلف تصرفاتهم وأفكارهم. ولذلك فقد قال لنا: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾**[2] «فجمع لنا في ديننا بين الحقَّين، حق الروح وحق الجسد»[3].

الحياة والغلو:

والحياة في نظر الإسلام ليست دار عقوبة حتى يفرض على تابعه الزهادة الكاملة فيها، وحرمان جسده من اللذائذ والطيِّبات المشروعة التي فيها صالح الجسد ونماؤه واستمراره. والواقع أنَّ الله تعالى قد خلقه ليعيش أيامه ويصيب منها حظَّه المشروع الذي كتبه لجسده ولروحه اللذين بهما تكتمل حياته الإنسانية. كما أنَّها ليست دار أطايب مادية فقط أوجده الله تعالى فيها ليسرح وراءها بهوس وجنون دونما وعي أو تقدير

---

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) البقرة/ ١٤٣.

(٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا.

للفضائل والقيم. بل هي دار إعداد وتحضير لحياة أرحب وأعظم هي الحياة الآخرة ليحدّد له مقامه ومصيره فيها.

ولذلك فإنَّ الإسلام ينظر إلى هذه الحياة على أنَّها دار امتحان وابتلاء، يتطلب فيها من الإنسان أن يكون متوسطاً في أموره معتدلاً في شؤونه مستقيماً في سلوكه على صراط الله السوي، فيأخذ منها من الطيِّبات ما أباحه الشرع وثبت به صالح النفس ويترك منها ما خبث وكان ضاراً بها.

الرسول والغلو:

وفي فترة بناء المجتمع المدني كان ﷺ يتعهد أصحابه في غمرة العيش ويراقب سيرتهم الدينية فينهاهم عن الغلو في الدين ويحضهم على الاعتدال والتوسط. وقد نقل إليه ﷺ أنَّ بعض أصحابه كانوا يَصِلُون الليل بالنهار في صيامهم ولا يفطرون عند الغروب، فاستدعاهم ونهاهم عن الوصال رحمة لهم. ولما قالوا له إنك أنت تواصل صومك، ونحن نريد الاقتداء بك قال لهم ﷺ: «إني لست كهيئتكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»[1].

وروى أنَّ رسول الله ﷺ دخل المسجد ذات يوم فلقي حبلاً ممدوداً بين ساريتين فقال: «ما هذا الحبل؟». قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت [أي كسلت عن القيام للصلاة تعلَّقت به]، فقال ﷺ: «حلّوه، ليصلِّ، أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد»[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج

(١) منهل الواردين ٢٠٦/١.
(٢) المصدر نفسه ١٤٢/١.

النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي، فلما أخبروا كأنَّهم تقالّوها. وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر. وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء الرسول ﷺ إليهم وقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنّي أصوم وأفطر وأصلّي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس منّي»[1].

وقد ثبت أنَّ ابن مسعود رضي الله عنه روى عنه ﷺ أنَّه قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً. والتنطع هو التشدد في غير موضع التشديد وهو الغلو بذاته.

كما أخرج البخاري في تاريخه والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «إنَّ لك في عيسى مثلاً أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه وأحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذي ليس له».

الغلو والسبق للخيرات:

على أنه ينبغي لنا هنا أن نتوقف قليلاً للمقارنة بين الغلو في الدين وبين المسابقة إلى الخيرات والطاعات. ولا يمكن مطلقاً أن يكون السباق في البر وعمل الخير والتنافس في الصالحات من صنف المغالات في الدين. ذلك لأن الغلو منهيٌ عنه بنص الكتاب والسباق إلى الخير مأمور به بنص الكتاب فلا يستويان. يقول الله تعالى: ﴿سَابِقُوْا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِيْنَ

(١) المصدر نفسه ١٤١/١.

آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ﴾ ويقول: ﴿وَلِكُلٍ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوْا الْخَيْرَاتِ﴾(٢) ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُوْنَ وَالَّذِيْنَ يُؤْتُونَ مَا آتوا وَقُلُوْبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُوْنَ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُوْنَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُوْنَ﴾(٣).

وعن أبي محمد عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «أُخبر النبي ﷺ أني أقول: والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت. فقال رسول الله ﷺ: «أنت الذي تقول ذلك؟» فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي يا رسول الله!! قال: «فإنَّك لا تستطيع ذلك. فصم وأفطر، ونم وقم وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإنَّ الحسنة بعشر أمثالها. وذلك مثل صيام الدهر» قلت فإني أطيق أفضل من ذلك. قال: «فصم يوماً وأفطر يومَيْن» قلت فإني أطيق أفضل من ذلك. قال: «فصم يوماً وأفطر يوماً فذلك صوم داوود وهو أعدل الصيام» فقلت فإني أطيق أفضل من ذلك. فقال رسول الله ﷺ «لا أفضل من ذلك» ولأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ، أحب إلي من أهلي ومالي» وفي رواية: «ألم أُخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟» قلت بلى يا رسول الله. قال: «فلا تفعل. صم وأفطر، ونم وقم، فإنَّ لجسدك عليك حقّاً. وإنَّ لعينيك عليك حقّاً وإن لزوجك عليك حقّاً، وإن لزَوْرك عليك حقاً. [أي ضَيْفك] وإن بِحَسْبِكَ أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل

---

(١) الحديد/ ٢١.

(٢) البقرة/ ١٤٨.

(٣) المؤمنون/ ٥٧ ـ ٦١.

حسنة عشر أمثالها، فإنَّ ذلك صيام الدهر» فَشددت فشُدِّد علي»[1].

ولقد جاء النهي في القرآن واضحاً عن الغلو كما في الحديث ويكفي أن نورد في هذا قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوْا وَلاَ تُسْرِفُوْا إِنَّـهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾[2] أي التزموا الاعتدال فإنَّ ربكم الذي أنعم عليكم بهذه النعم لمنفعتكم لا يحب المسرفين في أمرهم، بل يعاقبهم على إسرافهم بقدر ما ينشأ عنه من المفاسد والمضار وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوْا اللَّه الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُوْنَ﴾[3] وقوله: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِيْنَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيْراً إِنَّ الْمُبَذِّرِيْنَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾[4].

وأما الحديث فقد ورد فيه في هذا المعنى قوله ﷺ: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ولا سرف فإنَّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[5] وورد هذا المعنى أيضاً في قوله: «ما عال من اقتصد»[6] وقوله: «الاقتصاد نصف المعيشة وحسن الخلق نصف الدين»[7].

التوسط والاعتدال في كل شيء:

وإذا كان النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة قد تعهد أصحابه

(١) منهل الواردين ١/١٤٤.
(٢) الأعراف/ ٣١.
(٣) المائدة/ ٨٧ ـ ٨٨.
(٤) الإسراء/ ٢٦ ـ ٢٧.
(٥) أخرجه النسائي وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.
(٦) رواه أحمد وهو حسن.
(٧) رواه الخطيب عن أنس والطبراني والبيهقي عن ابن عمر.

المؤمنين وربَّاهم على الاعتدال والاقتصاد، فقد كان ذلك منه في المطعم والملبس والمشرب والإنفاق والطاعة وعمل الصالحات والسعي وراء الرزق وعلى العيال، وفي الإنفاق في سبيل الله حتى كان منه في هذا المجال قوله: «إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكفَّفون الناس».

وإذا كان النبي ﷺ قد أنشأ أتباعه في القديم على هذا النهج المتوسط في كل الأمور فما أجمل أن يتذكر أتباعه الذين يعيشون في هذا العصر ويفتخرون بالانتساب إلى الإسلام وباتباعه ﷺ أن يلتزموا حدود الدين ومقاصده، وبالذات من الاعتدال والتوسط والتجمل بهما قولاً وعملاً؛ فلا يطالب المغالون منهم في الدين الناس بما لم يطالبهم به رسولهم الأكرم. وما أجمل أن يفرقوا في توجيههم بين ما هو مأمور به وما هو مندوب إليه، وبين ما هو مباح، وبين ما هو محرَّم وما هو مكروه. وما أجمل ألَّا يستنكر المفرِّطون فيه وبتعاليمه وآدابه دعوات التذكير والنصح ومواعظ البر والحكمة!! فقديماً أهلك الأمم الإفراط أو التفريط أو المغالاة أو التقصير. وبدعاوى الغلو هلك بنو إسرائيل من قبل، ثمَّ تفرقت أمَّة الإسلام إلى فرق كانت سبب انهيار حكمه وضياع سلطانه، وسبب ما لقوه على مدى انتشار القرون الوسطى حتى هذا العصر على أيدي المغول والتتار والصليبيين، ثمَّ على أيدي دول الاستعمار الغربي، وأخيراً على أيدي إسرائيل بمعاونة أميركا ودعمها الخبيث، من قهر وعذاب وهوان.

واليوم وأمتنا تتطلع إلى يوم الإنقاذ، أو مرحلة الانبعاث والانطلاق في وجه الظلم السافر والعدوان القاهر والطمع الفاجر التي تمارسها على أراضينا وشعوبنا العربية الإسلامية قوى البغي والاستعمار دونما خجل أو محاسبة ضمير، لا مندوحة لنا من أن نعي هذه الحقيقة، ونتفادى السقوط

بشركها المميت. فقد ينقلب شر الغلو والتقصير علينا. بل إنَّه لن يعود على سوانا وأعدائنا بالذات إلاّ بالخير والنصر تلو النصر، لأنَّه سيكون إذا ما استفحل في أبناء مجتمعنا سبب نزاع شديد وصراع خطير ينتهي بتمزيقها شرٌّ ممزق وشلّ قواتها شلاًّ مهلكاً. . .

لقد أدرك ﷺ في أيامه الأولى من صناعة هذه الأمة المسلمة ورفع قواعد بنائها المجيد خطر هذه الظاهرة، ظاهرة الغلو، فمنع أصحابه منها وألحَّ على توضيح مآسيها وموبقاتها وشدَّد عليهم بالتزام التوسط والاعتدال، وأرفده الوحي بأخبار من سبقه من الأمم وكيف أنَّ الله تعالى نهاهم عن الغلو في الدين كقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوْا فِي دِيْنِكُمْ وَلاَ تَقُوْلُوا عَلَى اللَّهِ إلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيْحُ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُوْلُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوْا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيْلاً﴾(١).

ولقد ذكر المفسِّرون أنّ هذا الغلو مقصود فيه غلو اليهود في عيسى بحيث وصلوا فيه إلى حدٍّ قذف السيدة مريم، وغلو النصارى في عيسى حتى وصلوا معه إلى القول بألوهيته. والإفراط والتقصير كله سيئة أو كفر. والغلو هو في وصف الرسل بما لم يصفهم به الله وبإنزالهم في منزلة هي فوق المنزلة التي آتاهم الله إياها ـ وهي منزلة الرسالة ـ أو دونها. أو في غير ذلك مما لم تأت به الرسالات من التشريع أو أنواع السلوك.

الرسول والتوسط:

وقد استفاد بعض العلماء من هذه الآية حرمة الغلو في الدين. وقد

---

(١) النساء/ ١٧١.

ورد في صحيح البخاري عن عمر رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنّما أنا عبده. فقولوا عبدالله ورسوله». وقد روى الإمام أحمد بسنده عن أنس ابن مالك أنَّ رجلاً قال: «يا محمد! يا سيدنا وابن سيدنا!! وخيرنا وابن خيرنا!! فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينّكم الشيطان. أنا محمد بن عبدالله عبد الله ورسوله. والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزَّ وجل»[(1)].

ولقد عاش الرسول ﷺ أيّامه كلها وهو في قمة التوسط والاعتدال في سلوكه وتعامله وفي قوله وفعله وفي طعامه وشرابه ولباسه وفي مسكنه. ولقد مات وهو على ذلك، وقد تبعه أصحابه من بعده وبالذات الخلفاء الراشدون فقصُّوا أثره إلى حدٍّ بعيد، فلم يخرج منهم أحد عن الحدود المشروعة في الدين والاعتقاد والسلوك. حتى ولم يرو عنهم شيء مما يروى عن كبار الصوفية من القول والفعل الغريبين عن خط الشريعة الواضح. وقد قال ابن تيمية: «وأكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسالفين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا في هذا الفناء فضلاً عمن هو فوقهم من الأنبياء، وإنّما وقع شيء من هذا بعد الصحابة. وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل وعدم التمييز لما يرد على القلب من أحوال الإيمان. فإنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم أو يحصل لهم غَشْيٌ أَوْ صعق أَوْ سكر أو فناء أَوْ وَلَه أَوْ جنون. وإنما كان مبادىء هذه الأمور في التابعين من عبّاد البصرة، فإنّه كان فيهم من يغشى عليه إذا

(1) تفسير القاسمي ٣/١٧١.

سمع القرآن ومنهم من يموت كأبي جهير الضرير وزرارة ابن أوفى قاضي البصرة»[٢].

لقد شق الرسول ﷺ هذا الطريق المعتدل وأوصى به أصحابه مبلغاً عن الله وبما يتيسَّر له من قول وفعل وتوجيه رشيد، ولقد استجاب أصحابه له والتزموا بنصحه وتابعوا خطواته فوفقهم الله ونصرهم على المعتدين، بيد أنَّه قد خلف من بعدهم خلف أفضى بهم الهوى إلى ولوج نفق الغلو فتاهوا فيه، وتطرفوا في السياسة كما تطرفوا في الدين وسقطوا في مستنقع المغالات التي نهى عنها رب العالمين، وسببوا لأنفسهم وللأمة الإسلامية في تاريخها المجيد سلسلة من المعاناة التي انتهت بهم إلى التفتت والتنازع ومن ثمَّ إلى الضياع والهلكة.

المغالات والوثنية:

لقد كانت المغالات في الأصل سبباً عريقاً من أسباب ظهور الوثنية في الجزيرة العربية وانتشارها ومن ثمَّ في مكة المكرمة والمدينة، فانقلب الناس فيها كما رأينا كتلاً بشريَّة يأكل منهم القوي الضعيف ويستغل بعضهم بعضاً، وآلت حياتهم كلها جحيماً مستعراً ولم يستشعروا جمال العيش وقيمة الحياة وطمأنينة المجتمع إلاَّ بعد ظهور الرسول ﷺ، ثمَّ بعد هجرته إلى المدينة حيث تمكن من العمل المتواصل لبناء المجتمع الراشد الآمن، فأخرجهم بذلك بفضل الله ونعمة الإسلام من الظلمات إلى النور. ولقد حباهم الله تعالى على يده من الأنظمة والتشريعات ما يسر للإنسان العربي بل المسلم أن يعيش حياته التي خلقه الله لها متوسطاً معتدلاً في عبادته وفي عمله وسعيه وفي كل شؤونه وأموره لا يهمل دنياه

(١) العبودية لابن تيمية ١٤٨ المكتب الإسلامي.

ولا ينسى نصيبه الذي كتبه الله له فيها ويبقى على ذكر دائم للنهاية والمصير، التزاماً بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيما آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِيْنَ﴾[1].

إنَّ رسول الله ﷺ استطاع بفضل الله، وبمنهج التوسط الذي سلكه أن يعود بأبناء المدينة الذين أضلتهم الوثنية ومزقتهم، إلى سبيل الهدى والرشاد، بل استطاع بالتالي أن يعود بأبناء الجزيـرة كلها ثمَّ بـأبناء الإنسانية جمعاء إلى المسار الصحيح الذي يحفظ للإنسان كرامته ويحقق له ما ينشده من أمن وطمأنينة ورخاء.

ذلك أنَّ هذا المنهج هو المنهج المناسب لفطرة الإنسان والملائم لطبيعته وما جبل عليه. ووحده الجدير بأن يهيئه للخلافة على الأرض ولعمارتها وتطوير الحياة فيها مع الزمن تطويراً يمكّن له في الأرض وفي البحر وفي الجو ويستفيد به مما أعده الله له فيها كلها من مخزون الخير والثروة. يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وما فِي الأَرْضِ جَمِيْعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُوْنَ﴾[1].

ولا غرو فقد حظي هذا الإنسان من الله على كثير من الإكرام والعون والمساعدة، فسخر له الخلائق كلها لينتفع بها على كر الدهور بعد الاهتداء إلى ما تتضمنه هذه الخلائق الكونية من لطائف الأسرار الإلّهية التي تسيِّرها. ولن يكون من الإنسان اهتداء إلى هذا وهو سابح في

---

(١) القصص/ ٧٧.

(٢) الجاثية/ ١٢ ـ ١٣.

بحران الغلو والتطرف الذي يهدم مقوِّمات الفكر ويفل قواه ويحول بينه وبين البحث والتدبر والتقدير وبالتالي بينه وبين الاهتداء إلى بعض أسرار الكون.

وما دام الله تعالى قد زوَّد الإنسان بالاستعدادات التي تؤهله لمعرفة بعض أطراف أسرار الله في نواميس هذا الكون، فلا بدَّ من إماطة اللثام عن وجهه وكشف الغشاوة عن عينيه وبصره، ولن يتحقق شيء من هذا إلاَّ في توجيه الإنسان، مع إيمانه بالله وقدرته وملكه اللذين لا يحدُّهما حد، إلى التوسط والاعتدال ليباعد بينه وبين الغلو والتطرف، وليسلم له عقله حراً طليقاً متمكناً من جمع المعلومات وعقد المقارنات بينها والاستنباط منها كل ما يوصله إلى ما قد هيأه الله تعالى له للاستفادة منه. وحسبنا أن نذكر في هذه المناسبة قوله تعالى: ﴿سَنُرِيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِن لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾[1].

(١) فصلت/ ٥٣ ـ ٥٤.

الفصل الخامس

شرعة الأذان

لقاءات المسلمين:

عرفنا مما تقدم أنَّ الرسول ﷺ اتجه إلى بناء مسجده من أول يوم وطئت رجله فيه المدينة بعد هجرته. وعرفنا أنَّ اللقاء في المسجد هو في الأصل لعبادة الله ولآداء الصلوات. وأنَّ هذه العبادة هي في أصل كل عمل ذي بال يقوم به المسلم فرداً كان أو جماعة، فلا بدَّ إذن من أن تنعقد في كل يوم بين من أمكن من جماعة المسلمين في كل مكان من المدينة ليستلهموا أجواءها بعض ما يصلح أمورهم وشؤونهم ويحقق لهم وحدة مواقفهم وتعاونهم الدائم. وإن كان قد شاء الله تعالى أن تكون هذه اللقاءات مشغولة في أكبر وقتها بعبادة الله والتوسل إليه وهو مالك الملك لتنعكس عليها بركاته وأنواره الكاشفة والهادية إلى السلوك الأفضل والأرشد.

طريقة تنادي المسلمين في بداية الأمر:

ولقد كان المسلمون كلما حان وقت الصلاة دلفوا إلى المسجد من

غير دعوة. وكثيراً ما كانت مشاغل الحياة تستغفل البعض منهم فيتأخرون عن وقتها ويفوتهم الكثير من خيرها وفضل جماعتها وما يستجد فيها من توجيه وعظة يؤديها رسول الله ﷺ.

ومن أجل ذلك فكر رسول الله ﷺ بأن يعتمد وسيلة يجمع بها الناس عند حلول وقت الصلاة ويلم بها شعثهم. فهمَّ أن يتخذ يوماً بوقاً كبوق اليهود الذي يتداعون به لصلاتهم. بيد أنَّه عاد فكرهه. ثمَّ أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين عند دخول الصلاة. وبينما كان ﷺ مهتماً بهذا الأمر يبحث له عن وسيلة مع أصحابه، إذ رأى عبدالله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه أخو بلحارث بن الخزرج النداء. وفي الصباح غدا على رسول الله ﷺ فأخبره وقال: «يا رسول الله إني لَبَيْنَ نائمٍ ويقظان إذْ أتاني آت فأراني الأذان. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد رآه أيضاً قبل ذلك فكتمه عشرين يوماً ثمَّ أخبر النبي ﷺ فقال له: ما منعك أن تخبرني؟ فقال: سبقني عبدالله بن زيد فاستَحْيَيْت. فقال رسول الله ﷺ «يا بلال! قم فانظر ماذا يأمرك به عبدالله بن زيد فافعله» فأذَّن بلال.

وقد روى عبدالله بن زيد أنَّه قال: «لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يعمل ليضرب به للناس يجمع للصلاة، طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً في يده. فقلت يا عبدالله أتبيع الناقوس؟! قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ قلت: بلى! قال تقول: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلاَّ الله أشهد أن لا إله إلاَّ الله، أشهد أنَّ محمداً رسول الله، أشهد أنَّ محمداً رسول الله، حيَّ على الصلاة، حي على الصلاة، حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر لا إله إلاَّ الله». قال ثمَّ استأخر عني غير بعيد

ثمّ قال: تقول إذا أقمت الصلاة: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلاّ الله، أشهد أن لا إله إلاّ الله، أشهد أنَّ محمداً رسول الله أشهد أنَّ محمداً رسول الله، حيَّ على الصلاة، حي على الفلاح قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر لا إله إلاَّ الله. فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت فقال إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به فإنَّه أندى صوتاً منك. فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به. قال فسمع عمر وهو في بيته فخرج يجر رداءه يقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد».

وقد ورد في الخبر أيضاً أنَّ عمر بن الخطاب هو الذي رأى الرؤيا. وأنَّه لما جاء ليخبر بها الرسول ﷺ فما راعه إلاَّ بلال رضي الله عنه يؤذن. ولما أخبر الرسول ﷺ قال: «قد سبقك بذلك الوحي».

وهكذا كانت شريعة الأذان في الإسلام لجمع الناس عند أوقات الصلاة لآدائها جماعة لمن تيسر له ذلك من المسلمين وليكون لهم مع ذلك لقاء في مظلة عبادة الرحمن.

هذا وإنَّ صيغة الأذان في الإسلام بدعة اجتماعية دينية لم يسبق إليها، لأنها صيغة جليلة وحميدة في الشكل والمضمون. فهي في الشكل تعبير مفهوم وليست صوتاً أصم لا مدلول له ولا معنى فيه كما في الناقوس والبوق اللهمّ إلاَّ أنَّ وقت الصلاة قد حان، وهي في المضمون تحمل أجمل المعاني وأفضلها، تتكرر الدعوة بها كل يوم على الأشهاد مذكرة بوحدانية الله وبرسالة محمد بن عبدالله، وبأنَّ الصلاة هي خير عمل

(١) عيون الأثر ابن سيد الناس طبعه دار الآفاق ١/٢٤٦ ـ ٢٤٧.

وأنَّها الفلاح كله فضلاً عن أنها تأتلف وتنسجم مع دعوة الإسلام لأنها تعبر عنها باختصار وتقتحم من خلال مهمة الإعلام والدعوة آذان وقلوب القاصي والداني من عباد الله لتفتحها على ما فيه هداها وخيرها وبرها. وفي هذا ما فيه من الدلالة على بعد نظر الإسلام ودقة منهجه وترابط تنظيماته، وأنَّه دين مرحمة وبر وصفاء وليس دين ضرب وطعان.

الفصل السادس

التطوير والبناء لمجتمع المدينة بعد الهجرة

البناء والتطوير لم يأخذا وجهة واحدة:

إننا نخشى أن يخيل للبعض عقب الانتهاء من قراءة فصل الركائز الأولى لتطوير مجتمع المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها أنَّ منهجية الرسول في ذلك اعتمدت قاعدة التفرغ لهذه الركائز وحدها، دون أن تولي غيرها من حاجات المجتمع وعناصر وجوده ونهضته ما تستحق من العناية والمعالجة. ولذلك فإننا نبادر إلى القول بأنَّ الرسول ﷺ كان في الوقت نفسه الذي أعطى فيه تلك الركائز الأولى الكثير من اهتمامه وجهده لإرسائها على أرض صلبة راسخة لا تهتز ولا تضطرب تحت ضغط الرياح العاتية التي قد تثيرها الأهواء الخاصة بأبناء المجتمع المؤمن أوْ تحركها أحقاد الأعداء الذين يعملون ضدَّ الإسلام في العلن والخفاء. . . كان أيضاً لا يفتر في بذل وسعه لبناء مقوِّمات شخصية المسلم في ضوء الإسلام.

لقد كانت أنشطته مع اهتماماتها بالقضايا الكلية التي ينبني عليها العمل العام والخاص ويرتكز إليها السلوك في نطاق الفرد والمجتمع، تولى الجزئيات ما تستحق من الرعاية والمعالجة والإصلاح، كل ذلك في خط متوازٍ وسلوك متكامل لضمان سرعة البناء والتفاعل الإيجابي لصالح الفرد والمجموع.

البدء في التشريع:

ولأجل هذا فقد كان لا مناص من الشروع في مرحلة التنظيم والتشريع على كل صعيد، إذ أنّه لا سبيل لضمان أي تطوير في حياة الفرد أو في حياة الجماعة ما لم تتخذ ثمة العديد من الإجراءات التنظيمية والإصلاحية.

ومما يلفت النظر أنَّ إجراءات التنظيم والإصلاح والبناء الشخصي والاجتماعي لم تكن تتخذ في مناخ بارد، بل في مناخات سياسية واجتماعية محمومة كانت تشهد الحماس وحرارة الحركة والعمل واستعار المشاعر والأحاسيس واللقاءات من جرَّاء تحرّشات قريش المعادية وما كان يتفرع عنها من غزوات ومعارك ووقائع يومية كانت تنتهي بصورة شبه دائمة بنصر المؤمنين وهزيمة الكافرين.

لقد كان لنزول النبي ﷺ في المدينة والتفاف المؤمنين حوله أثر بعيد عليهم. فقد أصبحوا يدركون أنّهم أمة واحدة يتقدمها قائد واحد استوفى كل خصال القيادة الناجحة والموفقة. ويدركون أيضاً أنّهم في ظل هذه القيادة انقلبوا إلى قوّة مهابة في الجزيرة العربية، يحسب لها كل حساب، وبخاصة بعد أن كسبوا المعارك المتوالية التي خاضوها مع أشرس قوّة فيها وهي قريش، وقضوا نهائياً على أكابر رجالها وزعمائها،

فكانت لكل ذلك وللمواقف الحاسمة التي اضطروا أن يقفوها من اليهود وشركائهم في المدينة آثاره الطيبة عليهم إذ جعلتهم يشعرون بالاعتزاز، ويدركون مدى القدر الذي تمتع به النبي العظيم الذي يقودهم ومدى فضل تعاليم الإسلام التي بها أخذوا يحسُّون معاني الذات وأقدارها ويتذوقون مفاهيم الحياة ويستجلون أبعادها ومقاصدها التي ينبغي التنافس فيها والتضحية من أجلها.

فقد أصبح فيهم رسول الله ﷺ القائد المطاع المفرد الذي تعلقت به القلوب تعلقاً عجيباً حتى كان كل شيء في حياة كل واحد منهم. فهو رسول الله. وهو جامع كلمتهم والمخرج لهم من جهالتهم وهو الذي سيضمن لهم برعاية الله سعادتهم الدنيوية والأخروية.

البدء في تعزيز المسلم بالشرائع التعبدية:

وقد أدرك رسول الله ﷺ ذلك في جماعته المؤمنة من أول يوم نزل فيه المدينة، وعلم أنَّهم لن يخذلوه، بل سيبتدرون كل أمر فينفِّذوه، وكل عبارة فيحفظونها ويعملون بها، وسيتفانون في الإعراب عن محبته وطاعته. . كما كان يدرك أنَّ الفرد بالنسبة للمجتمع كالشريان بالنسبة للجسد، فنضارته ومتانة نسيجه تورث الجسد نضارة ومتانة، وضعفه أو شلله يورث الجسد ضعفاً أو شللاً، بل هو على الأصح كالقلب فيه إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله.

وإنَّ بناء شخصية المسلم لا يكون فقط بتوفير المقوِّمات المادية له ليقوى ويتماسك وتكون له القدرة على الحركة الناشطة والتصدي الشديد في كل الظروف والمناسبات على اختلاف حالاتها. بل أيضاً بتوفير الطاقات الروحية والمعنوية التي تمنح استعداده الجسدي والمادي قابلية

الإقدام والتضحية عندما تتطلب حاجاته الشخصية أو الجماعية ذلك.

وإنَّ في مقدِّمة هذه القوى الروحية والمعنوية حسن الصلة بالله تعالى الذي هو رب كل شيء ومليكه. وإن أعلى مبادىء هذه الصلة عبادته على الوجه الأكمل بآداء ما افترضه من الصلوات والعبادات الأخرى كالصوم والزكاة والحج.

وقد أسهب الرسول ﷺ في فترة إقامته في المدينة بعد الهجرة في بيان كيفية آداء هذه الفرائض وتوضيح أركانها وشرائط صحتها وسننها ومبطلاتها، وفي تتبّع أصحابه لمراقبة حسن قيامهم بها مع توضيح ما لها من فضل عميم على شخصية المسلم؛ إذ تلبسه أحسن الخصال من القناعة والرضى وهدوء الأعصاب، ومحبَّة الآخرين وبرّهم، ومن طهارة النفس والقلب والجسد والثوب والمكان؛ ثمَّ ما لها من فضل على الجماعة المسلمة بما تعكسه فيها من أخلاق التعاون والإخلاص للآخرين والاتحاد، والحرص على المصلحة العامة والوطن والأنظمة، وحمايتها بكل ما لها من حيلة وقوَّة.

ولقد أنعش النبي ﷺ نفس المسلم بفضل وحي الله الذي كان يواكب مسيرته ويزوِّدها بالإرشاد والنصح والتسديد، وأوقد حماسه وحمله على القناعة والإحساس الفعلي بأنِّه بصلته المخلصة بربه حبَّاً وطاعة وتفانياً، أقوى من كل قوى وأفضل من أولئك الذين كفروا به وتمردوا على أوامره ودعواته...

أجل لقد أحياه بعد موت طويل، وأنقذه من هلاك خطير وأخرجه من الظلمات إلى النور. وما أجمل قوله تعالى الذي يشير إلى هذا المعنى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوْرَاً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ

كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِيْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُوْنَ﴾[1].

لقد سلك مع المؤمنين في تعليمهم هذه العبادات وفرضها عليهم مسلك المتدرج: فعلمهم في البدء الصلاة والطهارة في كل شيء، ثمَّ علمهم الصوم والقناعة بالقليل، ثمَّ علمهم الزكاة وحدودها وأنصبتها ليقيم أنفسهم على تعود التعاون وتحمل المسئولية، ثمَّ علمهم الحج إلى بيت الله الحرام في العمر مرة. فكان آخر ما فرضه عليهم في مجال العبادات...

فكان المسلم ذكراً أو أنثى يؤدي شعائره الدينية فرضاً أو نفلاً ويدرك أنَّه بها يزكي نفسه ويرقى بها في مراتب الكمال، ويجد في أدائها من الراحة الروحية والطمأنينة الذاتية ما يزيده حبَّاً بالله ورسوله وحرصاً على ترسّم محابهما من الطاعات والمبرّات، فكان لذلك أثره وفعله البعيد في تعزيز نسيج الجماعة الإسلامية وعقد الترابط بين أفرادها، واقتطاف أعظم الثمار وأفضلها في تطوير حياة الفرد والجماعة، وإعلاء قدرهما وتحضيرهما للقيام بأعظم الخطى الحضارية في حياة الإنسان في كل آن..

٢ ـ تحديد الأطعمة والأشربة والألبسة المباحة:

وفي الوقت الذي كان فيه ﷺ يعلم أتباعه المؤمنين طرائق التعبد لله ومناهج التقرُّب إليه، كان أيضاً يتعهَّد معاشهم ويتدخل بوحي الله وأمره في بيان ما يحظر عليهم تعاطيه وما يباح لهم من المطعم والمشرب والملبس. فقد بعث الله محمداً ﷺ بالإسلام ليصلح به ما فسد من مظاهر

---

(١) الأنعام/ ١٢٢.

الإنسان وأحواله في كل مجال، وليلغي منها كل ضار ومفسد. ولذلك فقد حرَّم على المسلمين الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والنطيحة والمتردية وما أكل السبع وما ذبح على النُصُب وغير ذلك مما أوضحته السنة النبوية، وحرَّم عليهم الخمر وكل ما أسكر قليله والميسر والإنصاب والإزلام، وحرَّم على الرجال لبس الحرير والتحلي بالذهب والفضة. كما حرَّم على المؤمنين جميعاً استعمال الآنية من الذهب والفضة. ونهاهم عن إطالة الملابس حتى تنسحب على الأرض كبرياءً وانتفاخاً. وأقام أحكام الحظر والإباحة كلها على قاعدة واضحة من جلب المنفعة ودفع المضرة التي تضمن حفظ النفس في بدنها وعقلها ومالها وعرضها، وحفظ المجتمعات مما يؤول بها إلى الفساد.

ولقد توسع الفقهاء على تقلب العصور في إبراز شرائع هذا الباب لما يعبِّر عنه من الأهمية الكبرى في حياة الفرد والجماعة، إذ ترتبط به شؤون الصحة والتربية والأخلاق والاجتماع مما يترك أبعد الأثر في ذات الفرد والجماعة سلباً أو إيجاباً، ويكشف عن مدى اهتمام الإسلام في الحياة الاجتماعية من جوانبها المتنوعة، ومدى عمق نظرته ودقَّتها وبعد حكمتها.

٣ ـ المساواة بين المؤمنين:

ولم يغفل الرسول ﷺ معالجته لمظاهر التمايز الطبقي والتفريق العنصري التي كانت شائعة في المدينة بل وفي الجزيرة العربية والعالم كله إذ ذاك، فاجتهد قولاً وفعلاً للقضاء على أنماط التكبر والتعالي على الغير، وحارب أشكاله وصوره، ووضع الموازين التي تؤدب المسلمين بالأدب الرفيع وتسلك بهم مسلك التواضع، كما تعقد لهم المساواة فيما

بينهم دونما محاباة، فكان منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوْباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ النَّاسِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ خَبِيْرٌ﴾[1] وقوله ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلَّا بالتقوى» وقد أبرز أنَّ التقوى هي المعيار الأساسي الذي يعتمد لتحديد سبب المفاضلة بين الناس، وليس المال أو الأسرة أو القبيلة أو العشيرة أو الجاه أو العرق أو اللون.

وهكذا فقد نهج الإسلام في مسلكه التنظيمي الاجتماعي مسلكاً فريداً لا ترقى إليه مقاصد واضعي الأنظمة من البشر، فجعل أساس العلاقات بين البشر قائماً على وحدة العقيدة، وأقام التفاضل فيما بينهم في ضوء ما يكون منهم من تفاضل في تقوى الله وتفوق في العمل الصالح

٤ ـ الأمر بالتقوى:

وقد تجلى في القرآن الكريم تكرار الأمر بالتقوى، حتى تأكد الكثيرون بأنَّها مادة كل استقامة وتوفيق. والتقوى بمفهومها العام هي بمعنى تجنُّب كل ما يضر في النفس أو ما يضر في الجنس الإنساني ممن يجاورون أو ممن هم بعيدون، وتجنُّب كل ما يحول دون تحقيق المقاصد الدينية العليا..

ولقد قال بعض العلماء: إنَّها عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصي وفعل ما يستطاع من الطاعات. والمتَّقي هو الذي يصرف عن نفسه بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة وهو

---

(١) الحجرات/ ١٣.

مأخوذ من اتقاء المكروه، بما تجعله حاجزاً بينك وبينه كما قال النابغة:

سقط النَّصيف[1] ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وقال الشيخ محمد رشيد رضا في تعريف التقوى بأنَّها اتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال وسعادة الدارين، وكمال ذلك يتوقف على العلم الواسع بالكتاب والسنة.

فضائل التقوى:

وقد أخبر الله تعالى بأنَّ التقوى هي في أساس النصر على الأعداء ودفع الضر والبلاء فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[2] وقال: ﴿وإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوْا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾[3].

وأخبرنا سبحانه بأنَّ التقوى هي سبب للتفريج من الكرْب والإخراج من الضيق، ومدعاة لجلب الرزق الحسن، ولتيسير الأمور وحلِّ العقد وتجاوز الصعاب يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبْ﴾[4] ويقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يسراً﴾[5].

كما يخبرنا سبحانه في كتابه الكريم بأنَّ التقوى تنوِّر القلوب وتهدي العقول، وأنها مقدمة لازمة للعلم الصحيح، وسبب مباشر لتفضل الله به.

---

(١) النصيف ثوب تتجلل به المرأة فوق ثيابها كلها. وسمي نصيفاً لأنَّه نصف بين الناس وبينها فحجز أبصارهم عنها.
(٢) آل عمران/ ١٢٥.
(٣) آل عمران/ ١٢٠.
(٤) (٥) الطلاق/ ٢ ـ ٣، ٤.

فيقول: ﴿وَاتَّقُوْا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١) وهي أيضاً فاتحة لرحمة الله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوْهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ﴾(٢).

وهي في الحقيقة أم الخير وأساس البر وهي معين الراحة الروحية والنفسية والمدد الرباني في كل شيء فقال ﷺ فيما أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى عن زياد بن جدير قال: «ما فقه قوم لم يبلغوا التقوى»(٣) ومنها تنفجر أصول الحكمة في القلوب وبها ينكشف كثير من الحجب ويستبين كثير من الأسرار والدقائق في خلق الله وصنعه وآلائه.. وما أجمل الأمر الرباني في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُوْلِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُوْنَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيْمٌ﴾(٤) حيث جمعت للمتقي ضمان الرحمة والنور والمغفرة...

ولو ذهبنا نستعرض في هذه العجالة منن الله تعالى بلباس التقوى الذي شاء لنا ارتداءه لانحرف بنا الحديث عن غايته التي نقصدها. ولكن حسبنا أن نقول إنَّ صفة التقوى التي زرعها الرسول ﷺ بوحي الله وتوجيهه في قلوب أتباعه من المهاجرين والأنصار سكان المدينة إذ ذاك وحبّات عقد مجتمعه الجديد، أحدثت في نفوسهم تطوُّراً غريباً وانقلاباً مذهلاً. وبمقتضى هذه الصفة، صفة التقوى تكونت فيهم ملكة العلم والحكمة والعدل والإنصاف والرحمة والبر بالضعفاء، فخرجوا من مدرسة

---

(١) البقرة/ ٢٨٢.
(٢) الأنعام/ ١٥٥.
(٣) الدر المنثور للسيوطي ١٢٤/٢.
(٤) الحديد/ ٢٨.

الإسلام هداة ومبشرين ومعلمين وبناة حضارة ودعاة سلام وأمن وإخاء. .

٥ ـ تحرير الرقيق:

وانسجاماً مع هذه الروح روح التقوى ونزعة المساواة فقد طفق الإسلام يتدرج في حركته الإصلاحية فكان لا بدَّ له من معالجة الرقيق الذي كان شائعاً في المدينة وفي أطراف الجزيرة العربية والذي فيه ما فيه من الإساءة إلى مفهوم حريَّة الإنسان وكرامته.

ولما كان يتعذر عليه أخذ قرار بتحرير الرقيق دون مراعاة ما يترتب على ذلك من مصلحة الأرقاء أولاً من الناحية النفسية والاجتماعية، ومصلحة مالكيهم المادية والمعاشية ومصلحة المجتمع ككل، فقد سلك في البدء طريق إعلان حريَّة الإنسان وحقه على المجتمع في الاحتفاظ بهذه الحرية كريمة لا ينال منها بشكل من الأشكال. وهذا ما حمل عمربن الخطاب على أن يقول لعمرو بن العاص والي مصر يوم استدعاه لمحاسبته على مسلك ابنه السيء والمهين مع القبطي: «يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» وهو الذي حمله أيضاً على أن يقول بعد أن برئت نفسه من عصبية الجاهلية ومن التفاخر بالدم والآباء، ورقي في فضائل الإسلام رقياً سامياً، وذلك عندما طعن وأوشك أن يسلم الروح لباريها: «لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا لولَّيته».

والواقع أنَّ عمر رضي الله عنه في قوليه هذين ارتكز إلى منهج الإسلام الذي أخذه من الكتاب الكريم ومن النبي ﷺ. وبالذات من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1] وهو في الوقت

---

(١) الإسراء/ ٧٠.

نفسه يترجم القول المأثور عن رسول الله ﷺ: «أنا أخو كل تقي ولو كان عبداً حبشياً. وبريء من كل شقي ولو كان شريفاً قرشياً».

ولقد كان الإسلام في إصداره لقراره في تحرير الرقيق الذي أعطى صفة الإلزام للمالك والحق للملوك أفعل في إنجاح مقصده من ناحية وفي إعطاء المجتمع المتسع الزمني ليتخلص عند الاقتضاء من ظاهرة الـرّق في المجتمع الإنساني وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوْهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فِيْهِمْ خَيْراً وآتُوهُمْ مِن مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[1] فهو في هذه الآية يعطي الرقيق حق التخلص من الرق متى شاء شرط أن يعيد إلى مالكه المال الذي دفعه ثمنه، ويوجب على المالك العتق مقابل أخذ حقه، بل ويوجب على الأغنياء مساعدة الرقيق عند الاقتضاء والطلب لتخليص رقبته من الرق..

وبعد هذا فإنَّ الإسلام لم يقتصر في خطوته نحو تحرير الرقيق على هذا القرار العظيم، بل رأيناه فيما بعد يلزم المسلم ويشجعه عند كل خطيئة يريد التحلل منها ومن آثارها على عتق رقبة، فقد أدخل موضوع العتق والحض عليه عند دفع الدية، وعند حلٍّ مشكلة الظِّهار، وعند الرغبة في التحلّـل من الأَيْمان وغير ذلك.

ولقد أكَّد كثير من العلماء أنَّ الأمر الوارد في الآية السابقة وهو قوله تعالى: «فكاتبوهم» هو للوجوب. وهو مـذهب عطاء وعمـرو بن دينار والضحاك وابن سيرين وداود. وقد روي عن أنس بن مالك أنَّه قال سألني سيرين المكاتبة فأبيت عليه، فأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأقبل عليٌّ بالدرَّة وتلا قوله تعالى: ﴿فكاتبوهم﴾ إلخ وفي رواية «كاتبه أو

---

(١) النور/ ٣٣.

لأضربنَّك بالدرَّة». بيد أنَّه مذهب الجمهور كمالك والشافعي وغيرهما هو على أنَّ المكاتبة بعد الطلب وتحقق الشرط الآتي إن شاء الله «وهو قوله تعالى: ﴿إن علمتم فيهم خيراً﴾ مَنْدوبة»[1].

قال سيد قطب: «لما كان وجود الرقيق في الجماعة من شأنه أن يساعد على هبوط المستوى الخلقي، وأن يعين على الترخُّص والإباحية بحكم ضعف حساسية الرقيق بالكرامة الإنسانية، وكان وجود الرقيق ضرورة إذ ذاك لمقابلة أعداء الإسلام بمثل ما يعاملون به أسرى المسلمين، لما كان الأمر كذلك، عمل الإسلام على التخلص من الأرقاء كلما واتت الفرصة حتى تتهيأ الأحوال العالمية لإلغاء نظام الرق كله. فأوجب إجابة الرقيق إلى طلب المكاتبة على حريته، وذلك في مقابل مبلغ من المال يؤديه فينال حريته... وآراء الفقهاء مختلفة في هذا الوجوب. ونحن نراه الأولى؛ فهو يتمشى مع خط الإسلام الرئيسي في الحريَّة وفي كرامة الإنسانية[2].

ومهما يكن فقد كان لهذا الحكم الربَّاني الذي صدر في هذه الآية سواء كان المراد منها الوجوب أو الندب حسبما هو عليه خلاف الفقهاء، أثره البعيد في فكر المشرعين والفقهاء حيث وضعُوا نظام الرق والمكاتبة والتدبير والولاء[3] الذي يعبِّر في مجمله على منهج الإسلام الواضح في تحرير الرق والذي وضع القرآن الكريم أسسه الأولى وسهر الرسول ﷺ في صدر الدعوة الإسلامية ومنطلقاتها الأولى على العمل على تنفيذه

(١) روح المعاني للألوسي.
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١٨/ ١٠٠.
(٣) مغني المحتاج للخطيب الشربيني ٤/٤٩١ ـ ٥٤٦.

وكان فيه التمهيد اليقيني لإلغاء الرق في النظم العالمية فيما بعد وفي أوائل القرن العشرين.

٦ ـ الإسلام والأسرى:

وفي ضوء هذا المنهج الواضح الذي وضعه الإسلام للتعامل مع الرقيق، فقد كان من أولى المشاكل الاجتماعية والسياسية التي واجهت المجتمع الإسلامي، مشكلة أسارى بدر، الذين وقعوا في أيدي المسلمين يوم ذاك. ومعلوم أن الأسرى هم في الواقع في نظر الشرائع الشائعة في ذلك الزمن، من أهم المصادر التي كانت تغذِّي وجود الرقيق في العالم.

وإنَّ المسلمين سوف يكونون في حرج شديد لأنَّهم إن تركوا أسارى العدو وحرَّروهم دونما مقابل فماذا سيكون مصير أسراهم الذين وقعوا أو سيقعون في أيدي العدو؟!

على أنَّ موضوع الأسرى هذا وإن كان قد وقع قبل نزول آية المكاتبة المذكورة سابقاً، إلاَّ أنَّه كان بالفعل قد مهَّد لظهور الموقف الإسلامي بالنسبة لموضوع الرقيق عامة... لقد كانت مشكلة الأسرى هذه بعد انتهاء معركة بدر الكبرى، وكان على الرسول ﷺ أن يصدر قراره فيهم. وقد استشار أصحابه يوم ذاك. وقد ثبت أنَّه قتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث لما كان منهما من شدَّة المؤاذاة للرسول ﷺ وللدعوة ثمَّ فادى سائر الأسارى...

وقد ثبت أيضاً أنَّه في مناسبة أخرى منَّ على ثمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده، وأخذ من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين، وهبط عليه ﷺ قوم من أهل مكة فأخذهم ومنَّ عليهم، وقد منَّ

على سبى هوازن. وكل هذا ثابت في الصحيح[1].

ولا ريب أنَّ كل هذه المواقف منه ﷺ مع الأسارى تدل على عميق حرصه على أن تبقى للإنسان حريّته، وأن يكون الإسلام دوماً مساعداً على تحقيق هذه الحرية إذا لم يكن ثمة فيها من خطر على المصلحة العليا.

الإسلام والحريّات العليا:

ولعلَّ من المفروض هنا أن نتطرق إلى الكلام عن موقف الإسلام بالنسبة للحريّات، حريّة الفكر والرأي والاعتقاد والحريّة الاجتماعية، وهو دونما ريب موقف التقديس لارتباطها فيها بقيمة الإنسان وكرامته التي أكَّد الإسلام احترامه لها وتقديره وحظَّر المس بها دونما حق..

ولقد ثبت أنَّ الرسول ﷺ كان يستمع لنقاش أتباعه المؤمنين، بل ولاعتراضاتهم في كثير من الأحيان فيما له علاقة بشؤون الحياة فيقبل الكثير منها. فقد قال له الحباب بن المنذر بن عمر بن الجموح يوم بدر عندما نزل الرسول ﷺ على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلاً أنزلكه الله، فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال عليه السلام: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» فقال يا رسول الله: إنَّ هذا ليس لك بمنزل، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونغوّر [ندفن] ما وراءه من القُلُب، ثمَّ نبني عليه حوضاً فنملأه فنشرب ولا يشربون. فاستحسن الرسول ﷺ ذلك من رأيه وفعله»[2].

---

(١) القرطبي ٢٢٨/١٦.
(٢) المصدر نفسه ٣٧٥/٧.

وروى السدّي أنَّ رجلاً من الأنصار يقال له أبو حصين كان له إبنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الخروج، أتاهم ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا ومضيا معهم إلى الشام: فأتى أبوهما رسول الله ﷺ مشتكياً أمرهما ورغب في أن يبعث رسول الله من يردّهما فنزل قوله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّيْنِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ ولم يؤمر يومئذٍ بقتال أهل الكتاب. وقال «أبعدهما الله هما أول من كفر» فوجد أبو الحصين في نفسه على النبي حين لم يبعث في طلبهما فأنزل الله جلّ ثناؤه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُوْنَ حَتَّى يُحَكِّمُوْكَ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[1].

وهاتان الواقعتان ليستا على سبيل الحصر، فهناك وقائع لا تعد ولا تحصى ولا سبيل إلى درجها هنا، ولكنها كلها تخرج من مشكاة واحدة، هي تأكيد الإسلام المحافظة على الحريات، والدفاع في وجه كل من يريد بها شراً، وبالذات في وجه الأنظمة القديمة والأعراف والعادات التي أهدرتها وأهدرت معها كرامة الإنسان فعومل في ظلّ الكثير منها معاملة الحيوان الأعجم.

القرآن والرسول المربيان:

لقد كان الرسول ﷺ يتابع مهمته التشريعية من خلال أسلوبه التربوي العظيم الذي كان يتخطى به أساليب العصر الحديث وذلك عن طريق طبع النفوس بأحلى الصفات وأجمل الخصال. ولا غرو فالقرآن الذي كان يحدوه ويوجهه إلى الهدى والخير، كتاب تربية وتعليم، وبالذات عندما نراه يكرر القصة والحكم والحكمة، والإشارة الكونية

---

(١) المصدر نفسه ٢٨١/٣.

والإنسانية مرات ومرات وبأساليب منوّعة وعرض مختلف. وما أجمل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1].

ولولا أنَّ القرآن الكريم نزل ومن مقاصده الأولى التعليم والتربية، لكان يكفي أن يسوق الله تعالى لنا منه آيات قليلة جامعة لبعض مقاصد الإسلام مثل سورة العصر أو سورة الإخلاص أو بعض آيات الأحكام والآيات التي روت بعض قصص الأولين. وهي في مجموعها لا تساوي عشر معشار ما أنزله الله تعالى على قلب محمد ﷺ.

لقد كان العرب يوم تحدر القرآن الكريم من اللوح المحفوظ، مهيئين بفضل الله لتقبّل ما كان يحمله لهم من علم وهـدى ونور، فاحتملوه بلهفة وشوق وبرغبة المحب، ذي القلب المنفتح على كل خير وحق، فصلحت به نفوسهم وصاروا أئمة الناس في كل شيء.

روى الإمام أحمد والطبراني في الكبير أنّ صعصعة بن معاوية أتى النبي ﷺ فقرأ عليه. ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾، فقال: حسبي أن لا أسمع غيرها «وروي أنَّ بعض الأعراب سمع النبي ﷺ يقرؤها فقال يا رسول الله: أمثقال ذرة؟ قال: «نعم» فقال الأعرابي: «واسوأتاه!! ثمَّ قام وهو يقولها. فقال النبي ﷺ: «لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان».

وروي عن زيد بن أسلم رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ دفع رجلاً إلى رجل يعلمه فعلَّمه حتى بلغ هذه الآية. فقال حسبي!! فذكر الرجل المعلم ذلك للنبي ﷺ فقال له: «إنَّ فيها ذرات كثيرة» وذلك اهتداءً بهذه

(١) الجمعة/ ٢.

الآية ويقوله ﷺ من حديث مسلم: «لا تحقرنّ من المعروف شيئاً».

كل ذلك لأنَّ القرآن قصد فيما قصد والله أعلم تربية النـاس وتعليمهم، ولأنَّ الرسول ﷺ حامله إلى الناس لم يكن سلطاناً جباراً، بل كان رسولاً هادياً ومعلماً ومصلحاً ومهذباً.

والقرآن على كل حال هو كتاب الله وهو يحوي كلام الله الأزلي ووصاياه وشرائعه إلى الناس. والله خالق كل شيء والعالم بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو يعلم السرَّ وأخفى، ويعلم ما تكنُّه الصدور وتطويه الأنفس والعقول يقول الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾؟ وإذا كان الله تعالى خالقاً للإنسان وعالماً بتركيبه النفسي والفكري والجسدي، فهو أيضاً عالم بالأسلوب الذي يؤثر فيه والتوجيه الذي ينفعه ويصلحه. ومن هنا كان ما هو وارد في القرآن الكريم من مواعظ وتوجيهات ووصايا كافياً لهداية كل نفس بارَّة خالية من صفات الحقد والغرض والهوى..

النهي عن اتباع الهوى:

ولقد كان من أبرز ما عالجه القرآن في طبيعة الإنسان ونفسه ليكفل سعادته الدنيوية والأخروية هواه. وكان من أبرز ما حضه عليه وأمره به تقوى الله كما رأينا سابقاً. ولقد كان مجموع ما ورد في القرآن الكريم من آيات تذم اتِّباع الهوى وتحذر من خطورته وضرره قريباً من ثلاثين آية.

ومن آيات النهي عن اتباع الهوى ما اعتبر المنجرف فيه أصم مغلق العقل لا يدرى ما حوله وقد شبهه بالأنعام السائحة التي لا تعقل ولا تهتدي إلى سبيل، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ

﴿وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَن أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُوْنَ أَوْ يَعْقِلُوْنَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

قال الفخر الرازي: «أم، ها هنا منقطعة معناه بل تحسب. وذلك يدل على أنَّ هذه المذمَّة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول لشدة عنادهم لا يصغون إلى الكلام. وإذا سمعوه لا يتفكرون فيه فكأنَّه ليس لهم عقل ولا سمع البتة. فعند ذلك شبههم بالأنعام في عدم الانتفاع بالكلام، وعدم إقدامهم على التدبر والتفكر وإقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية وإعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية»[2].

بل إنَّه تعالى جعلهم في آيات أخرى أكثر ضلالاً من الأنعام وذلك «لأنَّ الأنعام تنقاد لأربابها وللذي يعلفها ويتعهدها، وتميز بين من يحسن إليها وبين من يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها. وهؤلاء متبعو الهوى لا ينقادون لربِّهم ولا يميزون بين إحسانه إليهم وبين إساءة الشيطان إليهم، ولا ينشدون الثواب والجزاء الحسن وهما أعظم لهم نفعاً، ولا يتوقَّوْن ما يفضي بهم إلى أشد العقاب وأسوأ المصير وهما من أشد ما يضر بهم ويخزيهم، فضلاً عن أنَّ قلوب الأنعام إن خلت من العلم فقد خلت أيضاً من الجهل، أما متبعو الهوى فقد خلت قلوبهم من العلم والحكمة. ولكنها اتصفت بالجهل والعمى والعناد على الباطل. ثمَّ إنَّ جهل الأنعام لا يضر بأحد بينما نرى جهل متبعي الهوى قد يسبب ضرراً عظيماً للآخرين»[3].

---

(١) الفرقان/ ٤٢ - ٤٤.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٤/٨٦.

(٣) تفسير الفخر الرازي ٢٤/٨٦.

«ومن أجل هذا قال الله تعالى في متبعي الهوى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُوْنَ﴾[1] ثمَّ اعتبره مضللاً من الشيطان الذي زين له سوء عمله وأغراه بالاندفاع وراء الهدى دون أن يتروى تروياً يستبين به الأمر وينجلي له الحق من الباطل والهدى من الضلال فقال فيه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوْءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوْا أَهْوَاءهُمْ﴾[2].

كذلك شأن كل الذين استعجلوا أطايب الحياة ولذائذ الجسد، فاندفعوا دونما وعي أو دراسة، فانقلبوا إما منافقين أو حاسدين، وإما باغين ظالمين، وإما سفكة دماء يعيثون في الأرض فساداً، ويصدُّون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً.

(١) الجاثية/ ٢٣.

(٢) محمد/ ١٤.

الفصل السابع

تنظيم الأسرة

١ ـ مقام الوالدين واحترامهما:

وكما ينطلق النهر الرقراق في انسيابه وتحدُّره نحو غايته التي كتب الله له أن ينتهي إليها ويؤدي في طريقه مختلف المهمات؛ يتحمل العشب والأغصان المكسَّرة والطمي وكل ما يلقاه في تحدُّره مما ينفع أو لا ينفع ليلقي به في النهاية في البحر أو ليحوِّله إلى ما ينفع الناس والأرض، ويسقي في طريقه أيضاً العطاش من خلق الله من الحيوان والنبات والإنسان ممن لهم مختلف الأنشطة والأدوار ووسائل العطاء، كذلك الإسلام ظلَّ من أيام انبعاثه الأولى من قلب المدينة المنوَّرة حتى هذا التاريخ وسيبقى ـ بإذنه تعالى ـ حتى يرث الله الأرض ومن عليها، يعالج الإنسان فرداً أو جماعة، ذكراً أو أنثى وعلى اختلاف مشاربه واتجاهاته، ويقدِّم له ما ينفعه من النصح في بدنه وفي قلبه وفكره، وما يصلحه في ذاته في حاضره أو مستقبله وفي دنياه وآخرته، ويجتهد ليصرف عنه السوء أيّاً كان مادياً أو معنوياً.

وكان من أوائل اهتماماته ترسيخ مفهوم تكريم الوالدين والإحسان إليهما الإحسان كلّه أيّاً كان اعتقادهما أو سلوكهما وذلك بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّينا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إحْسَاناً﴾[1] وقوله: ﴿وَإنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً. ﴾[2].

ولا غرو فإنَّ رباط الأبوّة والبنوّة هو الأول في العلاقات الإنسانية في قوته وأهميته بعد رباط الإيمان بالله. وهو الأول بعده في وجوب الرعاية والتقدير. لأنَّ آصرة الدم لا تتقدمها في الحياة آصرة سوى آصرة الإيمـان.

وصحيح أنَّ الإسلام ندَّد بما كان عليه الجاهليون من تعظيم الآباء والتعاظم بهم وتقليدهم في كل شيء واتباع آثارهم. ولكن تنديده هذا، لم يكن على سبيل الإطلاق والعموم، بل كان في وجه التعظيم الظالم الذي ارتفع بهم إلى درجة التقديس، وفي بعض الحالات، إلى درجة العبادة، وهو شأن طبيعي للإسلام الذي جاء ليرفع لواء الإيمان بالله وحده، ويذر ما سواه. ويعتبر الخلق كلهم عباد الله. منهم الصالحون وكثير منهم ساء ما كانوا يعملون.

وانسجاماً مع منهجه السليم جاء الإسلام يوصي بالإحسان إلى الأبوين، وصية مطلقة من أي قيد أو شرط لأنَّه يرى أنَّ الأبوين هما وحدهما الحاضنان الفريدان للأسرة التي تشكل اللبنة الأولى في بناء مجتمعه. وأجنحتهما هي الأجنحة الأولى التي تنمو في دفئها عناصر

(١) الأحقاف /١٥.

(٢) لقمان /١٥.

الأسرة وتترعرع وتنهل من عطائها السخي رحيق الحب الطاهر كما تتلقى أوائل بذور الفهم والعمل المشترك.

وقد ثبت أنَّ ما يتوفر للأولاد في حضانة أبويهما من الحب والعطف والرعاية والتربية والتعليم والحفظ، لا يتيسر لهم في حضانة غيرهما من الآباء المصطنعين، مهما اتَّصف هؤلاء به من أوصاف الاستقامة وحسن الرعاية واتقان وسائل التربية والتهذيب. وأنَّىٰ لهؤلاء الآباء المصطنعين أن يبلغوا شأو الآباء الحقيقيين؟ الأم التي تعطي ولدها منذ تكونه في جنينها عصارة دمها ولحمها وعظمها لتوفر لـه مادة التكوُّن والنمو، وخلاصة حبها وحنانها لتحقق له الرعاية التامة والعناية الكاملة. وتستمر على ذلك دونما سأم أو ملل أو كلل، بل برضى وسعادة يصعب وصفهما... والأب الذي لا يني صباح ومساء وفي كل آن ووقت من آناء الليل وأطراف النهار يشاطر زوجته حنانها وحدبها ورعايتها وعنايتها، ويقاسمها مسؤولية حفظه حتى يكتمل ويكون كائناً سويًّاً. ويسعى ضارباً في الأرض ليوفر له ولأمه الحاضنة الرزق وكل ما يفتقر إليه من حاجة ومتاع.

من أجل هذا وجَّه الإسلام همَّه إلى الوالدين فرعى مكانتهما وأوصى بالإحسان إليهما إحساناً كبيراً، فقال تعالى: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾[1].

ووصية الله تعالى هذه بالوالدين فيها كل التوجيه إلى فضلهما

(١) الإسراء/ ٢٣ ـ ٢٤.

بحيث جاء حكمه الأزلي يسترعي وجدان الأبناء وكل ما يتوفر في قلوبهما من حب وبر، ويحضهما على تكريم الأبوين وبالذات عند بلوغهما الكبر وحالة الضعف والعجز، وذلك حتى لا تأخذ أحدهم وهو في سن الشباب والقوة آخذة الغرور والحمق ويتنكّر لأفضال أبويه التي لا تنسى والتي لا يمكن أن تسامى بنبلها وشرفها. وقد أخرج الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن بريدة عن أبيه: أنَّ رجلاً كان في الطواف حاملاً أمَّه يطوف بها، فسأل النبي ﷺ: «هل أدَّيت حقَّها؟ قال: لا ولا بزفرة واحدة»[1] وقد صح أنَّ رجلاً جاء يستأذن النبي ﷺ في الجهاد معه فقال: أحيٌّ والداك؟» قال: نعم. قال ففيهما فجاهد»[2]. وعن أبي عبد الرحمن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثمَّ أيّ؟ قال: «برّ الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» متفق عليه[3].

وقد اعتبر الإسلام الإساءة إلى الوالدين وقطع الصلة بهما والاستمرار بذلك عقوقاً. وأنزل العقوق منزلة الكبيرة. وقد ثبت ذلك في الحديث الذي سئل فيه ﷺ عن الكبائر فقال: تسع: أعظمهنَّ الإشراك وقتل النفس المؤمنة بغير حق، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة والسحر، وأكل مال اليتيم وأكل الربا وعقوق الوالدين المسلمين».

فضلهما:

وكما اعتبر الإساءة إليهما عقوقاً، أبرز فضل برّهما: فقد روي عن

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/١٥.
(٢) روح المعاني للألوسي ٥٧/١٥.
(٣) منهل الواردين ٢٤٨/١.

النبي ﷺ أنّه قال: «رَغِمَ أنف ثمَّ رغم أنف، ثمَّ رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر؛ أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنَّة»، رواه مسلم. بل ونصح المسلم بأن يصلي عليهما عند الموت ويدعو لهما ويستغفر، كلما ذكر ذلك وينفذ عهدهما أو وصيتهما من بعدهما، وأن يصل رحمه وأن يكرم صديقهما ومن كانا يودانه. كل ذلك برّاً بهما حتى بعد الموت. فكيف بمعاملتهما مدى الحياة وعند الكبر؟؟

وقد ورد عن أبي أَسَيْد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال: بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: «يا رسول الله: هل بقي من بِرِّ أبوي شيء أَبَرُّهما به بعد موتهما؟ فقال نعم: الصلاة عليهما [أي الدعاء لهما والاستغفار وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلَّا بهما وإكرام صديقهما]» رواه أبو داود.

وليس من ريب في أنَّه إذا نشأت الأسرة وتكوَّنت وعلى رأسها ربٌّ له مكانته وحرمته اللتان تجعل كلمته مسموعة ونصيحته مطاعة، كانت أسرة متماسكة مرصوصة الأطراف ثابتة البنيان قادرة على مواجهة كل ما قد يصادفها من أحداث ومشاكل وتخرج منها مرفوعة الرأس ناصعة الجبين. . .

٢ ـ شريعة الزواج:

وقد علَّم النبي ﷺ أصحابه المحافظة على حقوقهم وأداء ما عليهم من واجبات في كل شأن من شؤون الحياة وبخاصة في الزواج. وبتشريع راق وأمر صارم رفع الإسلام قدر المرأة في المجتمع الإسلامي فجعلها شقيقة الرجل، ومن جنسه، وأبان بأنَّه لا تقوم المجتمعات الإنسانية

الصغيرة والكبيرة بدونهما فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوْباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[1] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيْراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوْا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُوْنَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[2] وقال ﷺ: «النساء شقائق الرجال»[3] ولذلك خاطب الله تعالى النساء وطالبهن بالإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة كما خاطب الرجال.

وجعل لهنَّ مثل الذي عليهنَّ بالمعروف فقال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوْفِ وَلِلرِجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[4]. والآية تدل كما قال صاحب المنار: «على اعتبار العرف في حقوق كل من الزوجين على الآخر ما لم يحل العرف حراماً أو يحرّم حلالاً مما عرف بالنص. وقد ذهب أكثر الفقهاء إلى القول بأنَّ حق الرجل على المرأة ألا تمنعه من نفسها بغير عذر شرعي، وحقها عليه النفقة والسكنى، إلخ. وقالوا لا يلزمها عجن ولا خبز ولا طبخ ولا غير ذلك من مصالح البيت أو مال الرجل أو ملكه... قال في حاشية المقنع بعد ذكر القول بأنَّه لا يجب عليها ما ذكر «وقال أبو بكر ابن أبي شيبة والجوزجاني: عليها ذلك. واحتجَّا بقضية علي وفاطمة رضي الله عنهما؛ فإنَّ النبي ﷺ قضى على ابنته فاطمة بخدمة البيت وعلى علي ما كان خارجاً من عمل» رواه الجوزجاني من طرق. قال: وقد قال ﷺ: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. ولو أنَّ رجلاً أمر امرأته أن تنتقل

---

(١) الحجرات/ ١٣.

(٢) النساء/ ١.

(٣) رواه أبو داود وأحمد والترمذي عن عائشة أم المؤمنين.

(٤) البقرة/ ٢٢٨.

من جبل أسود إلى جبل أحمر أو من جبل أحمر إلى جبل أسود لكان نولها [أي حقها] أن تفعل ذلك. رواه بإسناده. قال فهذا طاعة فيما لا منفعة فيه فكيف بمؤنة معاشه؟»(١).

وهكذا فقد جعل الإسلام للحياة الزوجية قدرها وشرع لها من التشريعات ما يحفظها ويحفظ الأسرة من أخطار الطغيان والظلم والفوضى. ولقد نعمت في ظلها وخيّم عليها ظلال السكينة والأمن. وقد جاء تفصيل تلك التشريعات في الكتاب والسنّة، حيث أبانا حقوق كل من الزوجين وواجباته تجاه الآخر، وحدوده في التعامل معه في الحياة وبعد الموت وحقوق الآباء على الأبناء والأبناء على الآباء، بياناً شافياً فيه ضمان العدل بالقسطاص وتأمين سعادة الأسرة وبالتالي المجتمع. ونسوق فيما يلي بعض الإصلاحات التي أجراها الإسلام في مجتمعه الجديد على حياة المرأة والأسرة بعد المقدمة التالية.

صيغ الزواج المحرَّمة:

لقد كان شائعاً عند العرب في جاهليتهم صيغ من الزواج الفاسد الذي كان قد ابتلي بها كثير من الشعوب، ولا يزال بعضها متعاملاً بها في البلاد المتخلفة. ومن ذلك أنَّ الرهط من الرجال كانوا يشتركون في الدخول على المرأة الواحدة، ويكون من حقِّها هي أن تحدد نسب الولد إذا حملت وتلحقه بمن تشاء منهم.. ومن ذلك نكاح الاستبضاع، وهو أن يأذن الرجل لزوجته أن تمكن من نفسها رجلاً معيَّناً من الرؤساء والكبراء الممتازين بالشجاعة أو الكرم أو الذكاء ليكون لها منه ولد مثله. ومن ذلك نكاح السفاح بالبغاء العلني وكان عند العرب خاصاً بالإماء دون

---

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٣٧٨/٢.

الحرائر. ومنه اتخاذ الأخدان أي الصواحب والعشيقات. وكان عرب الجاهلية يستترون به ويعدون الظهور به لؤماً وخسَّة.. ومن صبغ الزواج التي كانت شائعة عند العرب أيضاً نكاح المتعة. وهو النكاح المؤقت وقد شاع أخيراً في بلاد الإفرنج ويسمونه نكاح التجربة وهو نكاح تُبيحه الشيعة الإمامية.. ومنه نكاح البدل وهو أن ينزل رجلان كل منهما عن امرأته للآخر. ونكاح الشغار وهو أن يزوج كل من الرجلين الآخر بنته أو أخته أو غيرهما ممن هي تحت ولايته بدون صداق. وهذان النوعان من الزواج مبنيان على قاعدة حسبان المرأة ملكاً للرجل يتصرف بها كما يتصرف بملكه من المال والمتاع. ولا يزال بعض الشعوب الجاهلية كالغجر تمارسه حتى الآن. ولا ريب أنَّ الغبن واضح في كل ذلك على النساء...

بل وقد كانت تشيع في بعض القبائل العربية خصال سيئة في معاملة النساء، وذلك مثل الاستبداد في تزويجهنَّ وإكراههن على الزواج ممن يكرهن أو منعهنَّ من الزواج ممن يرغبن، أو مثل أكل مهورهنَّ. أو الزواج بعدد لا حصر له منهن وغير ذلك.

الإصلاحات التي قام بها الإسلام في حياة الأسرة:

وهكذا فقد خطا الإسلام في مجتمع المدينة خطواته الإصلاحية في حياة الأسرة المسلمة فكان منها:

١ ـ اتجه الإسلام بتشريعاته إلى الرجل والمرأة على حدّ سواء؛ فطالب كلاً منهما مثل ما طالب به الآخر في حدود إمكاناته ومؤهلاته وجعل جزاءهما واحداً عند الله. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحَاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

يَعْمَلُوْنَ﴾[1] وقال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيْعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾[2].

٢ ـ صارت المرأة في المجتمع الإسلامي الجديد ركناً من أركانه العاملة كالرجل سواء بسواء. فأصبحت مطالبة مثله بأداء ما افترضه الله على عباده من الفرائض في العبادات. ولكنه فيما يتعلّق بالعبادات الاجتماعية أجاز لهنَّ المشاركة فيها دون أو يوجبها عليهنَّ، وذلك تخفيفاً عنهن بسبب مهامهنَّ المنزلية التي قد لا تُيَسّر لهنَّ المشاركة فيها، أو بسبب ما قد يعتريهنَّ من أحوال صحيّة بالحمل وسواه لا تسمح لهنَّ. يقول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُوْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيْمُوْنَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ وَيُطِيْعُوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾[3]. ومن هذه الآية يتّضح ثبوت الولاية المطلقة للمؤمنين كافة وفيها تدخل ولاية الأخوّة والمودة والتعاون المالي والاجتماعي وولاية النصرة الحربية والسياسية[4].

ولقد كان ذلك كله في حدود إمكاناتها وما تخولها إياه ظروفها البيتية والصحية والنفسيَّة فأسقط عنها وجوب القتال بالفعل ووجوب حضور الجماعات يوم الجمعة وفي الصلوات الخمس المكتوبة وغيرها. ولكنه أجاز لهنَّ المساهمة بالخروج للقتال لعمل ما يساعد المقاتلين ويخدم أغراضهم وكذلك حضور الجماعات والمشاركة بالأعمال العامة في

(١) النحل/ ٩٧.
(٢) آل عمران/ ١٩٥.
(٣) التوبة/ ٧١.
(٤) نداء إلى الجنس اللطيف لمحمد رشيد رضا/ ٧.

الحدود التي لا تسيء إلى مصلحة الأسرة. وقد أجاز الرسول ﷺ لنسائه ولنساء أصحابه بالخروج معهم في الغزوات. وثبت أنَّهنَّ كنَّ يسقين الجرحى، ويجهّزن الطعام ويضمّدن الجراح ويحرّضن على القتال. وثبت في الصحيحين أنَّ زوج النبي ﷺ كانت تحمل قرب الماء هي وأم سليم وغيرهما إلى الجرحى في غزوة أحد يسقينهم ويغسلن جراحهم، وأنَّ فاطمة رضي الله عنها هي التي تولَّت يوم أحد عندما جرح رسول الله ﷺ غسل جراحه.

٣ ـ وقد جعل الإسلام من حق المرأة المشاركة في تحمل مسؤولية الإصلاح بصورة عامة وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي مخيَّرة بين أن تقوم به قولاً أو كتابة وبكل الأساليب التي تتمكن من التوسل بها. ويدخل في ذلك توجيه النقد إلى الحكام من الخلفاء والملوك والأمراء، والتصدِّي لكل ظاهرة فساد بغية إزالتها أو إصلاحها وذلك ضمن الحدود المشروعة التي تفرضها وظيفة الأمر والنهي.

وقد روي أنَّ عمر بن الخطاب رأى الناس قد غالوا في مهور النساء فخاف عاقبة ذلك فنهى الناس عن أن يزيدوا فيها على أربعمئة درهم. فاعترضت له امرأة من قريش وقالت له إنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوْا مِنْهُ شَيْئَاً ﴾ فقال عمر اللهمَّ غفراناً، كل الناس أفقه من عمر» وفي رواية أنَّه قال: امرأة أصابت وأخطأ عمر. وأعلن رجوعه عن ذلك.

٤ ـ وقد بايع رسول الله ﷺ النساء كما بايع الرجال على السمع والطاعة والنصرة، فعل ذلك في عَقَبة مِنى قبل الهجرة، ويوم فتح مكة حيث وقف على الصفا بعد أن فرغ من بيعة الرجال على الإسلام

والجهاد. وكان عمر بن الخطاب أسفل منه يبلغه عنهنَّ. وكانت هند بنت عُتبة في النساء، فقرأ ﷺ عليهن قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّه شَيْئاً ﴾ فقالت هند هنا وكيف نطمع أن يقبل منا ما لم يقبله من الرجال؟ يعني أنَّ هذا بيِّن لزومه فلما قال. «ولا يَسْرِقْنَ» قالت هند والله إني لأصيب الهِنَة من مال أبي سفيان لا يدري، أيَحِلُّ لي ذلك؟» فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها: «وإنَّك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك!! فأتمَّ القراءة وقال: ﴿وَلَا يَزْنِيْنَ ﴾ فقالت: أو تزني الحرَّة؟ تريد أن الزنى في الإماء، بناءً منها على ما كان شائعاً في الجاهلية من أنَّ الحرَّة لا تزني غالباً. فقال: ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ فقالت: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً، تعني ما كان من أمر ابنها حنظلة بن أبي سفيان فإنَّه قتل يوم بدر. فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله ﷺ. وفي رواية أنَّها قالت: قتلت الآباء وتوصينا بالأولاد؟ فضحك ﷺ ثمَّ قرأ: ﴿ وَلَا يَأْتِيْنَ بِبُهْتَانٍ ﴾ فقالت والله إنَّ البهتان لأمر قبيح ولا يأمر الله تعالى إلَّا بالرشد ومكارم الأخلاق. ثمَّ قرأ ﴿ وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِي مَعْرُوْفٍ ﴾ فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء»[1].

٥ ـ وقد فتح الإسلام للمرأة كل أبواب الخير كما فتحها للرجل، وشجعها على طلب العلم فاشتركت مع الرجل في التردد على حلقات الدرس في مسجد الرسول ﷺ. وقد بلغ من اهتمام النبي ﷺ بتعليم المرأة وتربيتها التربية الصالحة، وتزويدها بالعلم الديني الصحيح، أنَّه ذكر فيمن يؤتيهم الله تعالى أجرهم مرتين يوم القيامة، أي مضاعفاً،

(١) تفسير الألوسي ٢٨/ ٨٠.

قوله ﷺ: «أيّما رجل كانت عنده وليدة فعلَّمها فأحسن تعليمها وأدَّبها فأحسن تأديبها ثمَّ أعتقها وتزوجها فله أجران.

٦ ـ وقد زاد من عنايته بها حتى كشف عنها كل مظاهر الحرمان والتضييق التي تحاط بها في الجاهلية؛ فأثبت لها حق التملك لأنواع المال، والتصرف به في الوجوه المشروعة التي تراها. وأجاز لها الوصية والإرث كما أجازهما للرجال، وزادهنَّ ما ألزم الرجال به لهنَّ من المهور والنفقة حتى ولو كانت غنيَّة، ومنحهنَّ حق البيع والشراء، والإجارة والرهن والهبة والصدقة وغير ذلك من الدفاع عن حقوقها وأموالها وعن نفسها بالوسائل المشروعة التي أقرَّها الإسلام، كل ذلك في الوقت الذي لا نزال حتى هذا التاريخ نرى بعض تصرفات نساء أوروبا مقيَّدة بإذن أزواجهنَّ. وقد قال الله تعالى في إثبات حقهن في الإرث: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُوْنَ وَلِلْنِسَاءِ نَصيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُوْنَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾[1]. ثمَّ يقول في تحديد نصيبها وقد جعله نصف نصيب الذكر﴿وَلِلْذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلأُنْثَيَيْنِ﴾ وذلك لأنَّ الإسلام أوجب على الرجل نفقة المرأة كما أوجب عليه مهرها وأعفاها هي من كل ذلك. وبذلك أنقذها من مسؤولية السعي في الأرض وركوب أخشن المراكب وأصعبها بحثاً عن الرزق وجمع المال.

٧ ـ وقد كان من مظاهر إعلاء الإسلام لقدر المرأة ومنحه إياها حقها في تقرير مصيرها، أن منع الأولياء من الاستبداد في تزويجها، كما كان شأن الجاهليين معها. فروى الجماعة[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ

---

(١) النساء/ ٧.

(٢) البخاري ومسلم و أصحاب السنن الأربعة.

رسول الله ﷺ قال: «لا تنكح الأَيِّم[1] حتى تستأمر، ولا البكر حتى تستأذن. قالوا يا رسول الله! وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت» وروى البخاري عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «الثيِّب أحق بنفسها من وليِّها. والبكر تستأذن في نفسها وإذنها صماتها». أي سكوتها. فيكتفي به بدون تكليفها بالتصريح لغلبة الحياء عليها. كما روي عن عائشة رضي الله عنها أنَّها سألت النبي ﷺ عن استئذان البكر، فقالت: «إنَّ البكر تستأذن فتستحي فتسكت فقال: «سكاتها إذنها» متفق عليه. وروى الجماعة إلَّا مسلماً عن خنساء بنت حذام الأنصارية أن أباها زوَّجها وهي ثيِّب فكرهت ذلك، فأتت رسول الله ﷺ فردَّ نكاحها. أي أبطله.

وروى أحمد والنسائي من حديث ابن بريدة وابن ماجة من حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه قال جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت: «إنَّ أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته. قال: فجعل رسول الله ﷺ الأمر إليها. فقالت قد أجزت ما فعله أبي، ولكن أردت أن أعلم النساء أنَّه ليس إلى الآباء من شيء. تعني أنَّه ليس لهم إكراههن على التزوج بمن لا يرضينه».

٨ ـ وقد أضاف الإسلام إلى كل ما سبق أنَّه استوصى بالنساء خيراً وأنزلهنَّ منزلة سامية فقال ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنَّ المرأة خلقت من ضلع أعوج. وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته. وإن تركته لم يزل أعوج»[2]. وقال: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[3] وقال خيركم خيركم للنساء» وقال: «ما أكرم النساء إلَّا

---

(١) الأَيِّم بتشديد الياء وكسرها غير المتزوجة بكراً كانت أو ثيِّباً.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه الترمذي عن عائشة وابن ماجه عن ابن عباس والطبراني عن معاوية وهو صحيح.

كريم ولا أهانهن إلاَّ لئيم»[1] وقال لعمر: حين سأله عن آية الوعيد عن كنز الذهب والفضة: «ألا أخبركم بخير ما يكنز؟ المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرَّته وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»[2].

٩ ـ وقد حدَّد الإسلام عدد الزوجات اللواتي يحل للمسلم الجمع بينهنَّ بأربع وحرّم عليه ما فوق ذلك. علماً بأنَّ التعدد هذا كان شائعاً في الجزيرة كلها وغيرها دونما حصر، وظل كذلك شائعاً لدى الكثير من الشعوب والأمم وفي مقدمتها اليهود والنصارى؛ فقد كان اليونان الأثينيون يبيحون تعدد الزوجات بغير حساب. بينما أباح الإسبرطيون منهم تعدد الأزواج للمرأة الواحدة. وقد كان تعدد الزوجات شائعاً في أوروبا عند الغولوا في زمن سيزار حتى حظَّره جوستنيان، وأباحه بعض البابوات لبعض الملوك كشرلمان ملك فرنسا الذي كان معاصراً للخليفتين المهدي والرشيد من العباسيين.

وقد كان تعدد الزوجات شائعاً في اليهود قبل السبي في ملوكهم وأنبيائهم. وفي الفصل الحادي عشر من سفر الملوك الأول ما نصه: «وأحب سليمان نساء غربيَّة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميَّات وصيدونيات وحثِّيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم يدخلون إليكم لأنهم يجعلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبعمئة من النساء السيدات وثلاثمئة من الجواري فأمالت نساؤه قلبه».

ولكن الإسلام وإن كان قد أجاز التعدد، إلاَّ أنَّه حدَّده بأربع.

---

(١) رواه ابن عساكر عن علي وهو صحيح.

(٢) رواه أبو داود ابن أبي شيبة.

وهو العدد الذي تقتضيه مصلحة النسل وحالة الإنسان والمجتمع. واشترط في إجازته العدل بين الزوجين أو الأزواج، وذلك لمنع وقوع الظلم. فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾(١).

ثمَّ إنَّ إجازة التعدد في الإسلام ليست على سبيل الإيجاب والفرض، بل هي لمراعاة حالات المرأة والرجل الصحية والتي قد تسوق الرجل أحياناً وبخاصة في مثل عصرنا الحديث إلى الوقوع في الزنى والاستكثار من الأخدان. وهو ما يسيء إلى الحياة الاجتماعية ويضر بحياة الأسر ضرراً بعيداً. وهو ما وقع ويا للأسف فيه أكثر مجتمعات هذا الزمن المعاصر في أوروبا وأميركا بل وفي الشرق.

١٠ ـ بل لقد أجاز الإسلام للمرأة إجارتها وأمانها، إذا هي أجارت أو أمنت أحداً من الأعداء المحاربين، فقد ثبت أنَّ أم هانىء قالت لرسول الله ﷺ يوم الفتح: إني أجرت رجلين من أحمائي فقال ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أمّ هانىء»(٢) وقد ورد في بعض الأخبار أنَّها أجارت رجلاً، فأراد أخوها علي كرَّم الله وجهه قتله، فشكته إلى النبي ﷺ فأشكاها وأجاز جوارها وقد روى الترمذي في حديث حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «إنَّ المرأة لتأخذ للقوم» أي تُجير على المسلمين. وقد نقل ابن المنذر أنَّ المسلمين أجمعوا على صحة إجارة المرأة وأَمَانَها.

(١) النساء/ ٣.
(٢) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن الدَّيْبَع الشيباني ٢/ ٦٧١.

١١ ـ ولقد شاء الإسلام تطبيق الفطرة لدى الموازنة بين كفاءة الرجل والمرأة والمساواة بينهما. ولذلك هدم كل التقاليد التي كانت تجيز للرجل القوي الاستبداد بالمرأة والاستعلاء عليها. بيد أنَّه أبقى شيئاً واحداً جعله عصام الحياة الزوجية والصائن لكرامة المرأة والحامي لها من أن تتلاعب بها الأهواء. لقد سوَّى بينها وبينه في كل شيء كما سبق وعرفنا ولكنه جعل له عليها درجة القوامة وتحمَّل مسؤولية المصالح العائدة للأسرة بكاملها. فالحياة الزوجية كثيرة الأعباء الاجتماعية والمالية والصحية والتربوية وغيرها. وهي بمجموعها تكوّن المجتمع الصغير الذي لا يجوز أن يترك نهباً للفوضى والعفويات والخلافات تهيمن عليه، فكان لا مناص له من رئيس يحسم الأمر فيه عند تضارب المصالح والميول واختلاف الأهواء والاتجاهات لدى معالجة بعض الأمور واتخاذ بعض القرارات والمواقف. وما لم يكن هذا الرئيس القيم على الأسرة متوفراً، فلا سبيل إلى حفظ كيانها وإضفاء ظلال الستر والكرامة عليها. والرجل لاعتبارات كثيرة هو الأحق بهذا المقام وهذه المسؤولية لما يتمتع به من خصال لا تتوفر لدى المرأة، من قوَّة البدن والقدرة على تحمل الصعاب، واقتحام العقبات والتصدي لتحمل كبار المسؤوليات والمهمات. قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُوْنَ عَلَىٰ النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[1].

على أنَّ رئاسة الرجل وقوامته على المرأة وعلى البيت لم يشأ الله لها أن تكون رياسة استبدادية وقهرية كما كانت في الجاهلية وإلاَّ فما يكون الإسلام قد تقدَّم قيد أنملة في هذا المجال الإصلاحي، بل شاء لها أن تكون رئاسة نابعة من مصلحة الأسرة، وفائضة من معين الاحترام

(١) النساء/٣٤.

والتقدير ومقرونة بكثير من الحب والود ومعاني التعاون والإخلاص. ولذلك فإنَّ الله تعالى يأمرنا بقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾[1] وقال ﷺ: «لا يفرك[2] مؤمن مؤمنة. إن كره منها خلقاً رضي آخر» بل جعل الشورى أساساً هامًّا وركيزة ضخمة لا يليق بالزوجين الارتكاز إلَّا إليها في تعاملهما الزوجي. ولذلك فقد كانت القاعدة في نظام الحياة المنزلية أن يستوحي كل من الزوجين روح الشرع مما هو منصوص عليه في الكتاب والسنة، والتشاور والتراضي فيما لا نص فيه ومنع الضرر والضرار بينهما، والإحجام عن مطالبة أحدهما الآخر بما هو فوق طاقته ووسعه وذلك استناداً لقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾[3]. وكذلك قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ، وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ، وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾[4].

١٢ ـ ولقد كان من أبرز معالم الإصلاح التي أحدثها الإسلام في

---

(١) النساء/ ١٩.

(٢) يفرك أي يبغض.

(٣) البقرة/ ٢٣٣.

(٤) الطلاق/ ٦ ـ ٧.

عالم الأسرة المسلمة هو إباحة الطلاق رغم كراهته له وتثبيطه الناس عن الإقدام عليه إلَّا لضرورة.

ولا شك أنَّ الطلاق وسيلة من وسائل معالجة الحياة الزوجية عند تعذُّر الوفاق فيها. وبخاصة أنَّ سعادة الأسرة هي الغاية التي يعمل لها كل من الزوجين ويجتهدان وسعهما للموصول إليها بكل ما آتاهما الله من وسائل. وكثيراً ما يقع نقيض ذلك ويعجزان كلاهما أو أحدهما عن تأمين مقومات الحياة الزوجية الآمنة الهانئة فيثور بينهما التنافر الذي يدخلهما في صراع مقيت ويورثهما حقداً مميتاً تصبح معهما حياتهما في خطر، ويصبح حتماً عليهما اختيار أحسن العلاج لذلك وهو الطلاق والفراق تفادياً لدوام الشقاء أو لما لا يخطر في حساب من الأضرار والأخطار.

فالطلاق إذاً علاج مكروه لمشاكل الحياة الزوجية أباح الإسلام استعماله عند الضرورة القصوى وفي الحالات التي لا بدَّ منه لها. وهو شر قد ينقلب إلى خير.

ولقد كان معروفاً في شرعة بعض الأمم السابقة؛ كان معروفاً عند اليهود وكانت له مبرِّراته عندهم كعيوب الخلقة من الحول والعرج والإسراف والنهم والبطنة والزنا وكلها أمور متعلقة بالشكل تقريباً. وكان معروفاً عند الوثنيين ومنهم العرب وكانوا يمارسونه بما يوقع على المرأة الظلم الكبير. ولكن الإسلام مع إباحته، لضرورات تقتضيها الحياة الزوجية إنقاذاً لها، فقد اعتبره أبغض الحلال إلى الله بقوله ﷺ: «ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق» وبقوله: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[1] وبقوله: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس

---

(١) رواهما أبو داود من حديث ابن عمر.

فحرام عليها رائحة الجنَّة»[1].

وقد أبطل الإسلام ما كانت عليه عادة العرب من مُضارّة النساء في الطلاق فأبطل حق الرجل بإعادة مطلقته إلى عصمته من غير حصر بعدد حيث حصر الطلاق بمرّتين، وحرَّم على المطلق إعادة مطلقته إلى ذمته بعد الثالثة إلاَّ إذا تزوجت من غيره زواجاً مقصوداً لذاته وبعد طلاقها منه.

ولقد حرَّم الإسلام أيضاً على المطلق أن يأخذ من مطلقته ما كان قد أعطاه إليها، من مهر أو غيره كله أو بعضه. وحرَّم على المطلق إمساكها في عدَّة بعد عدَّة مضارَّة لها. كما حرَّم على أولياء المرأة عضلها ومنعها بعد انقضاء عدتها من مطلقها، من الرجوع إليه بعقد جديد إذا كانا قد تراضيا على ذلك بالمعروف وإصلاح ما كان فسد من أمر معاشرتهما، وذلك كله بقوله تعالى: ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقِيْمَا حُدُوْدَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيْمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوْهَا. وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ﴾[2].

وقد أوضح الحديث فيما روته عائشة أمر عضل الرجل لمطلقته فقالت فيما أورده السيوطي في أسباب النزول قالت كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة، وإن طلقها مئة مرة وأكثر، حتى قال رجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك. فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك، فذهبت المرأة فأخبرت النبي ﷺ فسكت حتى نزل قوله تعالى

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان (الترغيب والترهيب للمنذري ١٥٣/٤.
(٢) البقرة/ ٢٢٩.

في الآية السابقة ثمَّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوْهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوْهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوْهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً﴾(١) ونزل أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوْهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ﴾(٢).

وزاد الإسلام بأن منَع الرجل في مجتمع المدينة وغيرها إذا كان من المسلمين أن يحلف على امرأته بألاَّ يقربها مطلقاً، بحيث تصبح معلقة لا زوجة ولا مطلقة، وحدَّد له أجلاً هو أربعة أشهر، فإن عاد فيها وغفر الله له يمينه، وإلاَّ وجب عليه منع الضرر عن زوجته وذلك بتطليقها أو بإيقاع الطلاق عليه كما هو مذهب بعض الأئمة.

وكذلك وضع حدّاً للظِّهار الذي كان يأتيه العربي في الجاهلية، حيث كان يحلف على زوجته بأنَّها مثل أمه ويتركها دونما حل؛ فقد ألزم الإسلام المظاهِر في هذه الحالة إما أن يعتق رقبة قبل أن يمس زوجته التي ظاهر عليها، وفي حال عدم وجود الرقبة، ألزمه بصيام شهرين متتاليين من قبل أن يتماسّا، أو بأن يطعم ستين مسكيناً في حال عدم استطاعته ثمَّ تعود إليه. يقول الله تعالى: ﴿الَّذِيْنَ يُظَاهِرُوْنَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُوْلُوْنَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ. وَالَّذِيْنَ يُظَاهِرُوْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُوْدُوْنَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيْرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوْعَظُوْنَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ

---

(١) البقرة/ ٢٣١.

(٢) البقرة/ ٢٣٢.

خَبِيْرٌ. فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّيْنَ مِسْكِيْناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِيْنَ عَذَابٌ أَلِيْمٌ﴾(١).

بل إنَّه أعطى المرأة في حال مضايقة الرجل لها ومضارته إياها الحق بأن تطلب فسخ عقد الزوجية عن طريق المُخَالَعَة وذلك بأن تتخلى للزوج عن بعض مهرها أو عنه كله أو أن تدفع له مقابل ذلك أكثر من مهرها إذا كانت قادرة على ذلك.

وكل هذا يعبر بكثير من الوضوح عن التجديد في تحديد علاقة الزوجة بزوجها، أو عمَّا ينبغي أن تكون عليه مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي من الاحترام والصون والرعاية والتقدير، وإنَّه لا يجوز في حال من الأحوال أن تنقلب إلى متاع يباع ويشرى وتتلاعب به أهواء الفسقة من الرجال في سوق النخاسة والمتاجرة بالأعراض والكرامات(٢).

الإسلام والنساء المحرَّمات:

هذا وقد حدَّد الإسلام للمسلمين من يجوز لهم الزواج بهنَّ من النساء مسلمات أو غير مسلمات ومن لا يجوز لهم الزواج بهنَّ وذلك في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ لَمْ تَكُوْنُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمْ الَّذِيْنَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ

(١) المجادلة/ ٢ ـ ٤.

(٢) راجع في هذا البحث كتاب أحكام الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية للمؤلف مع الدكتور عدنان نجا من الصفحة ١٧ ـ ١٢٦ وكتاب نداء إلى الجنس اللطيف للشيخ محمد رشيد رضا. من صفحة ٣ ـ ١٠٣.

اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيْماً. وَالْمُحَصَنَاتِ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِيْنَ غَيْرَ مُسَافِحِيْنَ..﴾[1].

ثمَّ زاد فحرَّم الزواج من المشركات أو المشركين حتى يدخلوا في حظيرة الإيمان فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوْا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ. وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُوْنَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إلى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإذنه وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُوْنَ﴾[2].

كما بيَّن حرمة زواج المؤمنات من الكافرين بنص صريح من الكتاب الكريم أيضاً وذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيْمـانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُـوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوْهُنَّ إلى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[3] وعلى هذا جرى عمل المسلمين من عهد رسول الله ﷺ.. فحسم بهذين النَّصين القاطعين الأمر حسماً تاماً جازماً فمنع زواج المسلم من المشركة وزواج المسلمة من المشرك كما منع زواج المسلمة من الكافر أياً كان كتابياً أو غير كتابي حسبما هو واضح من ظاهر النص في آية سورة الممتحنة ومن تعامل الرسول والصحابة من بعده والتابعين وتابعيهم.

على أنَّ القرآن الكريم في سورة المائدة أجاز للمسلم الزواج بالكتابية العفيفة الصالحة بقوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ. وَطَعَامُ الَّذِيْنَ

---

(١) النساء/ ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) البقرة/ ٢٢١.

(٣) الممتحنة/ ١٠.

أُوْتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحَصَّنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحَصنَاتُ مِنَ الَّذِيْنَ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُوْرَهُنَّ مُحْصِنِيْنَ غَيْرَ مُسَافِحِيْنَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخدَانٍ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيْمَانِ فَقَد حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ[1].

وقد يعجب البعض من هذا الإجراء التشريعي فَيُخَيَّل إليه أن فيه حيفاً؛ حيث أجاز للمسلم الزواج بالكتابية، وحرَّم على المسلمة الزواج من الكتابي.. ولكن الذي يتتبع الحكمة من الإجازة والمنع في الحكمين يبطل عجبه ويشتد يقينه بعمق حكمة الإسلام فيما اتُّخذه من إجراءات تشريعية وبخاصة بالنسبة لهذا الموضوع.

فالزواج عقد اتفاق على إقامة شراكة حياة وتعاون بين رجل وامرأة يقوم في الأساس على افتراض وجود انسجام كبير بينهما في الأفكار والمعتقدات والمشارب النفسية والاتجاهات الحياتية. والعقائد الدينية هي في رأس ما يفترض أن يكونا عليه من الاتفاق والتفاهم قبل الزواج. وإنَّ مخالفة المسلم للكتابية التي أجيز له الزواج منها في بعض الأصول العقدية، حيث إنه ينكر الوهية المسيح وبنوّته لله تعالى الله عن ذلك، أو صلبه أو قتله، ويجزم بأنَّه رسول الله، وأنَّه ابن مريم البتول خلقه الله منها بمعجزة، إلَّا أنَّه يبقى مشاركاً لها بالإيمان بالله والملائكة والتوراة والإنجيل بأنهما أصلاً كتابان أنزلهما الله تعالى، أنزل الأول على موسى، والثاني على عيسى عليهما السلام. ويؤمن بالأنبياء والمرسلين من آدم حتى عيسى عليهم الصلاة والسلام ويؤمن باليوم الآخر وبالحساب والعقاب والجنَّة والنار.

---

(١) المائدة/ ٥.

وعلى هذا فإنّ المسلم لدى زواجه من الكتابية يمكن أن يكون معها على قدر كبير من الانسجام، وأن يكون مؤهلاً ليحفظها ويحفظ كرامتها ويصون عرضها وأموالها، ويتعاون معها لإنشاء بيت زوجي كريم مؤهل لإنجاب أولاد صالحين لبناء الحياة الصالحة وتحقيق العيش الكريم، وإذا كان قد بقي بينه وبينها خلاف فيما يتعلّق بعقيدتها ببنوة المسيح لله أو ألوهيته أو الصلب، فهو كفيل من خلال المحاورة الهادئة البناءة مع دوران الزمن بالتوصل لأن يوضح لها الحق ويوجد لديها القناعة التامة ببطلان ذلك.

أمّا المسلمة فإنّ وضعها يختلف كلياً، إن هي اقتحمت خطوة الزواج بالكتابي. فهي أولاً تخالف قطعاً نصاً واضحاً من كتاب الله ونهياً جلياً من نواهيه يمنعها من ذلك كما تخالف عمل الرسول وصحابته والتابعين لهم بإحسان. والنص هو قوله تعالى: ﴿لا هنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّوْنَ لَهُنَّ﴾ أي للكفار. والكتابي داخل في هذا النص حكماً بصورة لا تقبل التأويل مطلقاً. وكل متأول في هذه الصورة متجنٍّ أو صاحب هوى لا يقبل تأويله. وذلك لأنَّ الله تعالى حكم بالكفر بصورة جازمة على كل كتابي يؤمن بالتثليث ويقول بأنَّ الله تعالى هو ثالث ثلاثة، أو يقول إنَّ الله تعالى هو المسيح ابن مريم وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ. قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئَاً إنْ أَرَادَ أَنْ يَهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعَاً. . .﴾[1]. وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِيْنَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيْحُ يَا بَنِي إسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ. إنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) المائدة/ ١٧.

الْجَنَّةَ وَمَـأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِيْنَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[1] وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ. وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُوْلُوْنَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ أَفَلاَ يَتُوْبُوْنَ إِلى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُوْنَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيْمٌ. مَا الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الآيَاتِ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُوْنَ. قُلْ أَتَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلاَ نَفْعاً. وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيْمُ﴾[2].

وفي هذه الآيات الثلاث يثبت القرآن الكريم كفر القائلين بأنَّ الله هو المسيح بن مريم. ومن أوائل كلمات إنجيل يوحنا «في البدء كان الكلمة. والكلمة كان عند الله. وكان الكلمة الله». وقد أطلق المسيحيون لفظ الكلمة على المسيح. وعلى هذا يكون معنى عبارة الإنجيل هذه أنَّ الله هو المسيح ابن مريم.

والواقع أنَّ المسيحيين قاطبة يصرّون صراحـةً على القول بـأنَّ المسيح ابن مريم هو الله وهو الإبن الإلّه تعالى الله عمَّا يقولون علواً كبيراً لأنَّ الله تعالى قد أخبر عن نفسه بأنَّه «هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» وله ملك السماوات والأرض وما بينهما. وإذاً فهم ينطبق عليهم حكم هذه الآية والوصف الذي وصف به من يقول مثل تلك الأقوال، وهو الكفر. وقد وصفهم الله تعالى بالفعل بذلك في هذه الآيات الثلاث.

والمسيحيون أيضاً في هذا العصر والذي سبقه ما فتئوا يقولون

(١) المائدة/ ٧٢.

(٢) المائدة/ ٧٣ ـ ٧٥.

بالتثليث، وهو القول بأنَّ الله هو أحد الأقانيم الثلاثة، وهي الأب والإبن والروح القدس. وأنَّ الله هو الأب والآخران هما عيسى وأمه، أو الإبن والروح القدس.

بل إنَّ الله تعالى قد وصف المسيحيين ذوي هذا القول بالكفر في أكثر من موضع في القرآن الكريم. ومن هذه المواضع قوله: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّوْنَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾(١) قال ابن كثير: «أي لما بلَّغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه ووازره من وازره من الحواريين اهتدت طائفة من بني إسرائيل لما جاءهم به، وضلَّت طائفة فخرجت عمَّا جاءهم به ومجَّدوا بنوّته ورموه وأمه بالعظائم وهم اليهود. قال وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوّة وافترقوا شيعاً وفرقاً، فمن قائل منهم أنَّه ابن الله، وقائل إنَّه ثالث ثلاثة: الأب والإبن وروح القدس. ومن قائل أنَّه الله، وهم النصارى تعالى الله عمَّا يقولون علواً كبيراً» ويقول الله في سورة مريم بعد أن يستعرض صور خلق عيسى وبعد أن ينفي عن الذات الربانية اتخاذ الولد، ويؤكد قدرته المطلقة على الخلق والإيجاد بالكلمة ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيْمٍ﴾.

وآية الممتحنة جاءت لتحرِّم على المؤمنين إرجاع المؤمنات المهاجرات من مكة إلى المدينة فراراً بدينهنَّ إلى الله تاركات وراءهن أزواجهنَّ الكافرين وذلك بعد التحقق من إيمانهن وكفر أزواجهنَّ. وهي إذاً تؤكد بأن وصف الكفر وحده كفيل بتحريم زواج المسلمة بمن اتصف به سواء كان مشركاً أو كان من أهل الكتاب. وقد وصف الله تعالى

---

(١) الصف/ ١٤.

الوثنيين بالكفر كما وصفهم بالشرك ووصف الكتابيين بالكفر كما وصفهم بالشرك يقول تعالى في وصف المشركين بالكفر: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُم ءَإِذَا كُنَّا تُرَابًا ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيْدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُوْنَ﴾[1] ويقول في وصف أهل الكتاب بالكفر: ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِيْنَ مُنفَكِّيْنَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[2] ويقول في وصفهم بالشرك: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمُ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ ما اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُوْنَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالْشَهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾[3].

ونخلص بعد هذا إلى التيقُّن بأن صفة الكفر لازمة لكل من قال بالتثليث ولمن قال بِبُنُوَّة عيسى أو بألوهيته وصلبه، كما هي لازمة لمن أشرك بالله تعالى، وما دام الأمر كذلك فإنَّه يثبت حكم تحريم زواج المسلمة منه كما ثبت تحريم زواجها من المشرك.

ومما يؤسف له كثيراً أنَّ الشيخ عبدالله العلايلي أحد أكابر مفكِّرينا الإسلاميين المحدثين قد سوَّغ له فكره إباحة زواج المسلمة من الكتابي بحجة أنَّ آية البقرة وهي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾[4] تورد كلمة «خير» لا لفظة التحريم. وكلمة «خير» تفيد الأفضلية، وبالتالي في رأيه لا

---

(١) الرعد/ ٥.

(٢) البينة/ ١.

(٣) المؤمنون/ ٩٠ ـ ٩٢.

(٤) البقرة ٢٢١/٥.

يكون ثمة من مانع باتخاذ ما هو أدنى من الخير وأخَسّ. وهذا منطق مردود وباطل لأنَّ المفروض في منطق الناس على العموم أنَّ الأفضل دوماً هو المطلوب وبخاصة عندما لا يكون المراد من المفاضلة الممايزة التي لا تمنع من اتخاذ الأدنى كما تقول: الأول في الصف أفضل من الثاني، بل المفاضلة هي هنا بمعنى الممايزة المسقطة للأدنى كليّاً كما هو شأن المفضول في هذه الآية، وإلاَّ فإنَّ منطق الشيخ سينتهي بنا إلى القول بأنَّ الإسلام أفضل من الشرك وخير منه ولكن لا بأس أن تأخذ بمبدأ الشرك، والعلم أفضل من الجهل ولا بأس من الأخذ بالجهل، وهكذا فإنَّ إقامة الصلاة خير من تركها، والصوم خير من الإفطار في رمضان، والطاعة مطلقاً خيرٌ من المعصية، والحبل على الجرار، فيلتقي في منطق الشيخ عبدالله هذا حفظه الله وهدانا وإياه، الماء والخشب والحق والباطل والزني والزواج والبيع والربا والحل والحرمة والشر والخير. وما أسوأ هذا المنطق الذي اعتمد مثله في الماضي الفلاسفة السوفطائيون وقالوا بأنَّ الخير ما كان بالنسبة إليك خير، وانتهوا إلى بلبلة عقول الناس وتشويش أفكارهم، لولا أن تصدى لهم في حينها سقراط بحكمته وبعد نظره.

على أنَّ آية المائدة واضحة بالنص فقط على إباحة الزواج من الكتابية وساكتة عن ذكر حكم زواج الكتابي من المسلمة وذلك لثبوت حكمه في عموم آية البقرة التي تحرِّم زواج المسلمة بالمشرك بالنهي الذي هو أحد صيغ التحريم المستخدمة في التشريع السماوي ثمَّ في التشريعات الوضعية كافة؛ ثمَّ بعمل الرسول ﷺ وصحبه والتابعين من بعدهم.

(١) راجع كتابه أين الخطأ من ١٢٧ ـ ١٣٦ وهو مشحون مع الأسف بالتنظيرات الخاطئة.

ومهما يكن من أمر فإنَّ الإسلام في المجتمع المدني اقتحم الكثير من الميادين بل كل الميادين الحياتية، وأدْلى فيها بحكمه عندما يقتضيه الأمر ذلك رغبة في الإصلاحِ تغييراً كلياً أو جزئياً أو إبطالاً أو تصحيحاً، حرصاً منه على أن يوجهه وجهة الخير والفلاح ويباعد بينه وبين ما يكوّن فيه عشوش الضرر والفساد.

وقد أخذ المجتمع المدني يتطور بشكل ملحوظ تـطوراً تنظيمياً لم يكن مألوفاً من قبل، وذلك بصورة متكاملة سواء في مجال ضبط السلوك الشخصي للفرد وإعادة بنائه في ضوء المنهجية الإسلامية عقيدة وشريعة، أو في مجال تنظيم الجماعة وكفالة كل مقوِّمات قوتها وعزَّتها بحيث تكون بالفعل نواة الأمة الواحدة التي يترابط أفرادها برباط الأخوة المؤمنـة المجافية للنظرة القبلية أو العرفية، أو كان في مجال بناء الدولة على الأسس الجديدة التي أشرنا إليها.

وهكذا فقد تحوَّل منهج الرسول ﷺ في دعوته في مكة الذي كان مقتصراً على الدعـوة وبث روح الصبر والثبـات في قلوب المؤمنين وتزويدهم بشحنات صافية من نور الإيمان، إلى منهج تنظيمي متكامل يرفع قواعد حياة اجتماعية وسياسية مستوفية كل عناصر وجودها ومقوِّماتها وينشىء الأمة الجديدة المكافحة على هدى وبصيرة من توجيه الله الذي له ملك السماوات والأرض وهو بكل شيء عليم...

الباب الثالث

١ - إصلاحات اجتماعية.
٢ - تحصين الفرد والجماعة بالتشريع.
٣ - نماذج من الإصلاحات التي تمّت في عهد الرسول ﷺ بعد هجرته.
٤ - السياسة والمدينة.
٥ - طابع المجتمع الإسلامي في المدينة.
٦ - لماذا نجح المجتمع الإسلامي في المدينة.
٧ - وقفة تأمل وتذكير.

الفصل الأول

إصلاحات اجتماعية

١ ـ الإسلام والنزوع الاجتماعي:

لقد قلنا من قبل إنَّ الرسول ﷺ، لم يكد يستقر به المقام بعد دخوله المدينة مع أصحابه المهاجرين، حتى بادر إلى البحث عن أرض ينشىء عليها مسجده فوجد أرض المربد الذي كان ملكاً لغلامين من بني مالك بن النجار وهما سهل وسهيل ابنا عمرو كانا في حجر معاذ بن عفراء وقيل في حجر أسعد بن زرارة، وأقام عليه مسجده الشريف ليكون ملتقى للمسلمين جميعاً في أوقات العبادة يؤدون فيه صلواتهم المفروضة وغير المفروضة وفي سوى أوقات العبادة للتدارس في الشؤون العامة وللتعليم والتوجيه والإرشاد وغير ذلك.

وهذا التوجُّه يكشف النزعة الاجتماعية الكامنة في تعاليم الإسلام التي تشكل ظاهرة واضحة في تاريخ الانبعاث الإسلامي، وفي مجتمع المدينة الذي تكوَّن بعد هجرة الرسول ﷺ إليها.

لم يكن للعرب في المدينة يوم يلتقون فيه:

وكما لم يكن لسكان المدينة من قبل هجرة الرسول ﷺ مكان يلتقون فيه يستمع بعضهم لبعض ويحاور بعضهم بعضاً، ويتدارسون مشاكلهم اليومية عامة وخاصة للتوصل إلى رأي جامع وقرار موحد، فإنَّه لم يكن لهم أيضاً يوم يلتقون فيه على مفهوم ومعنى ينبع من معين مجتمعهم وتطلعاتهم في الحياة. بل كل الذي كان لهم، يومان ورثوهما عن جوارهم بلاد فارس وهما يوم **«النيروز»** و **«المهرجان»**.

يوما العيد:

ولما قدم الرسول ﷺ المدينة رأى ذلك فيهم فلم يسرَّه وشاء اللهُ له تبديلهما بما هو أفضل وأكرم ولذلك فقد قال ﷺ: «قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما يوم الفطر ويوم الأضحى.

ولقد كان هذان اليومان الجديدان مستنبطين من طبيعة التنظيم الجديد ومن فلسفة العبادة الجديدة التي عرَّفهم عليها الإسلام في صورها وجوهرها. فهما يومان استحدثهما ليعبِّرا عن هدف بيِّن يبرِّر ظواهر الفرح والسرور عند الفرد المسلم والجماعة المسلمة.

الإسلام والفرح:

فإذا كان الفرح عند الفرد يكون عادة لفوز بكسب مادي، أو فوز بما يلائم هواه ومصلحته المعاشية في بدنه وما يتصل بذاته وكذلك بالنسبة للجماعة على الأغلب، فإنَّ الإسلام جاء ليعدِّل في هذا المفهوم وليجعل الأصل والأهم في الفرح ليس ما تقدَّم بل هو تحصيل كسب تعبُّدي سواء كان ذلك بالنسبة إلى الفرد أو الجماعة.

فالمسلم الذي يصوم شهر رمضان متقرِّباً إلى الله تعالى، وهادفاً إلى تأكيد طاعته له وخضوعه لأمره وحرصه على كسب رضاه ومحبته وعونه، يلقي في وجدانه كمال الحبور عندما ينتهي من ذلك مستوفياً كل ما طلبه إليه مولاه. إنَّه يشعر بكمال الرضا يفيض ملء بُرْدَيْه ويغمره من كل صوب. وهو يرى كأنَّما الدنيا كلها قد زُوِيَت له وانقادت لرغبته وصارت ملك يمينه وطوع إرادته.. ومن هنا كان اليـوم الذي يلي استكمال هذه العبادة المديدة يوماً عظيماً لا يماثل بيوم النيروز ولا بيوم المهرجان، لخلوّ كل منهما من المضمون الروحي. بل ولا بأي يوم آخر من أيام العمر التي تتغمَّدها السعادة.

وما قيل بالنسبة لليوم الذي يلي تمام صيام شهر رمضان يقال بالنسبة إلى الأيام الأربعة التي تلي استكمال مناسك الحج.

ونستشرف من هذا لنقول إنَّ المسلم المؤمن الذي لا يخلو وقته في نهاره وليله من تعبد وطاعة في بيته ومتجره ومركز عمله، ومع الناس في كل مكان يجتمع بهم، هو في عيد متواصل وفرحة غامرة تملأ عليه ساعات أيامه ولياليه، وترتفع به عن كثير من عرض العيش وزخرف الدنيا.

٢ ـ التنبيه إلى قيمة الوقت:

وهكذا فقد زاد اهتمام المؤمن بالوقت، وتتبعه له. وصار مكلفاً بتقسيم النهار والليل إلى أوقات يخص بعضها للسعي وراء الرزق، وبعضها للأهل وقضاء حوائجهم وللأصحاب، وبعضها للراحة وطلب النوم، ولم يعد اليوم بليله ونهاره مسرحاً لنمط واحد من السلوك هو الراحة أو العمل أو النوم أو لقاء الخلَّان والأصحاب. وبخاصة وأنَّ الله

تعالى قد فرض عليه الصلاة خمس مرات في أوقات مختلفة من الليل والنهار، عند الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وأنَّ الرسول ﷺ قد ندبه إلى أدائها زُلَفاً من الليل وبعض أطراف النهار. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارَ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِيْنَ﴾[1] ويقول: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِيْنَ تُمْسُوْنَ وَحِيْنَ تُصْبِحُوْنَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُوْنَ﴾[2].

يقول الفخر الرازي: خص بعضَ الأوقات بالأمر بالتسبيح، ذلك لأنَّ أفضل الأعمال أدومها. لكن أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُوْنَ لَهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُوْنَ﴾[3]. والإنسان ما دام في الدنيا لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح، لكونه محتاجاً إلى أكل وشرب وتحصيل مأكول ومشروب وملبوس ومركوب، فأشار الله تعالى إلى أوقات إذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنَّه لم يفتر. وهي الأول والآخر والوسط من النهار. فأمر بالتسبيح في أول الليل ووسطه ولم يأمر بالتسبيح في آخره لأنَّ النوم فيه غالب. والله منَّ على عباده بالاستراحة بالنوم كما قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ﴾[4] فإذا صلَّى في أوَّل النهار تسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين إلى التسبيح. ثمَّ إذا صلَّى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات أخر فصارت ست ساعات. وإذا صلَّى

---

(١) هود/ ١١٤.
(٢) الروم/ ١٧ ـ ١٨.
(٣) الأنبياء/ ٢٠.
(٤) الروم/ ٢٣.

أربعاً في آخر النهار وهو العصر حسب له أربع أخرى فصارت عشر ساعات فإذا صلَّى المغرب والعشاء سبع ركعات أخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة إلى التسبيح وبقي من الليل والنهار سبع ساعات، وهي ما بين نصف الليل وثلثيه لأنَّ ثلثه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات وما بينهما السبع. وهذا القدر لو نام الإنسان فيه لكان كثيراً. وإليه أشار الله تعالى بقوله: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ وزيادة القليل على النصف هي ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة إلى النوم. والنائم مرفوع عنه القلم. فيقول الله، عبدي صرف جميع أوقات تكليفه في تسبيحي فلم يبق لكم أيها الملائكة المزيَّة التي ادعيتم بقولكم: ﴿ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ على سبيل الانحصار. بل هم مثلكم فمقامهم مثل مقامكم في أعلى علِّيين»[1].

وفي هذا الكلام ما فيه من الإشارة إلى مدى الانقلاب الذي أحدثه الإسلام في وجدان العربي بعد دخوله حظيرته، والتحق بركب نبيه الكريم بعد دخوله المدينة، فقد أصبح وقته ثميناً وصار ضنيناً بهدره وضياعه، وحريصاً على أن يكتسب في كل ثانية منه، طاعة أو عملاً بارّاً ينفع بهما نفسه أو ينفع بهما الناس.

لقد صار وقته أثمن من الذهب وانقلبت كل ثانية منه خاضعة لمحاسبة ضميره الذي يسأله فيما قضيتها أو أمضيتها؟ أليس سيقف بين يدي ربه يوم القيامة فيسأله عن عمره فيما أفناه ووقته فيما ضيَّعه. روى الترمذي بسنده عن رسول الله ﷺ: «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة عند ربه حتى يسأله عن خمس: عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه،

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٠٥/٥٥.

وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم»[1].

فلم تعد حياته كما كانت من قبل مهدورة الوقت والنشاط أو مخصصة للسعي وراء كسب المال وجلب المنافع المادية فحسب من أي طريق وبأية وسيلة، ومن ثمَّ ليبذل ما يجمعه على مطعمه ومشربه وملبسه وملاذه. بل لقد عادت مسرحاً لعمل دؤوب وجهد متنوع ومختلف في ميادين السعي نحو هدف واحد هو رضى الله تعالى.

السعي عبادة:

وكما أنَّ العبد المؤمن يتعبد ربه في صلاة يقيمها أو زكاة يؤديها أو صوم يفعله أو حج يسعى فيه أو صدقة ينفقها على فقير أو مسكين، أو تسبيح أو تكبير أو تحميد يحي به جمود قلبه، فإنَّه أيضاً يتعبَّدُ عندما يسعى وراء رزقه مختلف السعي. وإنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُوْنِ مَا أُرِيْدُ مِنْهُم مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيْدُ أَنْ يُطْعِمُوْنِ ﴾. والسعي على العيال إذا كان في حدود الطاعة خالياً من أية شائبة خالياً من الغش والحرام، هو في الواقع عمل تعبدي يؤديه صاحبه في خدمة عياله حيث يغنيهم عن الحاجة وعن السؤال..

وإذا مشى المسلم في السوق سعياً على أهله فقد شغل وقته في طاعة وبر. ثمَّ إذا دخل المسجد لآداء صلاته فقد شغل وقته أيضاً في طاعة وبر. وإذا جلس إلى أهله وأولاده وقضى معهم بعض الوقت يستمع فيه إلى حاجاتهم ويناقش معهم بعض الأمور التي تفتقر إلى المعالجة تحقيقاً لمصلحة ودفعاً لمضرَّة فقد شغل وقته في طاعة وبر. وإذا نام ليخفف عن بدنه بعض ما أصابه نهاره من جهد وتعب فقد شغله أيضاً في

(١) الترمذي كتاب صفة القيامة.

برٌ وطاعة. وهكذا فالمسلم المؤمن مثوب على جميع تصرفاته ما دامت موجهة لطاعة الله، ووقته في هذه الصورة وقت مشغول بما يرضى الله ويكفل له في الختام يسير الحساب.

الوقت والمحاسبة:

ومحاسبة المسلم لنفسه في كل دقيقة من سحابة ليله ونهاره كانت ثمرة الصلة بربه. وصلته هذه التي زادت في حساسيته لمحاب الله ولكل ما يرضيه زادت في تقديره للوقت وحرصه عليه، فانقلب في شوق ووله نحو كل عبادة أو طاعة أو مبرَّة، تضع عنه وزره وترفع له ذكره وتثقل ميزانه يوم ينفخ في الصور فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون ويوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

أثر اهتمام المسلم بالوقت في ذاته:

وقد حوَّل هذا الاتجاه العبد المسلم المؤمن إلى طاقة وجدانية متحركة لا تكل ولا تمل ولا تيأس. وقد آتاها كل الاستعداد لتبذل التضحيات تلو التضحيات دون أن تسأل عليها أجراً أو تنتظر من ورائها جزاء أو شكوراً، وفتحت له من الآفاق ما يسّر له اكتساب أنواع من البطولات والمنجزات التي ما تزال موضوع تعليق بالافتخار والاعتزاز.

وبعد أن كان من قبل هجرة الرسول يقضي ليله نائماً غافلاً، وأغلب نهاره ضارباً في الصحراء وراء القنص أو باحثاً عن متعة يرتشف منها لذة أو جادًّا في عمل، فقد باء في ظل الإسلام وفي مجتمع الرسول ﷺ، رجل مجتمع ومؤسس أسرة وباني حياة ومشاركاً في تأسيس حضارة إنسانية يفيد منها العدو والصديق. ذلك لأنَّه أصبح في نهاره عاملاً أو عابداً أو مجاهداً، وفي أناء الليل قائماً وراكعاً وساجداً ومسبحاً وحامداً ومكبراً

متطلعاً دوماً إلى مزيد من الخير يقدمه لنفسه أو لمن حوله. يقول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِيْنَ يَعْلَمُوْنَ وَالَّذِيْنَ لاَ يَعْلَمُوْنَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ. قُل يا عِبَادِي الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِيْنَ أَحْسَنُوا في هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُوْنَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

وبفضل الرسول ﷺ ورسالته التي حمّله الله تعالى إيَّاها ليبلِّغها إلى الناس، انقلب ابن المدينة أو ابن الصحراء، الشارد الغافل الأناني، الباحث عن شهوته ومتعته، الوثني الضال الجاهل الذي لا قيمة للوقت لديه، إلى رجل قيادة وتعليم وإرشاد وحكمة، له في كل ساعة من وقته كسب وجهد وسعي يعطي منه لأهله ولمن يتطلبه ويفتقر إليه دون أن يجد في نفسه من ذلك أثرة أو خصاصة. يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُوْنَ فِي صُدُوْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ﴾(٢).

المال والولد بالنسبة إلى عبادة الله:

وهكذا لم يعد الولد أو المال أو أحدٌ من الأهل أو التجارة أو المساكن لِتُلْهِيَهُ عن ذكر الله أو لتلفته عن القيام بطاعته أو التقرُّب إلى الله بعمل صالح ينفع به قومه أو يعود به بالخير على الناس، فانقلب بذلك شبه ملاك يمشي على قدميه، لأنَّه فهم نداء ربه ورعاه بقلبه واتَّجه بكل

---

(١) الزمر/ ٩ ـ ١٠.
(٢) الحشر/ ٩.

جوارحه لتطبيقه في حياته ومعاشه هذا النداء الذي يقول فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُوْنَ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُوْلَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِيْنَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾[1] والذي يقول: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوْهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِيْنَ﴾[2] والقائل أيضاً: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[3].

٣ ـ اعتياده النظام والطاعة:

وعلى الرغم من التصاق العربي بعائلته ثمَّ بعشيرته وقبيلته، فهو نزّاع إلى الحريَّة والفوضى ولا يروق له طعم النظام ولا الطاعة. ولذلك لم تكن صفة الجماعة مكتملة البروز في الأوساط العربية الجاهلية لأنَّ المجتمع فيها لم يستوف شرائط تكونه الأساسية من التلاحم والخضوع لنظام موحد وقيادة موحدة وأهداف موحدة. اللهم إلاَّ ما كان متشكلاً في صور باهتة في بعض مدن الحجاز كمكة والمدينة.

وعلى كل حال فقد كان المجتمع العربي كما وصفه الشيخ أبو الحسن

---

(١) المنافقون/ ٩ ـ ١١.

(٢) التوبة/ ٢٤.

(٣) النجم/ ٣٩ ـ ٤٢.

النَّـدْوِي: «كل شيء فيه في غير محله أو في غير شكله، قد أصبح فيه الذئب راعياً، والخصم الجائر قاضياً، والمجرم سعيداً حظيّاً والصالح محروماً شقيّاً»[1] وقد فسدت العادات وضاع المعروف وبرز المنكر وعم الطمع وقست القلوب وانقلب الناس إلى قطعان من الغنم الهائمة التي لا تلقى لها راعياً.

بيد أنَّ ظهور رسول الله ﷺ في المدينة بعد الهجرة بدَّل هذه الصورة تبديلاً جذريًّا، لأنَّه حمل كل عربي من سكان المدينة بعد إيمانه بالله وبرسوله على إعادة بناء نفسيته وفكره في ضوء التعاليم الجديدة التي حملها له الوحي وبلَّغها إلى الناس. بل لقد كان كل واحد من أولئك المؤمنين الجدد يدرك أنَّه في خلق جديد على يدي رسول الله ﷺ الذي كان يغذِّي روحه بالقرآن الكريم، ويتعهده كل يوم بالصقل والتهذيب أمام رب العالمين خمس مرات في اليوم والليلة، حتى تمكن من زرع الخشوع في قلبه وجوارحه والوعي في عقله، ونقّىٰ طويته وحرَّره من سلطان المادة وهيمنة الهوى والشهوة، وزوَّده بفضائل الصبر والصدق والإخلاص وحبِّ التضحية في سبيل الله والطاعة لله ولرسوله.

ولقد صارت طاعة الله وطاعة رسوله ماثلتين دوماً في قلبه يجد فيهما كل الخير والبركة، ويعتقد بأنهما وسيلة التوفيق في الدنيا والآخرة: وقد أوضح القرآن الكريم فضل هذه الطاعة وثمرتها في الحياة فقال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُوْنَ﴾[2] ويقول: ﴿ قُلْ أَطِيْعُوْا آللَّهَ وَأَطِيْعُوْا الرَّسُولَ فَإِنْ تولَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي/٧٩.
(٢) النور/ ٥٢.

مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[1] ويقول: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2] ويقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ﴾[3].

فكان يدرك يقيناً أنَّه في الطاعة الفوز والهدى وفيها الرحمة وكل الخير، ولذلك فقد تمسك بها فمهدت لقلبه الطريق لارتشاف نور الإسلام والاستضاءة به ولمزيد من الإيمان والتسليم، وساعدت على تمكين الرباط بينه وبين رسول الله، ورفعت كلمته عنده فوق كل كلام بعد كلام الله تعالى.

بل لقد علم الرسول ﷺ أصحابه الطاعة لكل قائد وأمير بعد أن كانوا لا يسمعون لأحد. والقرآن الكريم شاهد على هذا وفارض له حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[4] وفي هذا الأمر ما فيه «من أمر الرعية من الجيوش وغيرهم بطاعة أولي الأمر الفاعلين لذلك في قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك إلَّا أن يأمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[5].

قال الرازي: «قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه حقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزله الله ويؤدي الأمانة فإذا فعل ذلك فحق على

---

(١) النور/ ٥٤.
(٢) النور/ ٥٦.
(٣) التغابن/ ١٦.
(٤) النساء/ ٥٩.
(٥) محاسن التأويل للقاسمي.

الرعية أن يسمعوا ويطيعوا»[1] وقد بالغ الرسول ﷺ في ترغيب الأمة بطاعة الأمراء فقال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى أميري فقد عصاني» وقد روى الطبري بسند صحيح عن أبي هريرة: «أنَّ أولي الأمر هم الأمراء» واحتج له الشافعي بأنَّ قريشاً ومن يليها من العرب كانوا لا يعرفون الإمارة ولا ينقادون لأمير، فأمروا بالطاعة لمن ولِّي الأمر، والانقياد له إذا بعثهم بالسرايا، وإذا ولَّاهم البلاد فلا يخرجوا عليهم ولا يمتنعوا عليهم لئلا تفترق الكلمة.

وروى الطبري عن السدّي أن الآية نزلت في قصة جرت لعمَّار بن ياسر مع خالد بن الوليد. قال: «حدَّثنا محمد بن الحسين قال حدَّثنا أحمد بن مفضل قال حدَّثنا أسباط عن السدّي: ﴿أَطِيْعُوْا ٱللَّهَ وَأَطِيْعُوْا ٱلرَّسُوْلَ وَأُولي ٱلأَمْرِ مِنْكُم﴾ قال بعث رسول الله ﷺ سريّة عليها خالد بن الوليد وفيها عمار بن ياسر. فساروا قِبَل القوم الذين يريدون، فلما بلغوا قريباً منهم عرَّسوا، وأتاهم ذو العُيَيْنَيْنِ [الجاسوس] فأخبرهم، فأصبحوا قد هربوا غير رجل أمر أهله فجمعوا متاعهم ثمَّ أقبل يمشي في ظلمة الليل حتى أتى عسكر خالد، فسأل عن عمَّار بن ياسر فأتاه، فقال: «يا أبا اليقظان إني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله وإن قومي لمَّا سمعوا بكم هربوا وإني بقيت، فهل إسلامي نافعي غداً؟ وإلَّا هربت. قال عمار: بل هو ينفعك فأقم. فأقام فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحداً غير الرجل فأخذوه وأخذ ماله، فبلغ عماراً الخبر، فأتى خالداً فقال: خلِّ عن الرجل فإنَّه قد أسلم. وهو في أمان

(١) الرازي ١٤٩/١٠.

منّي. فقال خالد وفيم أنت تجير؟ فاستبّا وارتفعا إلى النبي ﷺ فأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير الثانية على أمير، فاستبّا عند رسول الله ﷺ، فقال خالد: «يا رسول الله أتترك هذا العبد الأجدع يسبُّني؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد لا تسبّ عماراً فإنّه من سبَّ عماراً سبَّه الله. ومن أبغض عمَّاراً أبغضه الله، ومن لعن عماراً لعنه الله» فغضب عمار فقام فتبعه خالد حتى أخذ بثوبه فاعتذر إليه فرضي عنه». وقد روى أبو داود بسنده عن عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ قوله: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» وروى البخاري عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشي كَأَنَّ رأسه زبيبة»[1].

وقد كانت طاعة الصحابة للرسول ﷺ منقطعة النظير، وكذلك للأمراء الذين كان يوليهم عليهم. وبهذه الطاعة أفلحوا بكل معنى الكلمة، فارتفع مستواهم الاجتماعي والثقافي وسمت آدابهم فيما بينهم وبين الناس، واتحدت كلمتهم وقويت شوكتهم. وقد كانت غلطة الرماة يوم أحد درساً كبيراً وعميقاً اتعظوا به وأفادوا منه، ولم يرو عنهم فيما بعد مثيل له.

٤ ـ حضّهم على القراءة والكتابة والعلم:

ولقد كان من أبرز ما حباهم به الإسلام بعد الهجرة، ما شجعهم عليه الرسول ﷺ بعد معركة بدر من تعلّم القراءة والكتابة، وما كان يحضّهم عليه باستمرار من حفظ كتاب الله والأخذ عنه، والتفقّه في الدين.

(١) الحديث الأول أخرجه أبو ذر في كتاب الجهاد وباب الطاعة والثاني أخرجه البخاري في كتاب الأحكام باب السمع والطاعة للإمام.

ندرة القراءة والكتابة في قريش:

ولأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية، وفي المدينة بالذات يرتفع صوت كريم لينكر الجهل بعد أن كان فاشياً فيهم حتى أنَّ البلاذري ليروي في كتابه «فتوح البلدان» أنَّ الإسلام دخل مكة وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب وهم: عمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبو عبيدة عامر بن الجراح وطلحة ويزيد ابن أبي سقيان وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وحاطب بن عمرو، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي وأبان بن سعيد ابن العاص بن أمية وخالد بن سعيد أخوه وعبدالله بن سعيد ابن أبي سرح العامري. وحويطب بن عبد العزّي العامري وأبو سفيان بن حرب ومعاوية بن أبي سفيان وجهيم بن الصلت ومن حلفاء قريش العلاء بن الحضرمي»(١).

وأمّا النساء فقد كان منهنَّ قليل كحفصة وأم كلثوم من زوجات النبي والشفاء بنت عبدالله العدوية وأما عائشة فقد كانت تقرأ الكتاب ولا تكتب وكذلك أم سلمة»(٢).

القراءة والكتابة في المدينة:

وإنَّ البلاذري ليروي أنَّ الكتابة كانت في الأوس والخزرج قليلة، وأنَّهم كانوا عند دخول الإسلام إلى مدينتهم لا يتجاوز عددهم الأحد عشر كاتباً، ولذلك فقد كان طبيعياً أن يدفع الرسول ﷺ بالصحابة إلى تعلم القراءة والكتابة بكل وسيلة ليضمن أولاً كتابتهم الوحي وقراءتهم له

(١) فتوح البلدان للبلاذري/ ٤٧١ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه.

وحفظهم إيَّاه، وبالتالي ليشق الطريق إلى التطوُّر والنمو والتقدم لمجتمعه. وقد ورد أنَّه في غزوة بدر «كان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلموا عشرة من صبيان المدينة الكتابة. بل لقد كان يحث الصحابة على تعلم لغة غير اللغة العربية لما كانت تدعو الحاجة إليه، ففي البخاري عن زيد بن ثابت قال: أُتي بي النبيَّ ﷺ مَقْدَمه المدينة فقيل: هذا من بني النجار. وقد قرأ سبع عشرة سورة. فقرأت عليه فأعجبه ذلك فقال: «تعلَّم كتاب [كتابة] يهود فإني ما آمنهم على كتابي. ففعلت، فما مضى لي نصف شهر حتى حذقته فكنت أكتب إليهم. وإذا كتبوا إليه قرأت له». وفي حديث آخر عن زيد بن ثابت قال: قال لي النبي ﷺ: «إني أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا أو ينقصوا فتعلَّم السريانية فتعلمتها في سبعة عشر يوماً».

وقد كان للإسلام أثره البعيد في سكان المدينة خاصة والمسلمين عامة من سكان الجزيرة الذين اشتهروا بالبداوة والجهالة والأمية والغفلة الكبيرة عن تاريخ الأمم وعن المعرفة بأخبارهم. فقد نشر الوحي من خلال القرآن الكريم والسنَّة النبوية المطهَّرة كثيراً من التعاليم والأخبار والأفكار التي فتحت آفاقهم الذهنيَّة، وعرَّفتهم إلى كثير من أحوال الأمم السابقة. فقص عليهم قصة خلق آدم وبعض ما جرى له وقصة نوح وإبراهيم ويوسف وموسى ويونس وداود وسليمان وعيسى عليهم الصلاة والسلام وأخبارهم مع أقوامهم، بأسلوب أخَّاذ وعرض يُهيج النفوس إلى طلب المزيد من ذلك والحرص على التعرف إلى ما عند الأمم الأخرى كاليهود والنصارى.

ولقد شرح الوحي أيضاً عن طريق القرآن الكريم أو الحديث النبوي أحكاماً في الزواج والطلاق وعلاقة أفراد الأسرة بعضها مع بعض وفي

المواريث والوصايا وفي الشؤون المدنية والجنائية، وفي شؤونهم الاجتماعية والاقتصادية مما اتخذه المشرّعون والفقهاء المجتهدون مرجعاً يستنبطون منه الأحكام التفصيلية والأحكام الكليَّة، ويستوحونه الكثير مما يصلح لمعالجة ما يعرض لهم من حوادث وأقضية جديدة تستحدثها أمورهم المعاشية.

بل إنَّ الإسلام قد حرَّك لدى المسلمين الجدد من سكان المدينة وسواهم الدورة الفكرية ونشطها وبعثها من جمودها القديم بأسلوبه الفريد في دعوته إلى الإيمان بالله، حيث دعا إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، وإلى خلق الإنسان بالذات وإلى ما سخره له من كل ذلك فدفع بعقولهم للنظر والتمعن والبحث والتدقيق في ذواتهم وفيما حولهم ليؤمنوا أو ليزدادوا إيماناً ويقيناً مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوْتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيءٍ﴾(1) وقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾(2) وقوله: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنسانُ إلى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفاكِهَةً وَأَبّاً متاعاً لَكُمْ وَلأَنْعامِكُمْ﴾(3) وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذَلِكَ تَقْدِيْرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُوْنِ الْقَدِيْمِ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُوْنَ﴾(4) وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِيْنَ

---

(1) الأعراف/ ١٨٥.

(2) الطارق/ ٣١٥.

(3) عبس ٢٤ ـ ٣٢.

(4) يس/ ٣٨ ـ ٤٠.

﴿يَذْكُرُوْنَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُوْنَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(١).

وقد ثبت أنَّ الصحابة قد تأثروا إلى حدّ بعيد بهذا الأسلوب الاستنهاضي الفريد في تاريخهم، فضلاً عن الأوامر الصريحة التي جاءت في القرآن تحضهم على تعلم العلم والتزود بالمعارف وتعليم الناس وتفقيههم بالدين، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُوْنَ لِيَنْفِرُوْا كَافَّةً، فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوْا فِي الدِّيْنِ وَلِيُنْذِرُوْا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوْا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُوْنَ﴾(٢) وكقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِيْ الَّذِيْنَ يَعْلَمُوْنَ وَالَّذِيْنَ لاَ يَعْلَمُوْنَ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوْ الأَلْبَابِ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَالَّذِيْنَ أُوْتُوْا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٤) ثمَّ على لسان النبي ﷺ بالأحاديث الكثيرة التي منها: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» وقوله: اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم» وقوله ﷺ: «ما من قوم يجتمعون في بيت من بيوت الله يتعلمون القرآن ويتدارسونه بينهم إلاَّ حَفَّتهم الملائكة وَغَشِيَتهم الرحمة وتنزَّلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده، وما من رجل يسلك طريقاً يلتمس فيها علماً إلاَّ سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». وقوله: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاَّ من ثلاثة أشياء من صدقة جارية أو علم ينتفع به بعده أو ولد صالح يدعو له!».

---

(١) آل عمران/ ١٥٠ ـ ١٩١.
(٢) راجع في هذا كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر.
(٣) فجر الإسلام لأحمد أمين ١٤٦.
(٤) المصدر نفسه.

ومن أجل هذا أقبل الناس على القرآن يفهمون نصوصه ويحفظونها ويفسِّرون آياته وينشرون ما انتهى إليهم فيها من علم وفكر. وكذلك على حديث رسول الله يحفظونه ويروونه ويتناقلونه ويتدارسونه الأمر الذي بدَّل الكثير من أنظمة معاشهم في المدينة التي كانوا عليها قبل هجرة الرسول إليها، ودفع بهم إلى اعتياد الأنظمة الجديدة التي وضعها الإسلام، واستمراء الطاعة لله ولرسوله ثمَّ لأولي الأمر.

٥ ـ نماذج من الذين ربَّاهم الإسلام وخرَّجهم:

ولقد كانوا بالفعل كما وصفهم الرسول ﷺ في قوله: «إن مثل ما بعثني به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيِّبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ».

ولقد قال مسروق وهو من التابعين: ولقد جالست أصحاب محمد ﷺ، فوجدتهم كالإخاذ [الغدير] فالإخاذ يُروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة والإخاذ يروي المئة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم»[1] فكان منهم بفضل الإسلام وبفضل التربية التي تعهّدهم بها الوحي والرسول ﷺ، من نبغ في الإصابة بمعرفة العدل والظلم، وكانت له خبرة واسعة بالعالم الذي يحيط به[2]. قال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله وضع الحق على لسان عمر

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين.
(٢) المصدر نفسه.

يقول به» وأخرج الشيخان عن عمر بن الخطاب قال: «وافقت ربي في ثلاث؛ قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلًّى فنزلت: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وقلت: يا رسول الله يدخل على نسائك البرّ والفاجر، فلو أمرتهنّ يحتجبن فنزلت آية الحجاب. واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة فقلت: عسى ربه إنْ طَلَّقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ فنزلت كذلك[1].

ولقد روى أبو هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون، «فإن يكن في أمتي أحد فإنَّه عمر»[2] وشرح ابن حجر كلمة «محدَّثون» فقال: «اختلف في تأويله. فقيل ملهمون، قاله الأكثرون. قالوا: المحدَّث بالفتح الرجل الصادق الظن. وقيل: من يجري الصواب على لسانه من غير قصد. وقيل: مكلَّم تكلّمه الملائكة وهو كذلك في صحيح مسلم بشرح النووي[3].

وروى ابن حجر في شرح فتح الباري على البخاري في باب مناقب عمر بن الخطاب عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذْ قال: بينا أنا نائم رأيتني في الجنّة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر، فذكرت غيرته فوليت مدبراً، فبكى عمر، وقال: أعليك أغار يا رسول الله» وعن الزهري عن حمزة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم شربت يعني اللبن حتى أنظر إلى الرِّي يجري من ظُفُري أو في أظفاري. ثمَّ ناولت عمر فقالوا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦٦/١٥.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ٤٠/٧.

(٣) شرح مسلم للنووي ١٦٦/١٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ٣٥/٧.

فما أوَّلته؟ قال العلم» وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «رأيت في المنام أني أنزع بِدَلْو بكرة على قُلَيْب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً والله يغفر له، ثمَّ جاء عمر بن الخطب فاستحالت غَرْباً فلم أرَ عبقرياً يَفْرِي فَرْيَة حتى روي الناس وضربوا بَعطَن»[1].

وهكذا فقد كان علي رضي الله عنه أيضاً ذا عقل قضائي. وقد ولَّاه الرسول ﷺ قضاء اليمن وكانت له آراء ثبتت صحتها في مشاكل قضائية عديدة حتى قيل فيه. «قضية ولا أبا حسن لها». وعن علقمة عن عبدالله قال: «كنا نتحدث أن من أقضى هل المدينة علياً» وقد كان يهتم بالقرآن كثيراً ليتعرف إلى معانيه. وقد كان أستاذاً لعبدالله بن عباس الذي أخذ عنه كثيراً. وقالوا فيهما: «إنَّ عبدالله بن عباس كان أعلمها بالقرآن وكان على أعلمها بالمبهمات»[2].

وكان أبو بكر رضي الله عنه الذي وطَّد العقيدة الإسلامية بالقضاء على المرتدين ومانعي الزكاة بعد انتقال الرسول ﷺ إلى جوار ربِّه، وصان ركائز الدولة الإسلامية وأمَّنها من أعدائها وذلك بتسييره البعوث وفتح الفتوح، وحفظ للناس دينهم بجمعه القرآن الكريم من الصدور ومن قطع سعف النخيل واللخاف والجلد وغيرها التي كان مكتوباً عليها. ولقد قال فيه ﷺ: «ما لأحد عندنا يدٌ إلَّا وقد كافيناه عليها ما خلا أبا بكر، فإن له يداً يكافيه الله بها يوم القيامة». وقال: «ما أحد أعظم عندي يداً من أبي بكر واساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته» وكان عمر بن الخطاب يقول فيه: «أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبّنا إلى رسول الله ﷺ. وقال علي ابن أبي

---

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين.

(٢) طبقات ابن سعد الجزء الثاني القسم الثاني/ ١٠١.

طالب في تأبينه «كنت كالجبل الذي لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف. كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدنك، قويّاً في أمر الله متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله جليلاً في الأرض كبيراً عند المؤمنين. ولم يكن لأحد عندك مطمع، ولا لأحد عندك هوادة، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف قوي عندك حتى تأخذ الحق له، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلّنا بعدك»(1).

وأما عثمان رضي الله عنه، فهو الذي قال فيه عبد الرحمن بن حاطب «ما رأيت أحداً من أصحاب الرسول ﷺ كان إذا حدَّث أتم حديثاً ولا أحسن من عثمان بن عفان، إلاَّ أنه كان رجلاً يهاب الحديث» ولقد كان رسول الله ﷺ يتوق إلى حديثه في بعض أوقاته. فتروي السيدة عائشة من ذلك أنّها سمعت النبي ﷺ ذات ليلة يقول: «لو كان معنا من يحدُّثنا» قالت: يا رسول الله أفأبعث إلى أبي بكر؟ فسكت، ثمَّ قالت: أفأبعثت إلى عمر؟ فسكت ثم دعا وصيفاً بين يديه فسارَّه فذهب، فإذا عثمان يستأذن، فأذن له فدخل فناجاه عليه السلام طويلاً»(2) وقال عند محمد بن سيرين وهو يتكلم عن الصحابة: «كان أعلمهم بالمناسك عثمان وبعده ابن عمر».

وأشهر الروايات أكَّدت أنَّه سمي بذي النورين لأنَّه تزوج من رُقيَّة وأم كلثوم بنتي الرسول ﷺ «ولم يعلم أحد تزوج بنتي نبي غيره» ويقال: إنَّه سمي بذلك لأنَّ النبي ﷺ قال فيه «فيه نور أهل السماء ومصباح أهل الأرض» ويقال أنه كان يختم القرآن الكريم كل ليلة في صلاته. ولقد ورد في حديث ابن عباس أنَّه روي عن النبي ﷺ أنَّه قال لعثمان مواسياً

(1) عبقرية أبي بكر موسوعة العقاد ٣٠٣.
(2) عبقرة عثمان موسوعة العقاد ٥٨٩.

بعد موت رقيَّة: «والذي نفسي بيده لو أن عندي مئة بنت تموت واحدة بعد واحدة، زوجتك أخرى حتى لا يبقى من المئة شيء».

ولقد كان منهم غير هؤلاء من العلماء والفقهاء وذوي الرأي والإبداع الفكري والعسكري، أمثال زيد بن ثابت ومعاذ بن جبل والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله وسعد ابن وقاص وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وأبي عبيدة عامر بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والمثنى بن حارثة وأبي هريرة وغيرهم كثير ممن اقتبسوا من فيض نور الرسالة واستناروا بضيائها وشربوا من لبانها، حتى عرفوها حق المعرفة بعد أن عرفوا الجهل والكفر حق المعرفة، فلم تخدعهم المظاهر ولم تخلب أنظارهم الألوان والأشكال والبهارج الدنيوية، وأصبحوا في هذه الدنيا بحق رجال الآخرة لا تجزعهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وطلب رضاه. فاندفعوا يقيمون للناس القسطاس المستقيم قوامين بالعدل شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين فحقق الله لهم وَعْدَه في كتابه الكريم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِيْنَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنَاً يَعْبُدُوْنَنِي لاَ يُشْرِكُوْنَ بِي شَيْئَاً﴾(١).

وكان من هؤلاء ربعي بن عامر رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فقد دخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابيِّ الحريرية، وعلى رأسه تاجه المرصَّع وقد جلس على سرير من ذهب. دخل عليه بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة لم يزل

---

(١) النور/ ٥٥.

راكباً لها حتى داس بها على طرف البساط. ثمَّ نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل نحوه، وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: «إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني. فإن تركتموني هكذا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها. فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها. ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام»[1].

وكان منهم أمثال ذلك الأعرابي الذي جاء الرسول ﷺ مؤمناً، وقال له: أهاجر معك. فأوصى به بعض أصحابه. فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئاً فقسمه. وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم. فلما جاء، دفعوه إليه. فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: قسم قسمته لك» قال: ما على هذا اتبعتك. ولكن اتبعتك على أن أُرمى ها هنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال: إن تصدق الله ليصدقنَّك. ثمَّ نهضوا إلى قتال العدو. فأتى به النبي ﷺ وهو مقتول، فقال: «أهو هو؟» قالوا: نعم قال: «صدق الله فصدقه»[2].

لقد انقلبوا بفعل تربية الرسول ﷺ وتعليمه هداة العالم ومنقذيه. وتلاشت بفضلهم من بعده الفروق بين الناس؛ فكان لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأحمر على أسود إلاَّ بالتقوى. وفي أيامهم عرف الناس مفهوم التعاون والشورى والطاعة معرفة عملية. واندفعوا يتنافسون في

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي ٩٣.

(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ٣/١٩٠.

ميادين العلم والتفقُّه في الدين والحفظ والرواية والاجتهاد والفلسفة، ويسعون وراءها ضاربين في الأرض بحثاً عن العلم وطلباً للمعرفة ونشداناً لخدمة القيم والفضائل وترسيخ محاسن الأخلاق والآداب، حتى غدت عواصم الشرق بغداد ودمشق والمدينة والقاهرة وغيرها من مدنه حافلة بنوابغ العصور الإنسانية في الحفظ والجمع وفي العطاء العلمي والفلسفي والديني والتربوي، وسعيدة بما يظلِّلها من الأمان والعدل وما يشيع فيها من الوفرة والرخاء.

٦ ـ حضّهم على البذل والتضحية والإيثار:

ولقد كررنا أكثر من مرة أنَّ العربي من سكان المدينة كان مشهوراً مثل سواه من أبناء الجزيرة بالحرص وحب الدنيا وحب عَرَضها من المال والجاه والأولاد. ولقد كان لكل هذا آثاره السيئة في بيئتهم العربية حيث كان يفشو الطمع والجشع ويكثر بسببهما الفتك والسلب والنهب. وعمَّت الفوضى والاستهانة بحياة الإنسان حتى كانت الجزيرة العربية كما قيل كفة حابل لا يدري الإنسان متى يقتل، أو ينهب أو كما أخبر الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمَاً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[1] فانقلب عامة الناس وقد تسلط عليهم كابوس الجشع والحرص كأنما قد أصابتهم حمَّى الأثرة وتولَّد فيهم نَهَم إلى المادة لا يكفيه عطاء حلالاً كان أو حراماً.

ومعالجة هذه الظاهرة النفسيَّة كانت من أصعب مهمات الرسول ﷺ بعد بعثته، وبالذات بعد هجرته إلى المدينة. فكان يراودها بالحكمة وببدائل أخلاقية يقيمها على إنقاضها كما رأينا من قبل. وقد وفقه الله

(١) العنكبوت/ ٦٧.

تعالى إلى ذلك بما وهبه من أخلاق عظيمة، يتوجها صبر جميل، وحكمة رائدة، وعلم ربّاني رفيع.

ولم يكد يمضي على مقام الرسول ﷺ في المدينة زمن طويل حتى بدت معالم آثار هذه الخصال النبوية الجامعة فيهم، وأخذ القوم يتبارَوْن بالتعبير العملي عن الكرم والزهادة بعرض الدنيا وإيثار الآخرين على النفس، والتضحية بكل غالٍ ونفيس في سبيل المبدأ الجديد والعقيدة الجديدة. وهذا القرآن الكريم يسجِّل لنا طرفاً من ذلك في قوله: ﴿وَالَّذِيْنَ تَبوءُوا الدَّارَ وَالإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُوْنَ فِي صُدُوْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوْتُوا وَيُؤْثِرُوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ﴾[1].

وتفرَّد البخاري بروايته عن أنس بن مالك أنَّه قال: «دعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا، إلاَّ أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها». فقال: «أمَّا لا، فاصبروا حتى تَلْقَوْني فإنَّه سيصيبكم أثره». وروى أيضاً بسنده عن أبي هريرة أنَّ رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهنَّ شيئاً. فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله؟». فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله. فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخِّريه شيئاً. فقالت: والله ما عندي إلاَّ قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصِبْية العشاء فنوِّميهم وتعالَيْ فاطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت. ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «لقد عجب الله عزَّ وجل ـ أو ضحك ـ من فلان وفلانة..»[2].

---

(١) الحشر/ ٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/٦٠٥.

٧ ـ الفرد أمانة بين يدي الجماعة:

وقد أهاب الإسلام في مجتمع المدينة الحديث، بقيمة الفرد وكشف عن عظيم تكريم الله له، وعنايته به، ورعايته لمصالحه. ولو تتبعنا آيات الكتاب الكريم منذ سرده قصة بدء الخليقة وخلق آدم وما اقترن بها من تجييش الملائكة لتكون في خدمة الإنسان ومآربه العامة والخاصة، لرأينا منها العجب العجاب. وحسبها أنها استعرضت له كل الأخبار والوقائع ووضعت تحت نظره وفكره كل الآيات والمعالم التي تؤكد أنه محل حفاوة الله ولطفه وعطائه منذ لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم بعد أن كان ماءً مهيناً فنطفة فعلقة ثمَّ مضغة مخلقة وغير مخلّقة، حتى يصبح خلقاً سوياً وكائناً قادراً ومفكراً مدبِّراً، ينشىء الحياة ويبني معالم المدنية وينشط في تحريك دولاب العمل وتقليب وجوه العيش بمرّها وحلوها ومتاعبها وهناءاتها.

ولذلك فقد اعتبر الإسلام الفرد ركناً في المجتمع وأساسه ومادته. به يكون، وبدونه يزول. فأوصاه به ليصون كرامته ويحمي حريَّته ويحفظ حقَّه، في شخصه وأخلاقه وآدابه وفي ماله وعرضه ودمه. بل جعله أمانة بين يديه. وحرّم عليه التفريط بأي شيء من مصالحه على أي قدر كانت، فهو حصنه وملاذه، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيْبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِيْنَ﴾ وقال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوْا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِيْنَ. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ، يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُوْنُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ

نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ. يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيْهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوْهُ، واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيْمٌ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوْباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[(١)]. ويقول الرسول ﷺ: «لا تسبّوا الأئمة وادعوا الله لهم بالصلاح، فإن صلاحهم لكم صلاح» ويقول: «لا تسبوا الأموات فإنَّهم قد أفضوا إلى ما قدَّموا» وقال: «لا تروِّعوا المسلم فإن رَوْعة المسلم ظلم عظيم» وقال: «لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تنافسوا وكونوا عباد الله إخواناً»[(٢)].

وبالرجوع إلى القرآن الكريم وإلى السنة النبوية نجد الكثير من النصوص التي حَفَلَتْ بمصلحة الفرد من خلال حض الجماعة على حفظها وتفادي الأضرار بها والتهاون فيها، وذلك في أكثر ما ورد منها في الأمر والنهي والإباحة والحظر وبيان الحدود والقصاص وغيرها مما يعبِّر دونما لَبْس على حرص الإسلام بجعل مصلحة الفرد أمانة بين يدي الجماعة المسلمة التي عليها حفظها وعدم السماح بالتفريط فيها.

٨ ـ والجماعة أمانة بين يدي الفرد:

وكما حض الجماعة على احترام مصلحة الفرد وصونها، فقد حض الفرد على احترام مصلحة الجماعة وصونها ورعاية حقوقها ونهاه عن أن

---

(١) الحجرات/ ٦ ـ ١٣.

(٢) فيض الغدر للمناوي ٣٨٦/٦ وما بعده.

يكون سبباً في تفكيك عراها والتعدِّي عليها فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيْعاً وَلاَ تَفرَّقُوا وَاذْكُروا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوْبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْواناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفًا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ﴾(١) وقال: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِيْنَ تَفرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظيمٌ﴾(٢) وقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوْهُ وَلاَ تَتَّبِعُوْا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾(٣).

وقد أبان القرآن الكريم للمؤمنين بعض سماتهم التي لا محيد لهم عن الاتصاف بها إذا أصروا على التمسك بصفة الإيمان فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُوْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعضٍ يَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(٤).

وذكرهم بسوء تصرف بني إسرائيل من قبل وعاقبة تخلِّيهم عن رعاية مصالح أفرادهم وجماعتهم وتركهم مبدأ التناصح فيما بينهم والمصير الأسود الذي انتهوا إليه فقال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ بَنِي إِسْرَٰئِيْلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيْسَىٰ ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ. كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكرٍ فَعَلُوْهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُوْن ﴾(٥) وذلك كله ليحذرهم من السقوط فيما سقطوا فيه من إهمال مصلحة الفرد والجماعة وليحملهم على التناصح والتعاطف والتعاون وغيرة بعضهم

---

(١)
(٢) آل عمران/ ١٠٥.
(٣) الأنعام/ ١٥٣.
(٤) التوبة/ ٧١.
(٥) المائدة/ ٧٨.

على بعض وحماية مصالحه.

بل لقد جاء على لسان النبي ﷺ التوجيه الواضح باعتبار هذا كله جزءاً من الإيمان بل باعتباره هو الإيمان الذي لا يقوم بصاحبه بصورة مكتملة إذا ابتعد عنه فقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وقد وصل بين الفرد والجماعة ورفض الفصل بينهما فقال ﷺ: «يد الله على الجماعة» وقال: «أنت على ثغرة الإسلام فلا يؤتَيَنَّ من قبلك».

وضرب رسول الله ﷺ مثلاً لرعاية الفرد لمصلحة الجماعة واهتمامه بها وبذله الوسع في صونها والدفاع عنها فقال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم آستهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها. وكان الذين في أسفلها إذا آستقوْا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤذ من فوقنا، فإنْ تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا وَنَجَوْا جميعاً. رواه البخاري.

الفصل الثاني

تحصين الفرد والجماعة بالتشريع

العبادة وصيانة الفرد والجماعة:

لم يكتف الإسلام بأن يرسم معالم العلاقات بين الفرد والجماعة وكيفيَّة تطويرها وتحصينها ويقف عند حد طرح المبادىء والأفكار العامة، بل اهتم بوضع التشريعات التنظيميَّة، وآداب السلوك التي تكفل سلامة بدن الفرد وصيانة عرضه وماله وحفظ عقله وحريته وكرامته وسلامة كيان الجماعة أو الأمة، وكل ما يقيها شرَّ الخلل والنزاع والفشل.

ومن أبرز التشريعات التي سنَّها ليوجه المسلم في حياته الوجهة الصالحة وليضعه على الطريق السوي نحو الهدف الصحيح، كانت العبادة الممثلة في الصلاة والزكاة والحج وفي رأسها شهادة أن لا إلّه إلاَّ الله وحده لا شريك له وأنَّ محمداً عبد الله ورسوله.

العبادة هي الغاية من الخلق:

وأوضح دونما لفٍ أوْ دوران أنَّ الغاية من خلق الإنسان ومن وجوده

على ظهر هذه الأرض هي عبادة الله تعالى. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيْدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُوْنِ إنَّ اللَّهَ هُو الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(١).

بل لقد نقلت إلينا أخبار الكتاب الكريم الذي يحمل كلام الله وهو أصدق الحديث، أنَّ التوجيه الأول الذي كان يرسله كل رسول أرسله الله إلى قومه هو: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُوْنِ﴾(٣).

وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ عن ربه عزَّ وجل: «يا ابن آدم تفرَّغ لعبادتي املأ صدرك غنى وأسدّ فقرك. وإلَّا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسدّ فقرك»(٤). وورد في بعض الآثار القدسية يقول سبحانه: «عبادي إني ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة، ولا لأستكثر بكم من قلَّة، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه، ولا لجلب منفعة ولا لدفع مضرَّة، وإنما خلقتكم لتعبدوني طويلاً، وتذكروني كثيراً، وتسبحوني بكرة وأصيلاً».

الرسل أوائل المتعبدين:

وقد ألزم الله تعالى جميع الرسل بهذه العبادة فكانوا أوائل المسلمين والمتعبدين. فقد قال عن عيسى عليه السلام الذي أنزله بعض الناس منزلة الإلّه فعبدوه من دونه: ﴿لَن يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً

---

(١) الذاريات/ ٥٦ ـ ٥٨.
(٢) الأعراف/ ٥٥.
(٣) الأنبياء/ ٢٥.
(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٢٥.

لِلَّهِ، وَلاَ المَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُوْنَ. وَمَنْ يَسْتَنْكِف عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيْعاً﴾(١).

وإن القرآن ليستعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة وموقفاً لله من عيسى يسأله فيه الإجابة عما نسبه قومه إليه من الألوهية والنبوَّة، ثمَّ جواب عيسى عن ذلك فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَ يَا عِيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلْنَّاسِ اتَّخِذُوْنِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيْداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيْدٌ﴾(٢).

وكما أمر الرسل كافة، أمر خاتمهم محمداً بن عبدالله فقال له: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِيْنَ ﴾ أي حتى يأتي وعد الله بانتهاء أجلك وموتك. وكانت العبودية لله من أجمل الأوصاف التي وصفه الله تعالى بها ودلَّت على مقربة منه مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجاً ﴾(٣) وقوله: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حولَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾(٤).

معنى عبادة الله:

ولقد جزم الإسلام للإنسان المسلم، ولكل مخلوق من الناس، بأنَّ

---

(١) النساء/ ١٧٢.
(٢) المائدة/ ١١٦ - ١١٧.
(٣) الكهف/١.
(٤) الإسراء/ ١.

هذه العبادة لا تكون إلاَّ لله تعالى الذي خلقه فسوَّاه. فهي تذلل وخضوع له، مبعثه الإيمان والقناعة التامة والحب العظيم الذي لا يدانيه حب أي شيء عداه. وهي استعداد للالتزام بكل ما شرعه الله وما وجهه من أمر ونهي أو رسمه من معالم وحدود. يقول ﷺ فيما رواه أبو داود بسند حسن «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان». وقال فيما روي في الصحيح: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبُّه إلاَّ لله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار» ورأس هذا كله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾(1) وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾(2).

وقد عرف ابن تيمية العبادة بقوله: «هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة وبرّ الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر والحكمة والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته

---

(1) التوبة/ ٢٤.
(2) البقرة/ ١٦٥.

والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله[1].

بل إنَّ مفهوم العبادة هذا لهو أوسع بكثير مما ذكره ابن تيمية، لأنَّه يتسع لكل ما يرتبط بشأن حياة الإنسان فرداً أو جماعة وينظم أموره فيها من أصغر شأن من شؤونه إلى أعظمها وأجلِّها، من إماطة الأذى عن الطريق إلى سياسة أمور الحكم وبناء الدولة وتعريف أصول علاقاتها مع الدول في السلم والحرب.

وإنَّ الخدمات الاجتماعية التي أشار إليها ابن تيمية، وقد يتفرَّغ لها البعض من الناس مخلصين لله تعالى لا بقصد ثناء، ولا كسب سمعه ولا جاه، بل لخدمة فقير أو مسكين أو لدفع كرب عن مكروب أو كشف ضرٍّ عن مصاب أو محزون أو إشباع جائع أو قضاء دين غارم أو تعليم جاهل أو إيواء غريب أو ابن سليل، أو بلسمة جراح مريض بتقديم الدواء أو العلاج له. . إن كل هذه الخدمات وما شابهها هي في نظر الإسلام من العبادات التي يشجع عليها رب العالمين ويعد للقائمين بها بإخلاص الثواب الحسن والأجر الجميل.

وكذلك فإنَّ من العبادة لله أن يسعى العبد في الحياة ويضرب في الأرض بحثاً عن رزقه ورزق عياله، فالعامل المخلص لله سواء كان في مصنعه أو في تجارته أو في مكتبه أو في مدرسته أو في مؤسسته الصحية أو الاجتماعية هو متعبِّد لله. وقد ورد عن كعب بن عجرة قال: «مرَّ على النبيِّ ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَدِهِ وَنشاطه، فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال: «إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين

(١) العبودية لابن تيمية/ ٣٨.

كبيرين فهو في سبيل الله. وإن كان خرج يسعى على نفسه يَعِفُّها فهو في سبيل الله. وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان».

وهكذا فإنَّ المسلم من حين يستيقظ فيفتح عينيه على ما حوله يبدأ عبادته لله، يبدأها بالذكر والصلاة والدعاء، ثمَّ بالعمل والسعي والخدمات وأنواع التصرف والسلوك، يحفزه على ذلك طاعة لله وإخلاص له، والتزام دقيق بما رسمه له من حدود ومعالم. فهو يعبده بالذكر، ويعبده بالفكر، ويعبده بالاستماع والتأمل والنظر، ويعبده بالحديث، ويعبده بالعمل وبذل المال والوقت والجهد والنفس. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِيْنَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوْداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُوْنَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾[1].

الحكمة من شريعة العبادات:

وإذا كان الله تعالى قد شرع للمسلم الأركان الخمسة؛ من الشهادتين إلى الصلاة والصوم والزكاة والحج، فلأنها في مجموعها تعمل على إعداد نفس المؤمن وتهذيب شخصه وإحياء ركائز الضمير الذي يمثل فيه عامل التوجيه إلى البر والصرف عن الإثم، وصمَّام الأمان الذي يحرسه من وَسْوَسَة الشيطان وإغرائه وفتْنَته، ويضمن دفعه على الدوام في سبيل الحق والهدى والإحسان والفضل.. فالعبادات للمسلم تحضِّره ليكون متأهباً لسلوك دروب الفلاح، نافراً من كل انحراف يؤدي إلى مهاوي الشر والفساد؛ إنَّها الرِّباط الحيُّ المتكرر خمس مرات في اليوم والليلة الذي يصل الإنسان

---

(١) آل عمران/ ١٩٠ ـ ١٩١.

بربِّه، فينير قلبه ويساعد على إرهاف إحساسه وذوقه، وزيادة إيمانه وتحصينه بمنعه من اختراقات الشيطان. . .

ولقد كانت الصلاة رأس العبادة وذروة سنامها وأعلاها على الإطلاق. وكانت قرَّة عين رسول الله وملاذه حين يَحْزِبُه أمر أو يشتدّ عليه حال، يجد فيها راحة النفس وطمأنينة القلب ونشوة الجوارح والمشاعر، ولم يكن عبثاً أن نجد رب العالمين يأمره ﷺ بالقيام الطويل فيها ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ فكان ﷺ يأنس بالصلاة كل الأنس. ويجد في الاستغراق فيها كل المتعة والحبور وينتظرها انتظار الظمآن اللهف إلى شربة الماء العذب الزلال، ويهرع إليها كما يهرع السائر في الصحراء إلى الواحة الخضراء. فكان يقول لبلال إذا كان وقتها «أرحنا بها يا بلال» وحدثت عنه عائشة رضي الله عنها تصفه عند دخول الصلاة فقالت: «كان رسول الله ﷺ يحدِّثنا ونحدِّثه فإذا حضرت الصلاة فكأنَّه لا يعرفنا ولا نعرفه» فلا عجب أن يقول بعد هذا ﷺ: «وجعلت قرَّة عيني في الصلاة»[1]. ولعلَّ السرَّ في ذلك ما يكشفه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِيْنَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ﴾[2].

العبودية لله والعبودية لسواه:

والعبودية لله في خلوصها وصفائها وصفٌ يقوم بالذات فيساعدها على أن تتحرر من سيطرة الإغراءات الماديَّة على اختلافها، وعلى أن

---

(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي.

(٢) سورة الحجر/ ٩٧ ـ ٩٩.

تتمكن من نفسها فتعيش في أجواء ربَّانية نقيَّة من ظواهر الشرك والضلال. بينما العبودية لغير الله هي تخبط في عبادة آلهة شتى وأرباب متعدِّدين متفرقين، عبادة المال أو الجاه أو السلطان أو الحب أو الهوى أو بعض المخلوقات.

لقد شرع الله العبادة وفرضها على الناس له لتخلصهم من ضيق الدنيا وتفتح لهم آفاق الإيمان الرحيب ولتجعلهم دوماً في ذكر من نعم الله التي لا تحصى والتي تغمرهم في ذاتهم وفي حياتهم اليومية حتى يرث الله الأرض ومن عليها يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوْهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحصُوْهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُوْمٌ كَفَّارٌ﴾(١).

وظلم الإنسان هذا يتجلَّى وضوحه فيما عجب منه رب العالمين في الحديث القدسي الذي يقول: «إني والجن والإنس في نبأ عظيم أَخْلُق ويُعبد غيري. وأَرزق ويشكر سِواي. خيري إلى العباد نازل وشرُّهم إليَّ صاعد. أَتحبّب إليهم بنعمي وأنا الغنيُّ عنهم، فيتعرَّضون إليَّ بالمعاصي وهم أفقر شيء إليَّ»(٢).

فضل العبادة بالإجمال:

وهكذا فقد أحدثت تشريعات العبادة هذه في المجتمع المدني ومن ثمَّ في المجتمع العربي كافة ثورة بعيدة الأثر في مفهوم الحياة وهدفها

---

(١) إبراهيم/ ٣٢ ـ ٣٤.

(٢) العبادة في الإسلام للشيخ يوسف القرضاوي/ ١٠٩.

والعبادة وأسرارها. فجعلت في قمَّة مقاصد الحياة عبادة الله الواحد في تذلل وحب وطاعة. كما جعلت العبادة لله سبيل التحرر من كل تبعية وخضوع لما سواه وسوى أوامره وحدوده. ووسيلة لتهذيب النفوس وتليين القلوب وتنشيط الضمائر واكتساب أحسن الأخلاق وأفضل الأعمال وأسماها.

نقضها سلطة الكهنة وسواهم:

وبهذا نقض سلطة الكهنة والعرَّافين والأرباب المتفرقين والآلهة المتنوعة والمتعدِّدة من الشمس والقمر والكواكب والنار وبعض الحيوانات والأشجار والجن والأصنام والأوثان، ووصل المؤمن بالله وصلاً مباشراً عن طريق الصلاة والدعاء والذكر وسواها، وألغي سلطة الوسطاء الدينيين والشفعاء أيَّاً كانوا. وأوهن من تأثير ماديات الحياة وإغراءاتها، والأزواج والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والحرث والأنعام والأراضي والقصور. وحذَّر من اتباع الأهواء والاستعباد لها. وعبَّأ نفس المؤمن بالثقة التامة بربِّه وعدله وكرمه. وأحاطه كليَّاً بجميع المفاهيم التي تساعده على العيش في الأجواء الربَّانيَّة الطاهرة، التي تمنحه كل الثقة بالذات وتمكنه من قوَّة العمل واستقامة السلوك ونظافة الظاهر والباطن، وأن يكون على استعداد تام للبذل والتضحية في سبيل الآخرين ضمن ما تقرِّره مبادىء الإيمان وما دام ذلك كله يعزِّز القيم الدينية الثابتة. . .

لقد فعل الإسلام كل هذا في المسلم فرداً وجماعة. ونبهه كما رأينا فيما تقدم أن يكون كل ذلك في حدود التوسط والاعتدال ودونما تطرف أو غلو. ففهم المسلم أنَّ عبادته لله لا تكون حكراً على حال، بل هي تكون في العمل المأجور والعمل غير المأجور، في الرياضة من السباحة والرمي وركوب الخيل ولعبة كرة السلة والقدم والتنس على اختلافه وكل

ينفع الإنسان ولا يضره، كما تكون في الصلاة والصوم والزكاة والحج، شرط ألّاً ننسى وجوب إنزال الصلاة والصوم وبقية الفرائض المنزلة السامية في الاحترام، وأن نوليها ما تستحق من الاهتمام، على اعتبار أنها أركان الإسلام العبادية الأولى التي أوجبها الله على عباده ليقوموا بها، وحذّر من عاقبة التهاون والتقصير فيها..

ولقد قلبت العبادة بهذا المفهوم موازين العمل في المجتمع المدني بعد الهجرة، وحفزت همم الناس للسعي في مختلف الميادين والحقول التي تساعد على تطوير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والخدمات العامة والخاصة. كل ذلك في حدود ما يصلحهم ويحسّن ظروفهم المعاشية.

التشريعات الفردية والاجتماعية:

وقد جاءت بعد ذلك التشريعات المختلفة تَتْرى، لتتناول حياة الفرد والجماعة، ومسؤولية كل منهما، وتلزمهما بأن يحترم كلٌّ منهما حدوده ويلتزم بها، تحت طائلة الحساب في الدنيا أمام المرجع المختص، بل والحساب الدنيوي والأخروي من الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وذلك كله في الإطار الذي ينمِّي المفهوم التعبُّدي وينسجم معه ويحصنه ويرسخه في نفوس الأفراد والجماعات.

فلم يعد الفرد بعد هجرة الرسول في المجتمع المدني كائناً سائباً تائه السلوك ضال الخطى زائغ الهدف، يأكل ما يشاء ويشرب ما يهوى وينقد كل ما يشتهي كما كان في المجتمع المدني قبل هجرة الرسول أو في كل مكان من الجزيرة.

ولم يعد أيضاً بعد هجرة الرسول ﷺ ودخوله في الإسلام حرّاً في

تحديد انتماءاته، كما كان شأنه من قبل في جاهليته فينتمي للجماعة متى يشاء وينفك عنها حين يحلو لـه وتبعاً لمصالحه وأهوائه.

لقد أصبح يعيش في مجتمع جديد ذي أهداف وحدود وأنظمة، وآل هو فيه كائناً حيًّاً وركناً هاماً لأنَّه يشكل جزءاً أساسياً فيه. وإن أي إحسان يؤديه ينعكس على كامل الجسم كما أن أية إساءة تقع منه تصبب بضررها أيضاً الجسم كله.. ولذلك فقد أصبح مفروضاً عليه الالتزام بكل ما تلتزم به جماعته، ومجافاة كل ما تجافيه. بل وأصبح حتى هواه تبعاً لهوى الجماعة، ومصالحه كلها مرتبطة بصالحها، لأنَّ المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. ولأن يد الله على الجماعة، وإنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية... بل إنَّ أي إخلال يقع منه فينعكس سوءاً على مصلحة عامة يحاسب عليه في الدنيا من الإمام الذي يقدر له عقوبته ونوعها، ما لم يكن هذا الإخلال يصيب حداً من حدود الله التي جاءت النصوص بتحديد عقوبتها. وسواء كان هذا الإخلال نتيجة عمل جنائي أو حقوقي أو مالي أو اجتماعي إنساني، ذلك لأنَّ من أبرز ما اختصَّت به الشريعة الإسلامية كونها ذات مقاصد شرعية؛ فهي شريعة إيمانية تهدف إلى تنفيـذ ما أمر به الله، ومنع ما نهى عنه، وعلى أن يكون أساس التعامل بين الناس إقامة المصالح الشرعية بجلب المنافع لهم ودرء المفاسد عنهم.

ومن أجل هذا فإنَّ المفروض في مقصود التاجر من تجارته ألاَّ يحقق الربح لنفسه فحسب، بل أن يحقق قبل ذلك جلب المصالح للعامة بتقريب السلع لطالبيها حفظاً لضروراتهم ورفعاً للمشقة عنهم وتيسيراً لشؤونهم المعاشية. ومن هنا فإنَّ نفعه لنفسه يكون فرعاً من قصده لتحقيق النفع العام، وتكون المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة في حال تعارضهمـا.

ومن أجل هذا أيضاً كان على التاجر التزام الصدق في المعاملات وحسن المطالبة وحسن الوفاء. وكان ملزماً بألّا يقدم على بيع الأعيان المحرَّمة، أو عقد الإجارة على معصية. ذلك أنَّ الشريعة الإسلامية تقرر في عمق مبادئها وأصولها ضمان الصالح الجماعي، وأنَّ حقوق الأفراد ووسائلهم تبقى موجهة مقيَّدة به. وحُرِّية الإرادة عند الفرد مقيدة. وليس له أن يبرم من العقود ما شاء أو يشترط من الشروط ما يريد، لأنَّ إبرامه للعقود وشرطه للشروط مقيد بما لا يتعارض مع الصالح العام ذكر ذلك أو لم يذكر، والناس في ذلك سواء[١].

الحظر والإباحة:

وبيسير من التتبع للخطوات التشريعية في باب الحظر والإباحة، كالمطاعم والمشارب وأنواع السلوك والتكاليف عامة في أبواب العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية والجهاد والحدود والقصاص، يبدو جلياً لكل بصير وضوح الإنسجام فيما بينها، وعميق ترابطها وتماسكها لبيان الهيكلية التشريعية في إطار الإيمان بالله الواحد القهار، الهادفة بجمَّاعها إلى حفظ مصلحة الإنسان فرداً وجماعة ومؤسسات ودولة. الأمر الذي يكشف لنا سِرَّ نجاح محمد ﷺ في إقامة قواعد مجتمعه المدنيّ، ومن ثمة أمته المتماسكة ودولته الرائدة..

---

(١) راجع الحاشية على هامش الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك لأبي البركات ٣/٥ طبع دار المعارف بمصر.

الفصل الثالث

نماذج من الإصلاحات
التي تمت في عهد الرسول ﷺ بعد هجرته

رابطة الإيمان ورابطة النسب:

لقد كان من الطبيعي في ضوء المفهوم الإسلامي للعبادة، وفي ضوء التشريع أن تظهر مجموعة من الإصلاحات في المجتمع الإسلامي المدني في حقول متنوعة سنأتي على ذكر بعضها ذكراً فيه الكثير من الإيجاز.

وإنَّا نستطيع القول بأنَّ محمداً ﷺ تمكَّن سحابة الفترة التي شاء الله له أن يعيشها بعد هجرته إلى المدينة، وهي فترة قصيرة جداً، أن يقيم مجتمعه وأمته على أسس دينية واضحة ومركزة، قوامها وعمودها الإيمان بالله ثمَّ الأخوَّة فيه، وأنَّ المسلمين يد على من سواهم. وقد تمكن أيضاً من إلغاء القاعدة العربية الجاهلية التي كانت تعتمد روابط النسب وحدها كأساس لوجود القبيلة والجماعة. وفي هذا ما فيه من التطوير، ودفع العلاقات الاجتماعية إلى التحسن والاتساع والانتشار، ومساعدة

الإنسان العربي للخروج من عزلته المضروبة عليه بفعل التقيد بقبيلته وجماعته الخاصة، وبالتالي تحريك المجتمع العربي بعد جمود مميت وطويل.

الثأر في الإسلام:

وقد استطاع الإسلام أيضاً في هذه المرحلة المباركة أن يلغي قاعدة الثأر العربية القديمة ذات السلبيات الكثيرة، والتي كانت سبباً للعديد من المآسي السود على الجزيرة ومن فيها، وأن يقيم على أنقاضها قاعدة ﴿كُلُّ آمْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ وأنه ﴿لاَ تَزِرُ وَاْزِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بل تمكن في بعض الأحيان من حمل الناس، بما شجعهم عليه من آداب، وزرعه في نفوسهم من مفاهيم عليا، على تغليب فكرة العفو والمسامحة التي ركز عليها الكتاب الكريم بقوله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِيْنَ﴾[1] وقوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِيْنَ ﴾[2] وقوله: ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيْمٌ وَمَا يَلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِيْنَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيْمٍ ﴾[3].

الإسلام والمساواة أمام القانون:

وقد تمكن الإسلام من ترسيخ مبدأ العدل والمساواة بين جميع المؤمنين، بحيث لم يعد من فضل لشريف على سوقه ولا لأبيض على

---

(١) النحل/ ١٢٦.
(٢) الشورى/ ٤.
(٣) فصلت/ ٣٤ ـ ٣٥.

أسود ولا لعربي على أعجمي إلاَّ بالتقوى والعمل الصالح. وهكذا أصبح كل الناس سواء أمام القانون؛ فلا يعفى إنسان من عقوبة لنسب يمتاز به أو مكانة اجتماعية يشتهر بها. يشهد بذلك ما روته عائشة رضي الله عنها: إنَّ قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية فقالوا: من يكلم رسول الله ﷺ ومن يجترىء عليه إلاَّ أسامة حِبّ رسول الله ﷺ؟ فكلم رسول الله، فقال ﷺ: «أتشفع في حدّ من حدود الله»؟ ثمَّ قام فخطب فقال: «أيها الناس إنَّما ضل من قبلكم أنَّهم كانوا إذا سرق الشريف فيهم تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد. وآيمُ الله لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»[1] وكذلك موقف عمر رضي الله عنه من جَبَلة بن الأَيْهم الذي صفع أحد الأعراب على وجهه وهو من مزينة، ذلك الموقف الذي أصرَّ به رضي الله عنه على الاقتصاص من جَبَلة للأعرابي، الأمر الذي حمل جَبَلَة على الفرار ليلاً والارتداد عن الإسلام.

تحريم وأد البنات وقتل النفس بغير حق:

وقد حرَّم عادة وأد البنات التي كانت شائعة قبل الإسلام في بعض القبائل العربية بسبب الفقر أو خوف العار وذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾[2] وبقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[3] كما حرم قتل النفس عامة بغير نفس وبغير حق ظلماً وبغياً. وجعل أمر القصاص فيمن قتل مظلوماً إلى السلطان وحده الذي يطبِّق القانون على القاتل وحدَّ الله تعالى

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ٢/٧٨.
(٢) الإسراء/ ٣١.
(٣) التكوير/ ٨ - ٩.

فيه. يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوْماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِي الْقَتْلِ إنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾(١) وبهذا أيضاً أكَّد إبطال شرعة الثأر التي كانت مستفحلة في العرب في المدينة وغيرها.

الجماعة هي حارسة الفرد:

وحسب الإسلام فضلاً، إنَّه جعل من الجماعة حارساً للأفراد ولمصالحهم، ومسؤولاً أمام الله تعالى عنهم. كما جعل من الأفراد رجال شرطة جاهزين في كل لحظة لإنكار الفساد وإبطال الشر، والإجهاز عليه بالقول أو بالفعل، وعلى الأقل لعدم الرضا به، وذلك حين اعتبر مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جزءاً هاماً من إيمانهم وندبهم جميعاً أفراداً وجماعات إلى القيام بها احتساباً ومن منطلق المعرفة الصحيحة والغيرة الصادقة والمحبة المخلصة. يقول تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ﴾(٢).

إصلاحات أخرى:

ومن التشريعات التي جاء بها الإسلام فتم بها الكثير من الإصلاحات الاجتماعية والمالية والشخصية، تحريم الربا والخمر والميسر والإزلام والميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والنطيحة والمتردية وما أكل السبع: يقول تعالى حاضاً على مجافاة الربا والبعد عنه: ﴿الَّذِيْنَ يأْكُلُوْنَ الرِّبَا لاَ يَقُوْمُوْنَ إلاَّ

---

(١) الإسراء/ ٣٣.

(٢) آل عمران/ ١١٠.

كَمَا يَقُوْمُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوْا إِنَّما الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إلى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُوْنَ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيْمٍ﴾[1].

وبتحريم الربا أنقذ الإسلام المسلمين مما كانوا به مستعبدين من الآخرين قبل تحريمه، فقد كانت قلّة من الأغنياء تعد على أصابع اليد الواحدة، تستغل عشائر وقبائل، وتستنزف أموالهم وتسخّرهم لمآربهم. بل وشق طريقاً من طرق التحرر أمام الإنسان في العالم على مدى التاريخ.

هذا ويقول الله تعالى في تحريم المطاعم التي ذكرناها: ﴿وَحُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوْذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ دِينُكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[2] ويقول في تحريم الخمر والميسر والأنصاب: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوْهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ إِنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ﴾[3].

ولقد كان لهذه الإصلاحات صداها البعيد في إنعاش حياة الفرد

---

(١) البقرة/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦.
(٢) المائدة/ ٣.
(٣) المائدة/ ٩٠ ـ ٩١.

والحياة الاجتماعية عامة وتنشيط المواطن من سكان المدينة وممن أسلموا في أطراف الجزيرة لما تركت في نفوسهم وعقولهم وأبدانهم من أثر حسن. فقد خلصتهم من كثير من الآفات البدنية والعقلية والنفسية والاجتماعية وحررتهم من بعض العادات الموبقة والخصال الآثمة الخطيرة وأنقذتْ بيئاتهم من العديد من المظاهر البائسة التي كانت تنسحب على المجتمع العربي الجاهلي في المدينة وسواها.

الفصل الرابع

السِّيَاسَة وَالمَدِينَة

السياسة وسكان المدينة:

لم يكن سكان المدينة من العرب واليهود يمارسون السياسة بمفهومها الحديث، ولا بالمفهوم الذي ينشأ لدى المجموعة ذات النظام الذي تخضع له وتنقاد. فقد كانوا كما عرفنا قبائل وعشاير وبطوناً وأفخاذاً لا يتواصلون ولا يتعاونون إلاَّ عند خطر الحرب. ولئن كانت تقوم بين بعضهم والبعض الآخر أحلاف تنطبق عليها بعض الممارسات السياسية، فإنَّ هذه المحالفات ما كانت لتدوم طويلاً، أو ليستفاد منها كثيراً.

ولأجل هذا فإنَّ العرب في الجاهلية سواء كانوا من سكان المدينة أو من غيرها، كانوا بعيدين عن ممارسة فن السياسة بمفهومها الدولي القديم والحديث، لما قلناه آنفاً، ولأنَّه لم تنشأ فيهم على تقلب الدهور الطويلة دولة ذات سيادة وسلطان، تعالج شؤونها وشؤون شعبها من خلال منهج سياسي واضح..

ولما دخل الرسول ﷺ المدينة بعد هجرته إليها وصادف هذا الواقع، لم يكن أمامه إلاَّ أن يعدِّله بما يساعده لبناء مجتمعه الجديد في ضوء رسالته الدينية ذات العقيدة والتشريع والآداب التي يفرض فيه أن يحمل الناس على الالتزام بها في مختلف حالاتهم المعاشية والاجتماعية.

الرسول والسياسة:

وكان لا محيص له من اعتماد سياسة مرسومة يركز بها مجتمع المدينة الحديث على الأسس العقائدية والتشريعية التي جاء بها الإسلام وفي ظلال من آدابه وأخلاقه.

ولقد رأينا من قبل مدى اهتمام الرسول ﷺ من خلال دين الإسلام الذي جاء به، في تعميق مفهوم عبادة الله في نفس المؤمن ونشر أثرها على سلوكه الفردي حتى أضحت ركيزة كل تصرف أو سلوك منه.

وأنَّه عندما كان يحفل ببناء الهيكلية الاجتماعية لمجتمع المدينة لم يغفل عن هذا لمفهوم، بل ظلَّ يعتبره أيضاً الأساس الذي ينبغي أن ينهض عليه بناء الجماعة وبناء الأمة.

ومن هنا فقد كانت سياسة الرسول ﷺ من الخطوة الأولى واضحة المعالم بيِّنة الحدود. سياسة ترمي إلى جمع القلوب وتوحيد الصفوف ولملمة ما تبعثر من أفراد سكان المدينة ليكون منهم المجتمع المنسجم المتناغم المتعاون.

إنه كان يرى ما ينتظره من استحقاقات قريبة مع قريش وأحلافها من القبائل المجاورة لها، ويعلم أنَّ مقابلة ذلك وحده لا يتحقق من خلال مجموعة بشرية لا تواصل بينها ولا ترابط.

فعقدة الإيمان الأولى هي العروة الوثقى التي ربطت مسلمي المدينة والذين هاجروا إليها من المسلمين الأولين. ثمَّ الركائز التشريعية المختلفة التي ذكرنا طرفاً منها آنفاً زادت من قوَّة هذه العروة وأحكمت رباطها.

السياسة والأخوة:

ولكن هذه العروة على قوتها، كان لا بدَّ لها من إخراج يبرز قيمتها ويضعها موضع التنفيذ بشكل يؤمن معه من خرقها أو التفصّي منها. فكانت سياسة الرسول ﷺ أو بالأصح سياسة الإسلام بإعلان أخوة المؤمنين وعقد رباطها بين الأنصار بعضهم مع بعض وبينهم وبين المهاجرين وتعزيز ذلك بالنصوص القويَّة من القرآن الكريم ومن السنَّة التي سقنا الكثير منها فيما تقدم. والتي أصبحت معها هذه الأخوة في صدر الدعوة وخطواتها الأولى أقوى من أخوة النسب...

ولم تكن هذه الخطوة وحدها لتكفل ما كانت تهدف إليه سياسة الرسول ﷺ من إيجاد المجتمع القوي المتماسك القادر على التصدي لكل ما قد يفاجئه من صدمات وعصفات، وبخاصة وأنَّه كان فيهم قبائل اليهود من بني النضير وبني قريظة وبني قنيقاع، بل كان يفرض عليه أن يحدد نوع العلاقة بين سكان المدينة المسلمين المتآخين، وبين جوارهم من القبائل اليهودية. وقد أفلح فجعلها على نسق نادر ومثال عجيب يكاد ألاَّ يكون تاريخ الإنسان قد شهد مثله في تقلب أيامه وأعصره وفي مجرى العلاقات بين فئام الناس وشعوبها.

الصحيفة ومجمل ما ورد فيها:

ولقد كتب لهم صحيفة حدَّد فيها شكل العلاقة ونوعها بين

المسلمين واليهود وأقام بينهم جسور التعاون بعد أن كانت قد تهدَّمت من قبل. ويمكن تلخيص مجمل ما ورد فيها من بيان للمنهج الإسلامي السياسي والنظامي في التعامل مع الآخرين. فقد جعلت المسلمين قبل كل شيء أمة واحدة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم. وأفهمتهم بأنَّه من مقتضيات هذه الوحدة أن يتحقق بينهم التعاون، ويقوم بينهم التراحم. ويحتفظوا برابطة الولاء وما يترتب عليها من حقوق، وأن يرعوا حقوق القرابة وحقوق الصحبة وحقوق الجوار. وقد ركَّزت إلى حدّ بعيد على توضيح المسؤولية الشخصية، وحضت الجميع على الإقلاع عن ثارات الجاهلية وحميّتها، كما حظَّرت التقاتل وسفك الدماء. وفرضت الخضوع للنظام ورد الأمر إلى أولي الأمر، وكذلك شؤون الحرب والسلم. وأمرت بالضرب على يد الظالم، ونهت عن مناصرة المحدثين للشغب أو إيوائهم.

لقد عبَّرت هذه الصحيفة عن عمق سياسة الرسول ﷺ وحكمتها وحسنها، فقد كانت ترتكز على قواعد من الخير والحق، وتهدف في الوقت نفسه إلى ما يعزز الحق والخير، فهو لم يشأ الاكتفاء بعقد التآخي بين أتباعه المؤمنين وضمان تعاونهم وتناصرهم، بل أراد أن يضمن سلامة مجتمعه ككل من أن تظهر فيه أية بادرة مزعجة أو مقلقة تثير النزاع والصراع في داخل مجموعته في الوقت الذي هو فيه مؤهل لتلقي غزوات قريش التي اشتدت عداوتها عليه وكانت سبب هجرته من أحب أرض الله إليه.

معالم سياسة الرسول من حلف الفضول:

وسياسة وحدة الصف واجتماع الكلمة والتعاون والتناصر في وجه

الظالمين والأشرار، لدفع خطر الظلم والشر والإثم والبغي، بدأت معه من نعومة أظفاره يوم وقعت حرب الفجار بين قيس وقريش ومعها كنانة. وكان رسول الله ﷺ مع قومه. وقد ذكر حرب الفجار هذه وقال: «قد حضرته مع عمومتي ورمَيْت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت» وكان يوم حضر ابن عشرين. فإنّه قد اجتمعت بعده بنو هاشم وزهرة وتَيْم في دار عبدالله بن جُدعان، فصنع لهم طعاماً، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله «لنكونَنّ مع المظلوم حتى يؤدَّى إليه حقُّه ما بلَّ بحرٌ صوفه» فسمّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقد حضره ﷺ وقال فيه: «ما أُحبُّ أن لي بحلف حضرته بدار ابن جدعان حُمْرَ النَّعم وأنّي أغْدر به، هاشم وزُهرة وَتَيْمٌ تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بلَّ بحرٌ صوفه. ولو دُعيت به لأجبت وهو حلف الفضول»(١).

سياسة التحالف مع الجوار:

ولم يقتصر أمر سياسته هذه على هاتين الخطوتين، خطوة التآخي بين أتباعه المؤمنين، ثمَّ خطوة موادعة اليهود. بل اتسع بحيث شمل ما حول المدينة، إذ كان رسول الله ﷺ يقوم ببعث العديد من السرايا إلى خارج المدينة وفي كل الجهات التي تحيط بها، بقصد استكشاف ما قد يكون قد بيّت البعض عليها من عدوان أو ما شابه ذلك، وللمحافظة على حدودها وحمايتها من أي غزو مفاجىء.

التنظيمات العسكرية:

بيد أنّ هذه المحالفات كان لا بدَّ لها من قوَّة وراءها تحمي عقودها وتنفذ ما قد ورد فيها من بنود وقرارات. وكان لا مناص من التحضير

(١) طبقات ابن سعد/ ١٢٩.

لاحتمال قيام مجابهات عسكرية مع الجوار فيما لو لم يشأ بعضهم الالتزام بالحق والعدل، وبخاصة مع قريش التي ما فتئت تبيّت له العداوة وتحضر له يوماً مشهوداً.

وهكذا فقد حصد الرسول ﷺ ثمرة هذه السياسة الحكيمة فاجتمعت كلمة أصحابه وصاروا كالبنيان المرصوص. وأمن خطر اليهود المجاورين له بما أقامه معهم من عقد موادعة، كما أمن خطر المحيط بما كان يقوم به من فترة إلى أخرى من إرسال السرايا التي تثبت حضوره وقيام قوّة رادعة بين يديه.. وتقيم له المهابة في النفوس.

بداية المعارك والانتصارات:

ولم تكد تطل عليه السنة الثانية بعد إقامته في المدينة حتى رأى المسلمون أنفسهم في بَدْر بقيادة الرسول ﷺ وجهاً لوجه أمام جيش قريش اللجب الذي جاء المدينة ليحمي قافلة لقريش أوشك المسلمون أن يصادروها، وليبقى طريق القوافل الذي تسلكه قوافل قريش آمناً سالكاً لا يهدده أحده.

وبعد أن انتصر الرسول ومن معه من المسلمين على قريش في معركة بدر الكبرى وكسر لأول مرّة في تاريخ الجزيرة شوكة قريش ومن كان يحالفها يومذاك، فقد سجلت كتب السير معارك متلاحقة وعديدة بين المسلمين بقيادة الرسول ﷺ وبين قريش بقيادة أبي سفيان ابن حرب مع من كان ينضم إليها من القبائل أكّدت كلها عزّة المؤمنين وارتفاع مشاعرهم بقيمهم الذاتية والدينية، وشدّت أواصر وحدتهم، وبسطت هيبتهم ونفوذهم على من حولهم من الأعراب بل وعلى الجزيرة كلها. وجاءهم الوفود من كل فج عميق يعلنون ولاءهم لهم وحرصهم على أن يعقدوا

معهم اتفاقات التعاون والتناصر وحسن الجوار.

تمكن المؤمنين من اليهود:

ولم يمض وقت طويل حتى كان هذا المجتمع الإسلامي المدني الصغير الذي لمّ الرسول ﷺ شعثه وجمع شتاته من القبائل والبطون المبعثرة في المدينة وما حولها، قد استكمل أحسن مقوّمات الجماعة المتماسكة من القوة المعنوية والعسكرية والسياسية، واستطاع التصدي لأبرز المشاكل الاجتماعية والسياسية استعصاءً عندما كانت تعترض تمام وحدته وكمال قوّته.

ولقد أحسن اليهود بهذه القوة وبخاصة بعد انتصاره ﷺ على قريش يوم بدر، وأدركوا نماءها وتعاظمها مع الزمن وبداية خطرها على كيانهم ووجودهم، فأخذوا ينشطون في داخل المدينة بإثارة المنازعات بين أتباعه عن طريق تذكيرهم بثارات الماضي وحروبه، ثمَّ بإيجاد أجواء سوداء من النفاق والدس والتآمر حول الرسول والتشكيك بالدعوة، حتى نشأت جماعة من المنافقين يعلنون الإسلام ويُبّطنون الكفر ويظهرون المحبة ويخفون العداوة والبغضاء، كل ذلك وهم يقصدون إرباك الرسول وضعضعة كيانه الجديد. وتفريق الناس من حوله وإثارة موجات التشويش عليه وعلى رسالته بما اختلقوه من أكاذيب ولفّقوه من تهم وشكوك حوله وحول بَيْته وأتباعه وشريعته. كما كانوا ينشطون بمساعي يقوم بها زعمائهم في الخارج، ليؤلبوا عليه قريشاً والأعراب، وليدفعوهم دفعاً إلى قتاله. ولم تكن هذه التصرفات لتخفى على الرسول ﷺ. كما لم تكن مقاصدها أيضاً لتنطلي عليه. ولكنه مع ذلك كان يعالجها بما آتاه الله من رفيع الأدب، وعظيم الحكمة والدراية والحنكة وبالإحسان والصبر، إلى أن طفح الكيل وبلغ السيل الزُّبى، فوقعت له معهم وقائع حربيَّة أنهت

وجودهم كليّاً من المدينة المنوَّرة وما حولها، وصفا الجو كله فيها للرسول ﷺ وصحبه المؤمنين، وأمِنَ في الداخل من أن يكون معه من يضايقه أو يتآمر عليه كما كان يفعل به اليهود وجماعة المنافقين.

ولما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد عشر سنوات تقريباً من التنظيم والتربية والتعليم والتأديب والسهر الدؤوب على المصلحة العامة، والعمل السياسي والعسكري والاجتماعي، كان الإسلام، بفضل الله تعالى، قد اكتسح ما حوله من دعاوى الوثنية والشرك وأغرق الجزيرة بأنواره، التي كشفت ظلمات الجهالات والضلالات، أو كانت في طريقها لكشف ذلك، وهيَّأتها لتسير في طريق الله الواضح المستقيم وتستلم زمام المبادرة في كل أمر من الأمور صغيراً أو كان كبيراً. . .

من سياسة الإسلام الحكيمة:

ولقد كان من أبرز تخطيط السياسة الإسلامية، أنَّ الرسول ﷺ كان في فترة رسالته، وبالذات في المرحلة التي قاد فيها الجماعة الإسلامية وأدار أمورها وتحركاتها العسكرية والاجتماعية والإدارية، يعلِّم الناس ويعظهم ويزكِّيهم ويتلو عليهم آيات الله البيِّنات والحكمة التي كانت تتنزل عليه بين الحين والآخر، ويمكِّن أعينهم وبصائرهم من رؤية مظاهر الخير والهدى والشر والضلالة، ولكنه كان دوماً يؤكد لهم أنَّه بشر مثلهم يمتاز عليهم فقط بما يوحيه الله إليه. وكان القرآن الكريم يؤكد هذا المعنى فيقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوْحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ واسْتَغْفِرُوْهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِيْنَ﴾[1].

---

(١) فصلت/ ٦.

فضل هذه السياسة:

وتعد من آثار فضل هذه السياسة والتوجيه الحكيم في الصحابة الكرام أنّها عزّزت فيهم تقدير الذات والثقة بقدراتها وطاقاتها، وعلمتهم وجوب الاعتماد على كفاءاتها، بـل إنها مكنت لهم ليكون لهم جهد إبداعي يرتكز إلى ما وضعه الله ورسوله بين أيديهم من هدى ونور وعلم وحكمة. وقد شجعهم من حين لآخر ليكون لهم اجتهاد حكيم ورأي سديد، ما كان رسول الله ﷺ يستعين بهم له من مشورة تبتعث فيهم أماني الاحترام للذات.

ولِمَ لا، فإنَّ رسول الله، رغم كل ما كان يحبوه به الله من وحي ورعاية وعصمة وعطاء لدُنّي، كان رجلاً منهم. وهو يؤكد لهم ذلك في أكثر من مناسبة، وإذن فإنَّ من حقهم أن يكون لهم سهم في بناء المجتمع الإسلامي، وإقامة صرح الكيان الإسلامي الكبير...

الشورى وآثارها:

ولقد كان للشورى التي كان رسول الله ﷺ يمارسها في قيادته الجماعة فضل كبير أيضاً، وإن كانت ظاهرة من مظاهر سياسة الرسول الحكيمة للأمة المسلمة. وذلك لأنّه ﷺ كان يركز على تعميقها في نفوسهم ويؤصّل معانيها وأهدافها فيهم، ليجنوا منها الثمار اليانعة في حياتهم الخاصة والعامة في أيامهم المقبلة؛ حتى كانت الشورى أحد الأسس السياسية في عهد الرسول ﷺ، وأحد أُسس الحكم في الإسلام التي يطلب إلى كل مسلم اعتمادها وإيلاءها ما تستحق من الرعاية والاهتمام. يقول الله تعالى في بعض آيات التوجيه الحكيم: ﴿فَمَا أُوْتِيْتُمْ مِنْ شَيءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَـى لِلَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ. وَالَّذِيْنَ

يَجتَنِبُونَ كَبَائِرُ الإِثْمِ وَالفَوَاحِش وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُوْنَ وَالَّذِيْنَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُوْرَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ﴾[1] وفيها يرسم للمسلمين بعض أصول التعامل التي يفرض عليهم اعتمادها في معاشهم ومخالطتهم الآخرين ليضمنوا نجاح مرادهم وتحقيق مقاصدهم وآمالهم ورغائبهم، وفي مقدِّمتها اعتماد مبدأ الشورى. ثمَّ يقول في آية أخرى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِيْنَ﴾.

ولئن كانت الآية الأولى قد أبرزت المشورة على أنَّها صفة من صفات المؤمنين حتى يأمنوا الزلل ويضمنوا الفوز في العمل، ولم تزد على ذلك، فإنَّ الآية الثانية قد جعلتها واجبة حيث ساقت عبارتها بصيغة الأمر للرسول ﷺ، وبالتالي لكل من يأتي بعده فيلي أمراً من أمور المسلمين؛ فهي واجبة على الولاة وعلى قادة الجيوش، وعلى كل مسؤول في مختلف ميادين العمل الإسلامي، يستشيرون بموجبها أهل العلم والاختصاص والخبرة والفكر القادرين على النفع والإفادة ليأتي قرارهم أو موقفهم رشيداً وحميداً.

أمثلة من استشارات الرسول:

ولقد استشار الرسول ﷺ أصحابه يوم بدر وقبل قراره بملاقاة جيش قريش وقال لهم بصريح العبارة يومذاك: «أشيروا عليَّ أيها الناس: وأخذ برأي الحباب بن المنذر[3] فنزل بأدنى ماء من القوم وغوَّر ما وراءه

(١) الشورى/ ٣٦ ـ ٣٨.
(٢) آل عمران/ ١٥٩.
(٣) تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون/ ١٥٦.

من القُلُب وبنى عليه حوضاً فملأه ماء فشرب هو وأصحابه من دون المشركين وذلك بعد أن قال له: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل الذي نزلته [وهو أدنى ماء من بدر] أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدَّمه ولا أنْ نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة. وأجابه الرسول ﷺ: «بل هو الرأي والحرب المكيدة..» وأخذ برأي سعد بن معاذ الذي أشار عليه بأن يبني له مركزاً للقيادة يدير منه المعركة. ثمَّ استشار أصحابه في شأن الأسرى(١). وأخذ برأي سعد بن عبادة وسعد بن معاذ يوم الخندق بترك مصالحة غطفان على بعض ثمار المدينة لينصرفوا عنها، فقبل منهما ومزّق الصحيفة(٢). وشاور أصحابه يوم أُحُد، فأشاروا عليه بالخروج من المدينة لملاقاة قريش خارجها. فأخذ برأيهم، مع أنه كان ﷺ مع كبار الصحابة يميل إلى البقاء في المدينة(٣).

وقد اتفق العلماء على أنَّ الأمر بالشورى والالتزام بها مقصود منه أن تكون في الأمور التي لم يرد فيها نص من القرآن، أو لم ينزل فيها وحي من عند الله. لأنَّ قيام النص يُبطل الرأي ويُلْغي الاجتهاد والقياس.

وقد جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة شورى. ونقل عنه ﷺ أنَّه قال: «ما ندم من استشار ولا خاب من استخار» وروى سهل بن سعد الساعدي عنه ﷺ أنَّه قال أيضاً: «ما شقي عبدٌ بمشورة وما سعد باستغناء رأي» وقال البخاري: «كانت الأئمة بعد النبي ﷺ

---

(١) الشورى والديمقراطية على محمد لاغا ومراجع أخرى منها ابن هشام وطبقات ابن سعد والسيرة النبوية لابن كثير وغيرها.
(٢) تفسير الفخر الرازي ٦٩/٩.
(٣) تفسير القرطبي ٢٥٣/٤.

يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها»[1].

وهكذا فقد كان ﷺ يسوس رعيته سياسة الحكيم الرفيق والمعلم المرشد، ويحرك فيهم مشاعر الثقة العميقة بربهم، ثمَّ الثقة بالنفس. ويعمّق صلتهم بربِّهم مع توضيحها بأنَّها صلة العبودية والخضوع والطاعة في كل ما أمر به ونهى عنه. ويحاول من خلال هذا المفهوم تثبيت مفهوم الاتكال على الله الذي لا يتضارب مع الثقة بالذات والاعتماد عليها لتتحمل مسؤولياتها في ظلال من الطمع برحمة الله وعونه وهداه وتوفيقه.

صور من التنظيمات المستحدثة وأساليب ضبط الأفراد والجماعات:

ومن هذا المنطلق كان ﷺ يعيّن الأمراء على السرايا من عاديي المؤمنين وكذلك القضاة للفصل في منازعات الناس. ثمَّ المحتسبين للسهر على حسن سلوك الأفراد والتجار وتعاملهم، كما كان يعين الكتاب وأمناء السرِّ وأصحاب العسس وهم الذين يسمَّوْن اليوم بالشرطة ليتبعوا العائثين والعابثين وأهل الريب.

وقد استحدث ﷺ السجون للرجال[2] والنساء[3] وأسند للمشرفين عليها أساليب من التأديب بالضرب أو بالنفي. كما اتَّخذ الحرس والدَّبابات الخشبية لحماية المهاجمين من أفراد جيشه من سهام رماة[4] الأعداء. إضافة لما استحدثه من أفانين مبتدعة في الحروب في الكرِّ والفرِّ والنزال والطعان وعقود الصلح والأمان مع الأعداء

وقد نظم الإشراف على الأسواق وحماها من أساليب الغش

(١) التراتيب الإدارية للكتاني ١/١٧٥ ـ ٣٠٠.
(٢) (٣) التراتيب الإدارية للكتاني ١/١٧٥ ـ ٣٠٠.
(٤) المصدر نفسه ١/٣٧٥.

والاحتكار. ونظم المكاييل والموازين. وعرف بالطرق التي ينبغي أن يكون عليها عرض البضاعة حتى لا ينخدع بها الناس.

وشجع أصحابه على تعلم لغات الأقوام الأخرى، وعلى تعلم المهن وبعض الصناعات. وحثّهم على حراثة الأرض وزراعتها والتماس الرزق من خباياها. وإنشاء الترع والجسور وإصلاح وسائل الري[1] بحيث كان عصره ﷺ عصر النبوة الزاهر الذي أرسى قواعد النظم الإسلامية كاملة وكان أزهى عصر عرفته حضارة الإنسان[2].

ولم يكن مثل هذا الإبداع التنظيمي بمستغرب على رسول بعثه الله تعالى للناس معلماً وهادياً، كان يتلقى الوحي من ربه طيلة الفترة التي عاشها مع صحبه قبل الهجرة وبعدها؛ فيوجّه إليه الأمر والنهي والنصح والإرشاد في ضوء ما يجدّ من وقائع وأحداث. ولقد آلت هذه الفترة من حكم الرسول الينبوع الذي اعتمد عليها الفقهاء والمشرعون المجتهدون والأئمة العارفون والحكام المخلصون؛ فَنَزَحوا منه كل الذي وضعهوه من الأصول والمبادىء في علم الفقه والأصول والاجتماع والتربية والحقوق الدولية والتنظيمات السياسية والعسكرية والمالية والجزائية، التي ساهمت فيما بعد في تشكيل الهيكلية الكاملة لأجهزة الحكم وأسسه في الإسلام وأرست ركائز الحضارة الإسلامية، وأثرت التراث الإسلامي بكل أبعاده وفصوله ومبادئه ومقاصده.

ويمكننا الجزم بأن نواة المجتمع الإسلامي الكبير قد زرعت بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة. ثمَّ اهتزَّت وربت وترعرعت وأينعت

---

(١) المصدر نفسه ٢/٢٢ ـ ١٠٠.

(٢) النظم الإسلامية د. صبحي الصالح/ ٥٩.

وازدهت فكانت كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفروعها تضرب في الاتجاهات المختلفة منتصبة في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربِّها، يؤكد هذا ما قاله المستشرق «جب» في كتابه المحمدية «إن تصور محمد لرسالته لم يعتره تحول ولا انقلاب، وإنما ظهرت الحركة الإسلامية في المدينة بصورة جديدة من الناحية الشكلية يوم نشأ في يثرب مجتمع قائم بذاته منظم على قواعد أساسية تحت قيادة رئيس واحد فأتيح بذلك للجماعة الإسلامية أن تنتقل مع الأحداث من المرحلة النظرية إلى المرحلة العملية»[1].

(١) النظم الإسلامية د. صبحي الصالح/ ٦١.

الفصل الخامس

طابع المجتمع الإسلامي في المدينة

قد يحلو لبعض حملة الأقلام ومدعي الفكر والعلم أن يرموا المجتمع الإسلامي الناشىء في المدينة بقيادة الرسول ﷺ بما يشاؤون من الأوصاف وإن كانت غير مؤتلفة مع طبيعته ولا مع مبادئه وأهدافه.

وقد وصفه البعض بالفعل بأنَّه مجتمع السيف والعدوان والإرهاب والحرب والقتال، وأنَّه مجتمع الغلو والتطرف.

مجتمع المدينة مجتمع الإخاء والإيمان:

والحقيقة، التي ينبغي أن تبقى ضالة المفكر المنصف، تأبى مثل هذه الاتهامات وسواها لأنها تسيء إلى الواقع وتزوِّره وتضل عقول الناس وتصدُّهم عن سواء الفكر.

ولقد ثبت بأنَّ الإسلام ظهر على يدي الرسول ﷺ في مكة. ولبث يدعو الناس إليه سحابة ثلاثة عشر عاماً لقي فيها مع من آمن معه، من العنت والعذاب والأذى الشيء الكثير حتى اضطر بعض أصحابه إلى

الهجرة إلى الحبشة، فراراً بدينهم ونجاه بأرواحهم، ومع ذلك فلم يرو عن رسول الله ﷺ أنَّه اتَّخذ في هذه المرحلة أي قرار بالمجابهة والقتال. بل الذي عرف عنه واشتهر أنَّه كان يوصي أصحابه عندما يراهم يلقون ما يلقون من العذاب والتنكيل، بل عندما رأى بعضهم قد قتل في سبيل الله، كان يوصي أصحابه بالصبر الجميل.

ولقد هاجر رسول الله ﷺ وهاجر معه من مكة من تمكن من أصحابه، ولم يعرف أنَّه قد تصدى لأحد في مكة أو خارجها بأذى أو مقاومة... كان يبلِّغ رسالة ربِّه ويدعو الناس إليها بالحكمة والموعظة الحسنة ويبصرهم بما هم عليه من الزيغ والانحراف والضلال، يكشف لهم بالبراهين والبيان الشافي الرفيع سبيل الهدى وطريق النجاة.

ولما هاجر إلى المدينة تابع منهجه وسلك الخط نفسه، فعكف على هداية الناس وتوجيههم، ولكنه زاد بأن أخذ في إنشاء المجتمع الجديد على أسسه الإسلامية الصحيحة بعد أن توفرت له المسوغات لذلك.

ولقد ثبت أنَّه عندما وضع أسس مجتمعه الجديد، كان في مقدمتها الإيمان بالله الواحد القهَّار والتسليم له، وأنَّ المؤمن أخ للمؤمن لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، فكان المجتمع الناشىء مجتمع الإيمان والإخاء ومجتمع التعلم والتعاون والتفاهم.

مجتمع السلام:

بل إنَّه عندما شاء أن يتخذ لهم شعاراً يتبادلونه بينهم ويرفعونه لدى كل لقاء، اتَّخذ شعار السلام، والأمان، فجعله العبارة التي يتبادلها أصحابه عند كل لقاء واجتماع، وهو لم يكتف بذلك، بل جعل هذا

الشعار في صلاتهم يدعون به لأنفسهم ولكل من آمن معهم. فيقولون: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، فكان مجتمعهم في الحقيقة مجتمع الإيمان والإخاء والتعاون والتفاهم والتعلّم ومجتمع السلام والأمان.

وإنَّ ما ظهر منه ﷺ في مختلف ظروف تعامله مع الناس حتى مع أعدائه في كثير من المناسبات كان يعبر عن هذا الاتجاه اتجاه السلام والسماح والعفو والحلم. فقد عرف عن قريش بأنَّها آذته وآذت أصحابه ثلاثة عشر عاماً متوالية، ثمَّ تابعته بعد هجرته إلى المدينة، تصب عليه جام غضبها وتلاحقه بعداوتها وخصومتها وحربها، ولكنه لما تمكن منهم يوم فتح مكة المكرَّمة وجمعهم حول الحرم وهم يظنون أنَّه لا مناص منتقم منهم، سألهم: «ما تظنون أني فاعل بكم»؟ فلما قالوا له: أخ كريم وابن أخ كريم، قال لهم: «لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء».

هذه المعاملة لهم لم تكن هي وحدها، بل لقد كان لها أمثال وأمثال مع الأفراد ومع الجماعات، حتى كان شعاره دوماً العفو والصّفح وعدم الانتقام، وكان ينصح أصحابه ويوصيهم فيقول: «رحم الله امرأً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا اقتضى».

لقد كان هذا النزوع طبيعة في رسول الله، وخلقاً راسخاً وأدباً جمّله به ربه الذي وصفه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيْمٍ ﴾. كما كان أيضاً أصلاً من أصول الإسلام أن جعل شعار أتباعه «السلام عليكم» بل وهو الذي أمر أصحابه حتى في حالات القتال، أن يلتزموا بكل القواعد الإنسانية التي تساعد على السلام، سواء قبل القتال أو خلاله أو بعده.

وكل كلام بعد هذا يتعارض مع هذه الأوصاف، بغي وافتئات وافتراء وتزوير، ويكفي أنَّ الجزيرة العربية بكاملها ظلت تتخبط في متاهات

الضلال والحيرة والتمزُّق حتى هبط فيها الوحي على قلب محمد بن عبدالله ﷺ، وتدفقت منه وعلى لسانه ومن بين يديه ينابيع النور على رحابها وقراها ومدنها وفي جميع أطرافها وآلت مثابةً للناس وأمناً. . .

السمات الأولى لمجتمع المدينة:

ولقد كانت السمات الأولى لمجتمع المدينة أن أصبح على يدي محمد بن عبدالله وبقيادته مجتمع الإيمان بالله ومجتمع التوحيد المترفع عن ضلال الشرك ما ظهر منه وما بطن والوثنية والأوثان، وكل ما يتصل بها من الكهانة والعرافة والسحر والتنجيم والخرافات والعادات القبيحة التي كانت مستحكمة من نفوس وطباع الأعراب، والتي كانت تفسد حياة الأفراد والمجتمعات، والمترفع عن أساليب التعامل الباطلة كالربا والميسر والخمر والإنصاب والإزلام والتطير وغير ذلك.

إنَّه المجتمع الذي أعلى كلمة التوحيد وشعاراته مثل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[١] وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]

---

(١) الأنعام/ ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) غافر/ ٦٦.

وقـوله: ﴿قُـلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُـوْنَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُـونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾[1].

ومن يكن مثل هذه الآيات شعاراً له وقاعدة لسلوكه ومنطلقه في الحياة، لا يمكن في شكل من الأشكال أن يكون من نهجه القتل وسفك الدماء والبغي والعدوان.

أمّا الدفاع عن النفس والتصدي لـدفع الـظلم، فإنّهمـا أمران مشروعان ومطلوبان شرعاً وقانوناً وإنسانية، وإلا ينتشر في الحياة البغي والفساد في الأرض ويكثر العدوان والعبث وتفشو الفوضى وهو ما لا يرضى به إنسان ولا تقره شريعة...

لقد كان الله في مجتمع المدينة قبلة كل قلب وبصيرة في كل قول أو عمل أو تعامل أو تشريع، ولذلك فقد اهتدى وتآلف ونعم بظلال الأخوة بعد أن هام طويلاً في سهوب العداوة والخصام.

فضل الإيمان على المجتمع:

وبفضل الإيمان بالله استرد مجتمع المدينة حرِّيته التي كان قد هدرها الشرك قبل هجرة الرسول ﷺ إليها، على أقدام الأوثان. واسترد كل فرد فيه حريته الشخصية في الاعتقاد والتفكير والقول والسلوك في حدود العقيدة التي آمن بها، والأنظمة التي ارتبط بها. فاستوى فيه كل الناس أمام الله وأمام الشرع، واستوَوْا في حقهم في المشاركة في بناء المجتمع، وإيجاد مؤسساته ووضع أنظمته، وتحمل مسؤوليات الدفاع عنه. فظهر فيه عاديو الناس ونبغوا إلى جانب كبرائهم وأشرافهم؛ فكان بلال

(1) الأنعام/ ١٤.

الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وأبو هريرة وأبو ذر وعمَّار بن ياسر من صحابة الرسول والمقربين إليه مثل أُبي بكر وعمر وعثمان وعلي لا يفترقون إلاَّ بالتقوى والعمل الصالح، وتقدم للإمارة أسامة بن زيد وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن رواحة وخالد بن الوليد وشرحبيل بن حسنه والمثنى بن حارثة وأمثالهم وبرز في العلماء والرواة أبو هريرة وزيد بن ثابت وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وغيرهم. وشهد المجتمع الإسلامي على أيديهم وأيدي من جاء بعدهم الخير الكثير من التطوّر والازدهار والمجد.

مجتمع المدينة والطبقات:

وبفضل هذا الإيمان العظيم تخطى هذا المجتمع الإسلامي الحديث، نظام الطبقات والنظام الرأسمالي المطلق الذي كان يبيح استغلال الإنسان للإنسان دون مراقبة من ضمير أو رادع من نظام، ولم يشأ أن يعتمد نظاماً اشتراكياً مادياً يقيد حركة تملك الإنسان المشروع ويعتدي على حريته وكرامته الشخصية باسم النظام وبغطاء من القانون، واعتمد نظام الإسلام الذي وفق بين حرِّية العمل وحريَّة التملك وأوجد لهما الرقابة الذاتية النابعة من وعي الضمير ومحاسبته الدقيقة وعن طريق الرقابة النظامية أيضاً المستمدة من شريعة الله التي تحترم مقوّمات الإنسان الذاتية وترعاها وتحفظ لها حرمتها.

مجتمع المدينة والتوسط:

وبفضل هذا الإيمان الراشد البصير اهتدى هذا المجتمع الجديد إلى المنهج المتوسط بين المنهجين المادي والروحي فجمع بين مصلحتي الروح والجسد، وبين متطلبات الحياة الدنيا والحياة الآخرة؛ فلم

ينشأ مجتمعاً مادياً مرتبطاً فقط برغائب البدن وشهواته وأهوائه كافراً بما وراء ذلك ليكون حاله كحال من قال فيهم الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُوْنَ أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُوْنَ﴾[١] ولا كحال أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخسَرِيْنَ أَعْمَالاً الَّذِيْنَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُوْنَ صُنْعاً أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيْمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾[٢].

ولم ينشأ مجتمعاً رهبانياً مجافياً لرغائب البدن ومتطلباته متفانياً في حاجات الروح وميولها بحيث يكون عاجزاً عن ضمان ضرورات العيش، وحائراً بين متطلبات البدن ومتطلبات الروح، بل كان مجتمعاً متوسطاً معتدلاً آخذاً بكل ما ينشىء الحياة ويبني قواعدها ويرفع عمدها فيما لا يتضارب مع أسس العقيدة وأغراضها...

ومن أجل هذا فقد جاء في الكتاب الكريم التوجيه الحاسم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾[٣] كما جاء فيه التوجيه الواضح الذي لا لبس فيه إلى هذا التوسط بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِيْنَ﴾[٤].

ولقد كان لهذا الإيمان والمنهج وتلك السمات بركاتها التي لا تنفذ

(١) النحل/ ٤ ـ ٥.
(٢) الكهف/ ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٣) البقرة/ ١٤٣.
(٤) القصص/ ٧٧.

على مجتمع المدينة وبالتالي على المجتمع الإسلامي في صدر الدعوة، ومن بعد في القرون الأولى، فكان من هباتها المشرفة وحدة الأمة وتكامل أبنائها بعضهم مع بعض مادياً وأدبياً، فكان مثلهم في تآخيهم واتحادهم ما وصفهم به الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» فكان الفرد في هذا المجتمع مسؤولاً عن الجماعة، وكانت الجماعة مسؤولة عن الفرد مسؤولية أمانة ومناط تكليف وإلزام. ولذلك كره الإسلام للفرد الانفراد عن المجتمع بموقف أو بمسيرة فقال ﷺ: «إنَّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فأن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

وأمر الجماعة بالسهر على المصلحة العامة والفردية فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وقال ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمّتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم». وقال في توجيه الجماعة للوصاية على الفرد ولتحمل مسؤولياتها بأمانة وصدق: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيه كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها. وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم. فقالوا لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا!! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[1].

لقد كان ذلك كله ضمن أنظمة وآداب مرسومة، لا تسمح بالفوضى والشذوذ وتشابك الصلاحيات وتضاربها والتعدِّي على كرامات وحرِّيات الأفراد والجماعة. وكان بالتالي نظام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

---

(١) رواه البخاري.

الذي عبَّر عنه القرآن واعتبره ظاهرة سموّ الأمة الإسلامية وخَيْرِيّتِها على جميع الأمم وذلك بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ﴾[1] وكذلك النبي ﷺ بقوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

وهكذا فقد كان طابع المجتمع الإسلامي في المدينة البارز أنَّه مجتمع الإيمان والرفض للشرك ومظاهره ودعاواه ومجتمع الأخوة والسلام والأمان والتعارف والتكافل ومجتمع الاعتدال والتوسط والمحافظة على حرِّيات الأفراد والجماعات، وعلى تعاون عناصره وفاعليَّاته في تضامن وتكافل وتراحم. وكان فوق هذا كله المجتمع البار بإنسانيته، الحفيظ على معالمها، المجد في خدمة مبادئها ومعانيها، الساعي بكل جد وإخلاص على إبراز محاسنها وصور الجمال فيها. فلم يكن بعد مجتمع السيف وسفك الدماء، أو مجتمع القتل والحرب والرعب والإرهاب.

وإنَّ ما اتَّخذه من مطلع عهده من إجراءات الدفاع كان احتياطاً لحماية كيانه وردع الطامعين فيه وتعزيز مهابته في النفوس، ومثل هذا الإجراء لا يوصف مطلقاً إلَّا بأنَّه إجراء الحكمة والتعقل، لأنَّ في القصاص حياة الناس، وسلامة لأبدانهم وأموالهم وأعراضهم ومؤسساتهم ومبادئهم ومقاصدهم..

---

(١) آل عمران/ ١١٠.

الفصل السادس

لماذا نجح المجتمع الإسلامي في المدينة

لعلَّ الكثيرين يتساءلون بعد استيعاب هذه الدراسة لماذا نجح الرسول ﷺ في تكوين مجتمع المدينة الجديد، وأفلح بإرساء قواعد الحكم والدولة الإسلامية فيه، ووفق للقضاء على كل الذين عارضوه وتصدوا له بالتآمر الخفي والحرب الظاهرة رغم ضآلة إمكاناته الماديَّة ورغم قلَّة مؤيِّديه ومحازبيه في أيامه الأولى؟..

قد تكون الإجابة على هذا السؤال موضوع حديث طويل ولكننا نستطيع أن نوجزها بما يلي:

١ ـ الوثنية لا تملك في ذاتها مقوّمات الدين الصحيح:

صحيح أنَّ الوثنية التي كانت تعم الجزيرة قد تربعت على عروش قلوب أكثر أبنائها، وتمكنت بعقائدها وأساطيرها وتقاليدها وأعرافها من إقناعهم بالدفاع عنها، ولكنها مع ذلك لم تملك في ذاتها مقوّمات الدين الصحيح من جهة، ولم يكن لها على أتباعها وجودٌ سلطوي معترف به من

الجميع من جهة أخرى. الأمر الذي جعل مناهدتها للدعوة الإسلامية على الطريقة العشائرية الفوضوية، فاقدة لأكثر عناصر الصمود والفوز في الجماعة.

٢ ـ الديانات الأخرى لم تستجمع عوامل التأثير البعيد:

أنَّ جميع الديانات التي كانت ذات وجود في أطراف الجزيرة العربية، لم تكن تستجمع في عقائدها وشرائعها وآدابها عوامل القوَّة المؤثرة على المجتمع العربي إذ ذاك. ولذلك فإنَّها لم تفز باستمالته وحيازة عواطفه وقناعاته، وظلَّت فعاليتها وقوَّتها مبعثرة في أطراف الجزيرة، وغير ذات كيان سياسي أو عسكري تتجمع له القـوى القادرة على المصاولة والمقاتلة الناجحة على المدى الواسع والطويل.

٣ ـ الإسلام دين مكتمل:

وعلى النقيض من ذلك، فإنَّ الإسلام الذي جاء به محمد من عند الله، دين ارتضاه الله للعالمين وهيَّأ له كل الأسباب الذاتيَّة في عقائده وتشريعاته وآدابه التي تخوله قوة التأثير على من يتعرف عليه، ومنحه من البساطة والوضوح وحسن التنظيم ما يأخذ بمجامع النفوس ويحمل على سرعة الاستجابة له.

٤ ـ تعاطف الإسلام مع الرسل السابقين:

إنَّ دين الإسلام العظيم يتعـاطف مع جميـع الرسـل والأنبياء السابقين، ويحيطهم بكل معاني الإجلال والتقديس والإكبار. بل ويسرد قصص البعض منهم وآثارهم وأقوالهم سرد الخبير العليم، المطلع على ما دق وجل من أخبار حياتهم وأسس رسالتهم ومراحل دعوتهم ويطرح صوراً من سيرتهم مؤيداً لمواقفهم ومقدراً لمعتقداتهم.

٥ ـ إنَّه يتبنى معتقداتهم:

وإنَّه لم يكتف بالتعاطف مع أولئك الرسل والنبيين وتقدير مواقفهم وتأييد معتقداتهم. بل ركز على تبنِّيها والدعوة لها خالصة مما اعتراها لاحقاً من الشوائب أو أصابها من التحريف أو التزييف على أيدي أتباعها، وذلك بأسلوب حكيم ومنطق راشد سديد معزّز بالوثائق والأدلة والبراهين التي لا يملك العقل تجاهها إلاَّ التسليم والخضوع.

٦ ـ نزول شرائع الإسلام منجمة:

على أنَّه كان يطرح عقائده وتشريعاته وأوامره ونواهيه وحدوده وآدابه وأخباره وقصصه، منجمة وحسبما تقتضيه الوقائع والأحداث ومتطلبات الظروف ومصالح الناس. فكان يترك في النفوس أثره العجيب وسحره الغريب ويستلُّها استلالاً مما هي فيه من ضلال وفساد، ويدفعها دفعاً إلى الإيمان به والانخراط بجماعته.

٧ ـ إنه من عند الله:

ويزيد من نضارته وفاعليته أن كل الذي كان يطرحه من معتقد وفكر وتشريع وأدب وتوجيه وحكم، أو يُلفت النظر إليه من آيات الكون وبديع الصنع كان مشفوعاً بما يؤكد أنَّه ليس من عند بشر، بل هو من عند خالق البشر ومانح القوى والقدر، سواء كان في البيان المعجز، أو في السياق المبدع، أو في وقت النزول، أو فيما كان يحتويه من عجيب الحديث وصادق الخبر وسوى ذلك.

٨ ـ القرآن المعجز:

على أنَّ الكتاب العظيم الذي كان يساند دعوة الرسول ﷺ، وهو القرآن

الكريم في مراحلها المختلفة كان معجزاً كل الإعجاز. وقد أبرز إعجازه بتحدٍ وجهه للقوم يومذاك، وهم من هم في فصاحتهم وبلاغتهم وصفاء عبارتهم، فلم يستطيعوا معارضته، ممَّا أكَّد إعجازه وأنَّه من عند الله.

٩ ـ خلق الرسول العظيم:

وقد كان الرسول ﷺ الذي حمل هذا الدين وقام بمهمة تبليغ عقائده وشرائعه وآدابه إلى الناس، كان في حدٍّ ذاته على مستوى رفيع من الخلق العظيم والسيرة الحميدة وفصاحة اللسان وبلاغته، لا يدانيه في ذلك أحد من الناس فيما تقدم أو تأخر، الأمر الذي زاد في قناعة الجميع، وهو الذي ولد فيهم وعاش أيامه الأولى قبل البعثة بينهم كإنسان لا امتياز له على أحد منهم إلَّا بما كان يتصف به من اعتزال مجالس لهوهم وما شابهها، بأنَّه بشر سوي وعجيب يستحق كل تقدير ورعاية وتأييد.

١٠ ـ تأييده بالمعجزات:

أنَّ هذا الإنسان الخلوق الذي اتخذ صفة الرسول المبعوث من ربه إلى الناس جميعاً بدين الإسلام الجديد، كان مؤيداً في كثيرٍ من مواقفه وظروفه وأقواله وأفعاله بالمعجزات التي شهدت له بصحة دعواه، وأكَّدت صدق رسالته، وساعدت على تذليل كل العقبات التي كانت تعترضه.

١١ ـ توفر البيئة الصالحة له:

أنَّ هذا الدين الجديد الذي تيسَّرت له كل تلك المعطيات وفي مقدِّمتها الوحي وكتاب الله، ثمَّ القائد الحكيم والعظيم، قد توفَّرت له أيضاً في المدينة البيئة الصالحة، والمجتمع المؤاتي، والمناخ المناسب.

وكل ذلك قد مكّنه من أن يجمع قواه الخاصة به، وأن يهيىء صحابته من خلال تربيته وتوجيهه وسهره ورعايته لهم، ليكونوا نواة أمة راشدة تصون ذاتها بأسمى العقائد والشرائع والآداب في وجه كل اعتداء قد يقصدها ويبغي النيل منها.

١٢ ـ منهجه المسالم كان له الأثر البعيد:

أن انطلاقة الرسول ﷺ بدعوته في مجتمعه الناشىء تابعت الخط نفسه الذي بدأه في مكة وهو خط المسالمة والموادعة للناس كافة، والدعوة إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة، ورفض سلوك العدوان والإرهاب، بل حتى والقتال، إلاّ مع أولئك الذين يعتدون عليه ويحولون دون انتشار عقيدته ودينه الجديد. ذلك لأنَّ الناس كل الناس سواء، في أنَّ الله قد خلقهم من بطون أمهاتهم أحراراً، لا يملك أحد حق احتجاز حرِّياتهم هذه، أو اقتناص كراماتهم ومنعهم من ممارستهما في الاعتقاد والقول والفكر والسلوك، ما دام كل ذلك في حدود ما أجازته لهم القوانين وسمحت لهم به الشرائع العادلة.

١٣ ـ مسالمته كل الناس:

أن منهجه المسالم والموادع لم يكن متبعاً مع فئة دون أخرى أو قوم دون قوم آخرين. بل مع الناس جميعاً من كل الفئات والطبقات والاتجاهات والانتماءات. لأن مهمته كانت إبلاغ الناس كافة رسالة ربه وإنارة نفوسهم وقلوبهم بهداها ليسترشدوا بضيائها. وما أروع قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِيْنَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾.

وإنَّ هذه الأمور وسواها مما قد نكون غفلنا عنه، عملت متحدة

ومفترقة على إنجاح مجتمع الرسول ﷺ ودعوته، وفتحت لهما الطرق، ويسَّرت سبل الفوز حتى حقق الإسلام ما عرفه له التاريخ من المجد العظيم والحضارة السامية.

الفصل السابع

وقفة تأمل وتذكير

إنَّ المفاهيم التي قدَّمناها في هذه الدراسة الموجزة ووضعناها بين يدي القارىء والتي أبرزت معالم المجتمع الإسلامي في المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ وعرّفت إلى حدّ ما على مقوّمات وجوده وكيانه ومبرِّرات نجاحه وتفوُّقه على كل ما كان حوله يومذاك، لتقتضينا اليوم وقفة تأمل واستبصار ومراجعة للواقع الذي نعيشه في مجتمعاتنا العربية والإسلامية المعاصرة، لنرى هل هو واقع مسترشد بمنهجية الإسلام الحكيمة، وآخذ بخطوطه العريضة المستقيمة؟ أم أنَّه واقع قد اعتراه من الضلال والانحراف الكثير مما اعترى سواه؟!

وليس من حقي هنا أن أخوض في الإجابة على هذا التساؤل. ولكن من واجبي أن ألفت النظر إلى أنَّ المسلمين اليوم هم على خطر كبير، وأنَّهم أصبحوا يمثلون القصعة التي تتجمع عليها قوى العالم الظالمة لتستنزف منها. تلك القصعة التي تنبأ بها الرسول وأشار إليها في

حديثه الذي يقول فيه: «يوشك الأُممُ أنْ تَدَاعىٰ عليكم كما تداعىٰ الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتها، فقال قائل: وَمِنْ قِلَّةٍ نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثَاءٌ كغُثَاءِ السَّيْل وَلَيَنْزِعَنَّ الله من صدور عدوّكم المَهَابَةَ منكم، وَلَيَقْذِفَنَّ الله في قلوبكم الوَهْنَ. قال قائل: يا رسول الله!! وما الوَهْنُ؟ قال: حبُّ الدنيا وكراهية الموت»(١).

وهم فوق هذا صاروا عرضة للاستنزاف بما يثيره أعداؤهم بينهم من فتن يدفعونهم إلى خوض غمارها والاصطلاء بنيرانها ليشغلوهم بها عن أنفسهم وعن أغراضهم. ومن أبرز هذه الفتن، ما يبتعثونه فيهم من نزاعات شخصية وخلافات سياسية، قومية ومذهبية، ليسلطوا بعضهم على بعض بالبغي والعدوان. وكلها من الأمور التي نبّهنا الله تعالى إلى خطورتها وأهوالها ومصائبها بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِيْنَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُوْنَ﴾(٢) وقوله: ﴿وَلَا تَكُوْنُوا كَالَّذِيْنَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٣).

وفي ختام هذه الآية ما فيه من التهديد، وذلك عندما يخبرنا بأنَّ هؤلاء الذين اختلفوا وتنازعوا فشلوا وذهبت ريحهم وضاعت دولتهم ثمَّ لهم في الآخرة كما كان لهم في الدنيا عذاب عظيم. وكأنَّه يطلب إلينا ـ والله أعلم ـ أن نعتصم بحبله ونتمسك بهديه. وذلك واضح في الآية الأولى التي سبقت على هذه والتي يقول فيها الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داوود ٤٠٤/١١، كتاب الملاحم.
(٢) الحشر/ ١٩.
(٣) آل عمران/ ١٠٥.

بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيْعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ﴾[1].

وواقع الأمة من الخليج إلى المحيط، بل وقبل الخليج من الشرق الأقصى، حيث تقع أندنوسيا وماليزيا حتى أقصى مكان يوجد فيه جماعة مسلمة، يوضّح كلياً ما تمرّ فيه هذه الأمة من ظرف عسير وأيام شداد، ويفرض علينا فرضاً قوياً أن نعوذ إلى الله في كتابه ثمَّ كلام رسوله العظيم وسيرته الفاضلة وسيرة أصحابه رضي الله عنهم أجمعين ثمَّ إلى أقوال الأئمة وسيرهم الصالحة لنستوحي منها ما يضعنا على الجادة المستقيمة ويفتح لنا من جديد آفاق البر والرشاد والهدى والتوفيق.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) آل عمران/ ١٠٣.

فهـــرس

مقدمـــة ٧

الباب الأول

الفصل الأول: شبه الجزيرة العربية ١٥
الفصل الثاني: المدينة قبل الهجرة ٢٣
الفصل الثالث: يثرب وجوارها ٤١
الفصل الرابع: الوضع الاقتصادي لمجتمع المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ ٤٧
الفصل الخامس: أخلاقهم وعقائدهم ٦١
الفصل السادس: الأسرة العربية في مجتمع المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ ٦٥
الفصل السابع: الحكم والرياسة ٦٩
الفصل الثامن: نبذة عن عقائد المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ ٧٥
الفصل التاسع: مجتمع المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ ٩١
الفصل العاشر: الرسول ﷺ والمهاجرون في المدينة ٩٧
الفصل الحادي عشر: خلاصة عن مجتمع المدينة لدى دخول الرسول ﷺ ١٠١

الفصل الثاني عشر: الركائز الأساسية في تطوير مجتمع المدينة بعد الهجرة ١٠٥
الفصل الثالث عشر: بناء المسجد ١٢٣

الباب الثاني

الفصل الأول: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ١٣٥
الفصل الثاني: موادعة اليهود ١٥٣
الفصل الثالث: ركائز أخرى في بناء المجتمع ١٥٩
الفصل الرابع: وسطية الإسلام ١٦٩
الفصل الخامس: شرعة الأذان ١٨١
الفصل السادس: التطوير والبناء لمجتمع المدينة بعد الهجرة ١٨٥
الفصل السابع: تنظيم الأسرة ٢٠٥

الباب الثالث

الفصل الأول: إصلاحات اجتماعية ٢٣٧
الفصل الثاني: تحصين الفرد والجماعة بالتشريع ٢٦٧
الفصل الثالث: نماذج من الإصلاحات التي تمت في عهد الرسول ﷺ بعد هجرته ٢٧٩
الفصل الرابع: السياسة والمدينة ٢٨٥
الفصل الخامس: طابع المجتمع الإسلامي في المدينة ٢٩٩
الفصل السادس: لماذا نجح المجتمع الإسلامي في المدينة ٣٠٩
الفصل السابع: وقفة تأمل وتذكير ٣١٥



